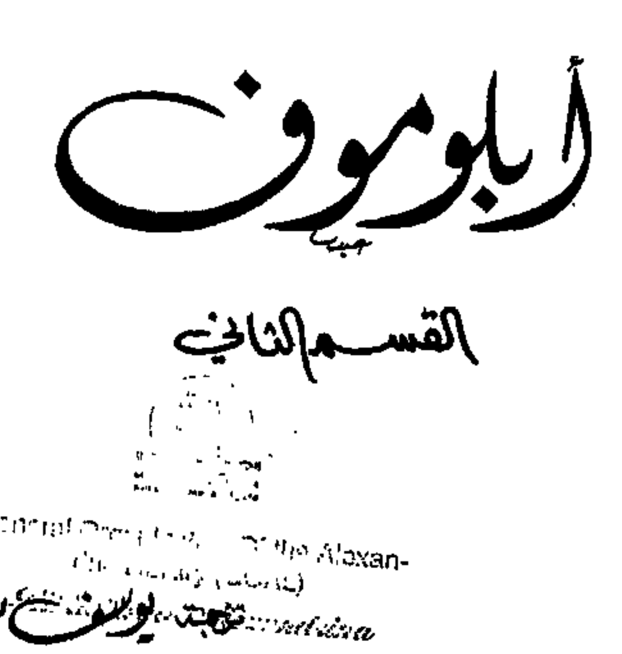
سلسلة روايات عالمية



الإشراف الفني: زهير الحمو

سلسلة روايات عالمية «١٢»

ايفان الكساندروفيتش غونتشاروف





العنوان الأصلي للكتاب :

И.А.ГОНЧАРОВ

ОБЛОМОВ

РОМАН

В ЧЕТЫРЕХ ЧАСТЯХ

الجــزء الثــاني



— ١ —

كان أبلوموف متألقاً وهو في طريقه الى البيت . كان دمه يغلي وعيناه تلتمعان . حتّى شعره ، بدا له ، وكأنه يشتعل . دخل حجرته وهو في هذه الحالة — وفجأة اختفى تألقه وتسمّرت عيناه بلا حراك ، وقد تملكته الدهشة ، على مكان واحد : كان تارانتييف جالساً على أريكته .

— مللت الإنتظار . أين كنت تتسكع ؟ — سأل تارانتييف بصرامة ، وهو يمدّ له يده المكسوة بالشعر .

— لقد خرج خادمك الشيطان العجوز زاخار عن طاعتك تماماً : أطلب شيئاً لآكله ، فيجيبني بالرفض ، حتّى أنه امتنع عن تقديم قطرة من الفودكا لي .

— كنت أتنزه هنا في الغابة ، — قال أبلوموف بعدم اكتراث ، وهو لم يصح بعد من الصدمة ، التي سببّها ظهور مواطنه المفاجىء عنده ، وخاصة في لحظة كهذه !

كان أبلوموف قد نسي تماماً الوسط المظلم ، الذي عاش فيه طويلاً ، ولم يعد يطيق ذاك الجو الخانق . وبلحظة واحدة ، أعاده تارانتييف من جديد ، الى ذاك المستنقع الذي كان يتخبّط فيه .

أخذ أبلوموف يسائل نفسه : لماذا جاء تارانتييف ؟ هل سيمكث طويلاً ؟ — وهو يتوجّس خشية أن يبقى عنده الى مابعد الغداء ، فيمنعه من الذهاب الى آل إيلينسكايا . كانت فكرة واحدة تشغل بال أبلوموف هي أن يصرف تارانتييف ، مهما كلّفه ذلك من نفقات مالية . أخذ ينتظر بصمت وتجهّم ما سيقوله تارانتييف .

— ألا تفكّر يامواطني بأن تلقي نظرة على الشقة الجديدة ؟ — سأل تارانتييف .

— لا ضرورة لذلك الآن ، — قال أبلوموف متفادياً النظر الى تارانتييف . — لن أنتقل الى هناك .

— ماذا ؟ كيف لاتنتقل ؟ اعترض تارانتييف بعنف — لقد استأجرتها فكيف لاتنتقل ؟ والعقد ؟

— أي عقد ؟

— هل نسيت ؟ لقد وقّعت عقداً لمدة عام . أعطني ثمانمائة روبلاً واذهب بعدها الى أي مكان تشاء . لقد جاء أربعة مستأجرين ، رُفِضوا بسببك . أحدهم كان يريد استئجارها لثلاث سنوات .

تذكّر أبلوموف الآن ، بأن تارانتييف قد جلب له ورقة في نفس

اليوم الذي انتقل فيه الى المنزل الريفي ، الذي يقطنه حالياً ، فوقّعها على عجلة ، دون أن يقرأها .

« آه ، ياالهي ، ماذا فعلت ! » — فكّر أبلوموف .

— لكن لاحاجة لي بتلك الشقة ، فأنا مسافر الى الخارج . . .

— الى الخارج ! — قاطع تارانتييف — مع هذا الألماني ؟ لن تسافر !

— لماذا لن أسافر ؟ لقد حصلت على جواز السفر : سأريك إياه ، كما اشتّريت حقيبة .

— لن تسافر ! — كرّر تارانتييف بعدم اكتراث — من الأفضل أن تدفع الإيجار مقدّماً عن نصف سنة .

— لاتوجد لديّ نقود .

— عليك أن تؤمّنها ، فأخ اشبينتي إيفان ماتفييتش لايحب المزاح . فهو جاهز لأن يرفع بحقك دعوى على الفور : وعندها لن تفلت منه . لقد قمت بتسديد النقود عنك ، ادفعها لي !

— من أين حصلت على مبلغ كهذا ؟ — سأل أبلوموف .

— وماعلاقتك بذلك ؟ لقد استرددت مبلغاً قديماً . هات النقود ! من أجل هذا أتيت .

— حسناً ، سأذهب قريباً لأسلّم الشقة لشخص آخر ، أما الآن فانني مستعجل . . .

بدأ أبلوموف يزرّر سترته .

مانوعية الشقة التي تحتاجها ؟ فلن تعثر على أفضل منها في المدينة كلها قال تارانتيف . ألم ترها ؟ —

— لاأريد أن أراها ، — أجاب أبلوموف ، — لماذا أنتقل الى هناك ؟ فهي بعيدة بالنسبة لي . . .

— لماذا ؟ — سأل تارانتييف بفظاظة .

لكن أبلوموف لم يذكر السبب .

— بعيدة عن مركز المدينة ، — أضاف أبلوموف بعدها .

— عن مركز المدينة ؟ وماحاجتك اليه ؟ فأنت مستلقٍ دائماً في فراشك .

— كلا ، لقد أقلعت عن ذلك .

— ماالسبب ؟

— هكذا . فأنا . . . اليوم . . . — بدأ أبلوموف .

— ماذا ؟ — قاطع تارانتيف .

— أتناول الغداء خارج المنزل . . .

— أعطني النقود ، واذهب بعدها الى الشيطان !

— أية نقود ؟ — كرّر أبلوموف بنفاذ صبر . — سأمرّ قريباً الى الشقة الجديدة . وأتحدث مع مالكتها .

— مع مالكتها ؟ مع إشبينتي ؟ إنها لاتعرف شيئاً بهذا الخصوص . تحدّثْ إلى أخيها ، وسترى !

ـ حسناً ، سأذهب وأتحدث اليه قريباً .

ـ أعطني النقود وانصرف .

ـ لاأملك نقوداً ، يجب أن أستلف من أحدٍ ما .

ـ ادفع لي الآن ، على الأقل ، أجرة العربة ، ـ ألحّ تارانيتيف ، ولتكن ثلاثة روبلات .

ـ أين سائق عربتك ؟ ولماذا ثلاثة روبلات ؟

ـ لقد سمحت له بالإنصراف . ـ لماذا ثلاثة روبلات ؟ أنت ترى أنّ الطريق رملية هنا ، فلا يقبل السائق أقلّ من ذلك .

ناوله أبلوموف أربعة روبلات ، سرعان ماأخفاها تارانتييف في جيبه .

ـ يبقى لي في ذمتك سبعة روبلات . ـ أعطني ثمن الغداء !

ـ ثمن أي غداء ؟

ـ لن أستطيع الوصول الى المدينة الآن : سأضطر لأن أعرّج على حانة في الطريق . الأسعار غالية هنا ، فلن يكلفني الغداء أقل من خمسة روبلات .

أخرج أبلوموف بصمت من جيبه روبلاً ورماه له . لم يكن قادراً على الجلوس بسبب نفاذ صبره ، فقد كان يرغب كل الرغبة بأن ينصرف تارانيتيف بأسرع ما يمكن ، لكن هذا لم يتحقق بسهولة .

ـ أصدرْ أوامرك كي يقدموا لي شيئاً ما ألتهمه ، ـ قال تارانتييف .

ـــ (ملاحظاً) ألم تقل بأنك تريد أن تذهب الى الحانة ؟

ـــ سأذهب الى الحانة وقت الغداء ! أما الآن فالساعة لم تبلغ الثانية بعد .

أمَر أبلوموف زاخار بتقديم شيء ما يأكله .

ـــ لم نحضّر شيئاً ، ـــ أجاب زاخار بجفاء ، وهو ينظر الى تارانتييف بغضب . ـــ

متى ستعيد قميص سيّدي وسترته ياميخا أندرييتش ؟ . . .

ـــ عن أي قميص وسترة تتحدث ؟ ـــ قال تارانتييف متجاهلاً . ـــ لقد أعدتهما منذ زمن بعيد .

ـــ متى ؟ ـــ سأل زاخار .

ـــ ألم تستلمهما مني بيديك عندما انتقلتم الى هذا البيت ؟ لقد وضعتهما في إحدى الصرّات ومع ذلك تعود وتسألني . . .

بدت على زاخار علامات الذعر .

ـــ آه ياإلهي ! ياله من عار ! إيليا إيليتش ، أي رجل هذا ! ـــ قال زاخار موجهاً كلامه الى إيليا ايليتش .

ـــ غَنِّ ، غَنِّ هذه الأغنية ! ـــ قال تارانتييف معترضاً . ـــ شربت الشاي وأعود لأسأل عنه . . .

ـــ كلا ، فأنا لم أفعل هذا أبداً ، ـــ قال زاخار بصوت أجش . ـــ فأنت الذي . . .

ـــ كفى يازاخار ! ـــ قاطع أبلوموف بصرامة .

ـ ألم تأخذ من عندنا مكنسة وفنجانين ؟ ـ سأل زاخار من جديد .

ـ مكنسة ؟ ـ دوّى صوت تارانتيف . ـ آه منك أيها الشيطان العجوز ! من الأفضل لك أن تأتيني ببعض الطعام !

ـ أسمعت ياإيليا إيليتش كيف ينبح ؟ ـ قال زاخار ـ لايوجد لدينا طعام ، حتى كسرة خبز واحدة لاتوجد في البيت ، وأنيسيا ليست موجودة ، ـ أتمتم زاخار كلامه ثم انصرف .

ـ أين ستتناول طعام الغداء ؟ ـ سأل تارانتييف . ـ عجباً حقاً : أصبح أبلوموف يتنزه في الغابة ويتناول الغداء خارج المنزل . . . متى ستلقي نظرة على الشقة الجديدة ؟

فها هو ذا الخريف على الأبواب . هيا اذهب سريعاً .

ـ حسناً ، حسناً ، سأذهب قريباً . . .

ـ لاتنسَ أن تجلب النقود معك !

ـ أجل ، أجل ، أجل . . . ـ قال أبلوموف بفارغ الصبر .

ـ هل تحتاج لشيء ما في الشقة الجديدة ؟ فقد طلى أخ اشبينتي خصيصاً من أجلك ، أرض الشقة وسقفها ، والنوافذ والأبواب ـ فالكلفة تجاوزت المئة روبل .

ـ حسناً ، حسناً . . . كنت أريد أن أقول لك ـ تذكّر أبلوموف فجأة ، ـ بأن تذهب وتصدّق لي وثيقة توكيل . . .

ـ هل أصبحت معقّب معاملات عندك ؟ ـ أجاب تارانتيف .

ـ سأزيد لك قيمة الغداء ، ـ قال أبلوموف .

ـ سأتلف من الأحذية أكثر مما ستزيده لي .

ـ اذهب ، وسأدفع لك ماتريد .

ـ لاأستطيع ـ قال تارانتييف متجهّماً .

ـ لماذا ؟

ـ يوجد لديّ أعداء حانقون .

ـ حسناً ، سأذهب بنفسي ، ـ قال أبلوموف وهو يلتقط سدارته .

ـ عندما تذهب الى الشقة الجديدة ، سينجز لك إيفان ماتفييتش هذا الموضوع .

انه انسان رائع ماهر ، لايضاهيه أي ألماني ! فهو موظف روسي أصيل ، أمضى ثلاثين عاماً من الخدمة وهو يجلس على نفس الكرسي ، يعمل كالآلة ،ويملك نقوداً ، لكنه لايستأجر عربة ، يرتدي بدلة ليست أفضل من بدلتي ، حليم وديع ، يتكلّم بصوت لايكاد يسمع ، ولا يتسكّع في بلدان غريبة كما يفعل صاحبك . . .

ـ تارانتييف ! ـ صرخ أبلوموف وهو يضرب الطاولة بقبضةيده. اسكت ، فأنت لاتفقه شيئاً !

وقف تارنتييف مشدوهاً من ردّ فعل أبلوموف الحاد هذا ، حتى أنّه نسي أن يبدي استياءه ، لأنّه وُضع في منزلة أقل من منزلة شتولتس.

ـ هكذا أصبحت إذن ياأخي . . . ـ تمتم تارانتييف ، وهو يأخذ قبعته ، ـ ياله من نشاط ! مسّد قبعته بكمّه ، ثم نظر إليها والى قبعة أبلوموف المعلّقة .

ـ أنت لاتلبس قبعّة ، بل سدارة ، ـ قال تارانتييف وهويأخذ قبعّة أبلوموف االمعلّقة ويقيسها ـ أعطني القبعّة ياأخي .

رفع أبلوموف بصمت قبعّته من على رأس تارانتييف ووضعها في مكانها السابق ، ثم كتّف يديه وراح ينتظر انصرافه .

ـ اذهب الى الشيطان ! ـ قال تارانتييف ، وهو يحشر نفسه في الباب بارتباك ، ـ لقد تغيّرت ياأخي . . . لاتنسَ أن تذهب الى إيفان ماتفييتش لتتحدث إليه .

ـ ٢ ـ

انصرف تارانتييف ، أما أبلوموف فقد جلس على أريكته وهو في وضع نفسّي غير مريح ، وبقي طويلاً قبل أن يتحرر من هذاالإنطباع المزعج الناجم عن زيارة تارانتييف . لكنّه مالبث أخيراً أنتذكّر الصباح ، فاختفت صورة تارانتييف المزعجة من رأسه ، وظهرت الإبتسامة من جديد على وجهه .

وقف أمام المرآة ، ثم أصلح ربطة عنقه وابتسم طويلاً ، ونظر الى وجنتيه ليرى فيما إذا كان قد بقي عليهما أثر من قبلة أولغا الحارة .

ـ كم هو شائع الفرق بين « أبداً » السابقة و « أبداً » الراهنة ، ـ قال أبلوموف بصوت خافت وهو يضطرب بسرور : فالسابقة أصبحت شاحبة ذابلة ، أمّا الأخيرة فقد تألّقت بسطوع . . .

استغرق بعدها في تفكير عميق . أحسّ بأنّ عيد الحب المشرق

الصافي قد انقضى ، وأن الحب قد أصبح في حقيقة الأمر واجباً يمتزج بحياته كلها ، ويدخل في تكوين وأداء واجباتها الإعتيادية ، وأنه بدأ يبهت ويفقد ألوانه الزاهية .

ربما يكون شعاع الحب الوردي الأخير قد انقضى صباح هذا اليوم ، فلن يتلألأ بعد الآن بسطوع ، بل سيدفيء الحياة بشكل غير منظور ، لكن الحياة ستمتصه مع الزمن ، وستصبح بالطبع ، الباعث القوي والخفي له . ستصبح تجليات الحب بسيطة عادية ، منذ الآن .

القصيدة العاطفية انتهت ، وابتدأت حكاية الواقع الصارم :

وثيقة التوكيل ، السفر الى أبلومفكا ، بناء البيت ، شق الطريق ، قضايا الفلاحين التي لاتنتهي ، نظام العمل ، الحصاد ، المحصول ، الحسابات ، ناظر القرية ، انتخابات النبلاء ، الإجتماعات .

لكن نظرة أولغا كانت تبرز أحياناً ، هنا وهناك ، وتتردد أنغام أغنية العذراء الطاهرة ، وأصداء قبلة عجلى ، ثم تبرز المشاغل من جديد السفر الى المدينة ، الحسابات وغيرها .

يصل الضيوف ، فتدور الأحاديث : فلان ينتج كميات كبيرة من النبيذ ، وآخر كميات كبيرة من الجوخ. . . ماهذا ؟ أين المتعة في ذلك ، هل هذه حياة ؟ . . . والغريب في الأمر ، هو أنهم يجدون في ذلك ، الحياة كلها . وأندريي أيضاً ، تعجبه هكذا حياة !

لكن الزواج والعرس يظلان قصيدة الحياة وأنشودتها ، وزهرتها المتفتحة الناجزة . تخيل أبلوموف نفسه وهو يصحب أولغا الى الكنيسة ،

وعلى رأسها غصن النارنج . يتهامس حشد الحضور ثم تتعالى صيحات الإعجاب . وتمدّ له يدها ، بحياء ، وصدرها يخفق بعض الشيء ورأسها يميل قليلاً بانسجام وكبرياء ، دون أن تعرف كيف ستواجه الجميع بنظراتها . فتظهر الابتسامة تارة ، والدموع تارة أخرى ، ثم تنعقد الفكرة فوق حاجبيها على شكل ثنية لاتكاد تظهر .

وبعد أن ينصرف الضيوف ، ترتمي على صدره ، كما فعلت اليوم ، وهي لاتزال في أبهى حلتها . . . « كلا ، سأذهب الى أولغا حالاً ، فأنا لاأستطيع أن أفكّر وأنعم بهذه الأحاسيس لوحدي ، — تخيّل أبلوموف — . سأخبر الجميع ، بل العالم كلّه بمشاعري هذه . . . كلا ، سأخبر في البداية عمتها ، ومن بعدها البارون ، وسأكتب الى شتولتس. ستتملكهالدهشة ! سأخبر زاخار ، وسيطير فرحاً ، ثم أعطيه خمسة وعشرين روبلاً .

تأتي بعد ذلك أنيسيا فترتمي على يدي لتقبّلها : فأعطيها عشرة روبلات . . . بعدها أصرخ أمام مسامع البشر كلّهم ، صرخة فرح وسرور ، صرخة تدفع الناس للقول :

« أبلوموف سعيد ، أبلوموف سيتزوج ! » .

سأطير الى أولغا : حيث ينتظرني هناك همس لاينقطع ، وميل خفي لتوحيد حياتين في حياة واحدة ! . . . »

أسرع أبلوموف الى أولغا . كانت تسمع أحلامه والبسمة بادية عليها

لكنه ما إنْ وثب من مكانه عازماً على الذهاب الى عمتها لابلاغها بالنبأ ، حتى قـَطـّبَت حاجبيها ، فتسمـّر مكانه وخاف .

— لاتتفوّه بكلمة لأحد ! — قالت أولغا ، وهي تضع اصبعها على شفتيها متوعدة وآمرة بأن يخفض صوته كي لاتسمع عمتها في الغرفة المجاورة . — لم يحن الوقت بعد !

— ومتى سيحين ، مادام كل شيء قد تقرر بيننا ؟ — سأل أبلوموف بفارغ الصبر . — ماالعمل الآن ؟ من أي شيء نبدأ ؟ — سأل أبلوموف . لايجوز أنْ نجلس مكتوفي الايدي . المسؤولية ابتدأت ، والحياة الجدية أطلّت . . .

— أجل ، ابتدأ الجد والمسؤولية ، — كررت أولغا ، وهي تنظر إليه بإمعان .

— كنت أريد أن أخطو الخطوة الاولى ، فأذهب الى عمتك . . .

— هذه هي الخطوة الأخيرة .

— ماهي الخطوة الأولى ؟

— الخطوة الأولى : أن تذهب لتصادق على وثيقة التوكيل .

— أجل . . . سأذهب غداً . . .

— لماذا لاتذهب اليوم ؟

— اليوم . . . لاأستطيع أنْ أبتعد عنك في مثل هذا اليوم يا أولغا !

— حسناً ، اذهـَب غداً . وماذا ستفعل بعد ذلك ؟

— بعد ذلك ، — أخبر عمتك ، وأكتب الى شتولتس .

— كلا ، يجب أن تسافر الى أبلوموفكا بعد ذلك . . . فقد كتب

اليك أندري إيفانيتش بخصوص مايجب أن تفعله في القرية : لاأعرف بالضبط ماهي الأعمال ، التي تنتظرك هناك . هل ستشيد مبنى ؟ سألت أولغا وهي تنظر الى وجهه .

ــ ياإلهي ! ــ قال أبلوموف ، ــ اذا ماأخذنا بنصائح شتولتس ، فسيمر وقت طويل جداً قبل أن تصل المسألة الى عمتك ! انه ينصحني بأن أبدأ ببناء منزل ، ثم بشقّ طريق ، وبتأسيس مدرسة . . . فهذه الأعمال تتطلب قرناً من الزمن لإنجازها . من الأفضل أن نذهب سوية الى ابلوموفكا ياأولغا ، وعندئذ . . .

ــ الى أين سنذهب ؟ هل يوجد لديك بيت هناك ؟

ــ كلا : يوجد منزل قديم جداً ، أعتقد أن سقفه قد تهدم تماماً .

ــ الى أين سنذهب اذن ؟ ــ سألت أولغا .

ــ يجب أن نبحث عن شقة هنا .

ــ أجل هذا ، يجب أن تذهب الى المدينة أيضاً ، ــ لاحظت أولغا هذه هي الخطوة الثانية . . .

ــ بعد ذلك . . . ــ بدأ أبلوموف

ــ نفّذ الخطوتين أولاً ، وبعدها . . .

« ماهذا ! ــ تفكر أبلوموف بأسى ، ــ فليس هذا هو الهمس الذي لاينقطع ، ولا الميل الخفي لتوحيد حياتين في حياة واحدة ! فكل شيء يبدو مختلفاً عما تخيلته ! كم هي غريبة أولغا هذه ! فهي لاتستقر في مكان واحد ، ولا تستمتع بحلاوة اللحظة الشاعرية ، فكأنه لاتوجد

لديها أحلام إطلاقاً ، أو حاجة للغوص في التأملات ! إنها كأنلريي تماماً !
فهي لاتفتأ تكرر بأن أذهب حالاً ، للتصديق على الوثيقة ، وللبحث عن
شقة . كأن اتفاقاً قد أبْرِم فيما بينهما لإنجاز المشاغل الحياتية بأسرع
مايمكن ! »

في اليوم التالي ، أخذ أبلوموف بعض الأوراق الرسمية وتوجّه الى
المدينة ، على غير رغبة ، وهو يتثاءب وينظر الى ماحوله بشرود . لم يكن
يعرف جيداً ، مكان الدائرة الحكومية التي يقصدها ، لذا فقد عرّج على
إيفان غيراسيميتش ليسأله عن الدائرة ، التي ستصادق على وثيقته .

سُرَّ إيفان غيراسيميتش كثيراً لزيارة أبلوموف ، ولم يتركه دونما
إفطار . بعد ذلك ، قرر أن يُحْضِر أحد أصدقائه كي يستفسر منه ،
عن كيفية انجاز هذه الوثيقة الرسمية ، لأنه كان قد انقطع أيضاً عن مثل
هذه الأمور ، منذ زمن بعيد .

انتهى الإفطار والاجتماع في الساعة الثالثة ، حيث أصبح الوقت
متأخراً للذهاب الى الدائرة الرسمية ، وصادف أن كان الغد هو يوم
السبت ، يوم عطلة رسمية ، فتأجّل الأمر الى يوم الإثنين .

توجه أبلوموف الى ناحية فيبورغ قاصداً شقته الجديدة . سارت
العربة ، التي استقلّها طويلاً عبر الأزقة وبين الأسيجة الطويلة . أخذ
يبحث أخيراً عن الحارس ، عَرف أبلوموف منه ، بأن الشقة تقع في
الحي المجاور ، في أحد الشوارع الخالية من الأبنية ، حيث لايوجد الا
الأسيجة والأعشاب وآثار طريق جاف يخترق الأوحال والأوساخ .

تابع أبلوموف طريقه من جديد ، وهو يمعن النظر بالقرّاص النابت على الأسيجة ، وبالغبيراء ، التي تُشاهَد وراءها . في نهاية المطاف ، أشار له الحارس الى بيت قديم قائلاً : « هذا هو البيت الذي تبحث عنه ».

قرأ أبلوموف على البوابة : « منزل الأرملة بشينيتسينا » ، ثم أمر الحوذي بالدخول الى فناء الدار .

– كان فناء المنزل يحتل حيزاً بمساحة غرفة واحدة فقط ، الأمر الذي سبّب اصطدام عريش العربة بإحدى الزوايا ، مما أجفل عدداً كبيراً من الدجاج المزدحم ، فانطلق مندفعاً بسرعة ، وهو يقاقي ، في اتجاهات مختلفة ، حتى أن البعض قد استخدم موهبة الطيران ؛ وأخذ كلب أسود كبير مربوط بالسلاسل ينبح نباحاً رهيباً ، وهو يندفع بقوة تارة الى اليمين ، واخرى الى اليسار ، محاولاً أن يطال أبواز الاحصنة .

كان أبلوموف الجالس في العربة قد أصبح على نفس المستوى مع نوافذ البيت ، مما صعّب عليه عملية النزول . وعبر النوافذ ، التي تكسوها أشجار القطيفة ، كانت تُرى رؤوس تتحرك جيئة وذهاباً . خرج أبلوموف بطريقة ما من العربة ، فازداد نباح الكلب شدةً واصراراً .

دخل عتبة المنزل فصادف عجوزاً متغضنة ، ترتدي ثوباً بدون أكمام ، وضعت طرفه تحت الحزام .

– من تريد ؟ – سألت العجوز .

– ربة المنزل ، السيدة بشينيتسينا .

أخفضت العجوز رأسها بارتباك .

— أليس إيفان ماتفيتيش هو من تريد أن تراه ؟ — سألت العجوز — إنه ليس موجوداً في البيت ، لم يأت من الوظيفة بعد .

— أريد أن أرى صاحبة البيت ، — قال أبلوموف .

في هذه الأثناء ، استمرت الجلبة في البيت . كان رأس يُطلّ من إحدى النوافذ تارة ، ومن نافذة مجاورة تارة أخرى ، ومن خلف العجوز انفتح الباب قليلاً ثم انغلق ، حيث أطلّت منه وجوه مختلفة .

استدار أبلوموف . فشاهد في فناء المنزل طفلاً وطفلة ، ينظران إليه بفضول .

ومن مكان ما ، ظهر فلاح يبدو عليه النعاس ، يرتدي معطفاً من فرو الضأن ، كان يضع يده فوق عينيه كي يحجب نور الشمس ، وهو ينظر بتكاسل الى أبلوموف والعربة .

كان الكلب لايزال ينبح بشدة وتقطّع ، وكان نباحه يزداد ضراوة وإصراراً ، كلما تحرك أبلوموف ، أو ضرب الحصان بحافره الأرض . من الجهة اليمنى ، عبر السياج ، شاهد أبلوموف حقلاً من الملفوف ، ومن الجهة اليسرى بعض الاشجار وتعريشة خضراء رائعة .

— تريد أغافيا ماتفييفنا ؟ — سألت العجوز . — لماذا ؟

— أخبري صاحبة البيت ، بأنني أريد مقابلتها — بدأ أبلوموف كلامه — فلقد استأجرت شقة هنا . . .

ـ أنت المستأجر الجديد ، صديق ميخا أندرييتش ؟ انتظر ، سأخبرها .

فتحت الباب ، فانطلقت رؤوس عدة تركض مسرعة الى الغرف. استطاع أبلوموف أن يرى امرأة بيضاء اللون ، ممتلئة ، عارية المرفقين والعنق ، بدون قلنسوة نسائية . أخذت المرأة تضحك بمكر ، لأن شخصاً غريباً قد رآها ، وابتعدت هي الأخرى بدورها عن الباب متوارية .

ـ تَفَضَّل الى الحجرة ، ـ قالت العجوز بعد أن عادت ، ثم قادته أبلوموف عبر غرفة انتظار صغيرة الى حجرة كبيرة نسبياً ، ورجته أن ينتظر . ـ ستأتي صاحبة البيت بعد قليل ،ـ أضافت العجوز.

(مازال الكلب ينبح)، ـ فكّر أبلوموف وهو يتفحص الحجرة .

تسمّرت عيناه فجأة على حاجيات معروفة لديه جيداً : كانت الحجرة مكتظة بممتلكاته . الطاولات مكسوة بالغبار ، الكراسي أكوام على السرير ، الآنية مرمية بغير انتظام ، الخزانات متسخة .

ـ ماهذا ، حاجياتي غير مرتبة ولا منظفة ؟ ـ قال أبلوموف . ـ يالها من بشاعة !

صرّ الباب من خلفه فجأة ، ودخلت الحجرة نفس تلك المرأة ذات المرفقين العاريين والعنق المكشوف ، التي كان قد شاهدها .

كانت في الثلاثين من العمر ، بشرتها شديدة البياض ، وجهها ممتلىء كثيراً ، للدرجة أن الحمرة لاتستطيع ، على مايبدو ، أن تشق طريقها الى وجنتيها . لم يكن لديها حاجبان إطلاقاً ، فقد ظهر مكانهما خطّان

لامعان متورّمان قليلاً ، مع بعض الشعيرات الشقراء عليهما . العينان رماديتان وديعتان ، كوداعة تعبير وجهها كله ، اليدان بيضاوان ، لكنهما قويتان ، تظهر عليهما بعض عروق زرق منتفخة قليلاً .

كان فستانها ملتصقاً بجسدها : فقد بدا واضحاً بأنها لاتستخدم أية وسائل اصطناعية تجميلية ، تضيّق خصرها وتكبرّ وركيها . لذا ، فان نصفها العلوي ، عندما تكون بدون شال ، يمكن أن يصلح بالنسبة للرسام والنحات ، نموذجاً رائعاً لصدر قوي ممتلىء ، دون أن ينال ذلك من حشمتها . كان فستانها يبدو ، بالمقارنة مع شالها الأنيق وقلنسوتها الفاخرة ، قديماً مبتذلاً .

لم تكن تستقبل الضيوف مطلقاً ، لذا فانها لم تغيّر فستانها الذي ترتديه عادةً في البيت ، عندما أبدى أبلوموف رغبته بمقابلتها ، بل اكتفت بأن وضعت فوقه شالها الأنيق ، واعتمرت قلنسوتها . دخلت الحجرة بحياء ثم توقفت ، وهي تنظر الى أبلوموف بارتباك .

نهض أبلوموف قليلاً ثم انحنى مسلّماً .

أملك الشرف والسعادة برؤية السيدة بشينيتسينا ، أليس كذلك ؟ — سأل أبلوموف .

— أجل ياسيدي ، — أجابت صاحبة البيت . — ربما كنت تريد أن تتحدث الى أخي ؟ — سألت بتردد . — انه لايزال في عمله الوظيفي ولن يأتي قبل الخامسة .

— كلا ، فأنا أريد مقابلتك ، — بدأ أبلوموف حديثه ، بعد أن

جلست على الأريكة بعيدة عنه قدر المستطاع ، وراحت تنظر الى طرف شالها ، الذي كان يغطيها حتى الارض ، كما أخفت يديها أيضاًتحته .

ـــ كنت قد استأجرت عندك ، لكن الظروف أجبرتني لأن أبحث عن شقة غيرها في الجزء الآخر من المدينة ، لذا فقد أتيت لأتحدث اليك .

كانت تصغي اليه وتفكّر ببلاهة .

ـــ أخي ليس موجوداً الآن ، ـــ قالت بعد برهة من التفكير .

ـــ أليس البيت ملكاً لك ؟ ـــ سأل أبلوموف .

ـــ أجل ، ـــ أجابت باقتضاب .

ـــ إذن ، فانت التي تقررين على ماأعتقد . . .

ـــ لكن أخي ليس موجوداً ، فهو الذي يدير كل شيء هنا ، ـــ قالت برتابة ، وهي تنظر الى ابلوموف للمرة الأولى مباشرة ، ثم أخفضت عينيها لتنظر من جديد الى الشال .

« وجهها بسيط ، لكنه مريح ، ـــ أسرّ أبلوموف لنفسه ، ـــ لابد انها امرأة طيبة ! ») في هذه الأثناء ، أطلّ رأس الطفلة من الباب . أومأت لها أغافيا ماتفييفنا ، خلسة ، برأسها كي تنصرف ، فتوارت الطفلة .

ـــ أين يعمل أخوك ؟

ـــ في أحد الدواوين

ـــ في أي ديوان ؟

— في الديوان ، الذي يُسَجل فيه الفلاحون . . . لاأعرف ماذا يسمى . .

ضحكت بسذاجة ثم استعاد وجهها فوراً تعبيره الإعتيادي السابق .

— هل تعيشين لوحدك مع أخيك ؟ — سأل أبلوموف .

— كلا ، يعيش معي أيضاً طفلان من المرحوم زوجي : صبي في الثامنة وطفلة في السادسة ، — بدأت صاحبة البيت ، وقد ظهرت عليها الرغبة في الكلام ، وأصبح وجهها أكثر حيوية ، — وجدتي العجوز المريضة ، التي لاتستطيع أن تمشي الآن الا بصعوبة ، والى الكنيسة فقط . كانت تذهب سابقاً الى السوق ، لكنها توقفت الآن عن ذلك : فساقاها لاتطاوعانها . . . تأتي أحياناً أخت المرحوم زوجي لزيارتنا ، وكذلك يفعل ميخا أندرييتش .

— هل يزروكم ميخا أندرييتش كثيراً ؟

— أحياناً ، مرة واحدة شهرياً ، إنه صديق أخي . . .

ثم صمتت ، بعد أن استنفذت احتياطها كله من الافكار والكلمات

— ماأكثر الهدوء هنا — قال أبلوموف . — فلولا نباح الكلب ، لاعتقد المرء بأنه لاوجود لأي كائن حي .

أجابته بضحكة .

— هل تخرجين من المنزل غالباً ؟

— في الصيف أحياناً . منذ مدة غير بعيدة ، ذهبنا في الجمعة المقدسة الى مصانع البارود .

ــ هل يتواجد أناس كثيرون هناك ؟ ــ سأل أبلوموف وهو ينظر عبر شالها المنفتح ، الى صدرها البارز العامر ، كوسادة الأريكة .

ــ كلا ، كان الناس قليلين هذا العام ، فقد هطل المطر منذ الصباح ، ثم صحا الطقس بعد ذلك قليلاً . فلولا ذلك لكانت جموع الناس كثيرة .

ــ أين تتواجدين أيضاً ؟

ــ نادراً ما نغادر البيت . لكن أخي يذهب أحياناً بصحبة ميخا أندرييتش لصيد السمك . أما نحن فنبقى في البيت .

ــ هل يُعْقَل أن تبقوا في البيت ؟

ــ قسماً ، تلك هي الحقيقة . في السنة الماضية ذهبنا الى كولبينا . وأحياناً نذهب إلى الغابة هنا .

وفي الرابع والعشرين من حزيران الفائت ، أقام أخي غداء بمناسبة عيد أحد القديسين ، دعا اليه زملاءه في العمل .

ــ هل تقومين بزيارات ؟

ــ أخي يقوم بذلك ، أما أنا فأخرج مع ابني وابنتي في عيد الميلاد لزيارة أقارب زوجي فقط ، فنتغدّى هناك .

لم يبق هنالك موضوع يمكن أن يدور حوله حديث .

ــ يوجد عندكم أزهار : هل تحبينها ؟ ــ سأل أبلوموف .

ضحكت .

ـ كلا ، قالت أغافيا ماتفيينفنا ، ـ ليس لدينا وقت للإهتمام بالأزهار . كل مافي الأمر ، هو أن ابني وابنتي قد ذهبا بصحبة أكولينا الى حديقة الكونت ، فأعطاهم البستاني هذه الأزهار ، أما الصّبار وابرة الراعي فموجودان منذ أيام زوجي .

في هذه الأثناء دخلت أكولينا الغرفة مسرعة ، وفي يديها ديك كبير يخفق جناحيه بشدّة .

ـ أغافيا ماتفيينفنا ، هل هذا هو الدّيك ، الذي سنعطيه للبائع ؟ ـ سألت أكولينا .

ـ ماذا جرى لك ، ماذا جرى ! انصرفي ! ـ قالت صاحبة البيت بحياء . ـ ألا ترين الضيوف !

ـ أتيت لأسألك فقط ، ـ قالت أكولينا وهي تمسك الديك من ساقيه . ورأسه الى الأسفل ـ . إنه يدفع سبعين كوبيكاً فقط .

ـ اذهبي ، اذهبي الى المطبخ ! ـ قالت أغافيا ماتفيينفنا . ـ ليس هذا ، بل الديك الرمادي المرقّط ، ـ أضافت بسرعة ، وقد خجلت من نفسها . ثم أخفت يديها تحت الشال وصارت تنظر الى الأسفل .

ـ انه الاقتصاد المنزلي ! ـ قال أبلوموف .

ـ أجل ، يوجد لدينا دجاج كثير ، فنحن نبيع البيض والفرّوج . فكل البيوت الكائنة هنا ، على هذا الشارع ، بما فيها منزل الكونت

تشتري من عندنا ، ــ أجابت صاحبة البيت وهي تنظر بجرأة أكثر الى أبلوموف .

علا وجهها تعبير من الذكاء وشدة الاهتمام ، حتى أن البلاهة قد اختفت منه تماماً ، عندما أخذت تتحدث عن موضوع تلمّ به جيداً . كانت تجيب على كل سؤال لايتعلق باهتماماتها ومجال عملها بضحكة وبصمت .

ــ كان ينبغي ترتيب هذا ، ــ لاحظ أبلوموف ، وهو يشير الى الأثاث المنزلي المكوّم ، الذي يخصه . . .

ــ كنا نريد أن نفعل ذلك ، لكن أخي لم يوافق . ــ قاطعت بحيوية وهي تنظر بجرأة تامة الى أبلوموف ، ــ فقد قال : « الله وحده يعلم ، ماذا يوجد في هذه الطاولات والخزانات ، فاذا ماضاع شيء ، فنحن سنتحمّل المسؤولية بعد ذلك . . . » . ثم توقفت عن الكلام وضحكت .

ــ كم هو حذر أخوك ! ــ أضاف أبلوموف .

ضحكت قليلاً ثم اكتسب وجهها من جديد ، تعبيره الإعتيادي .

كانت الضحكة تجسد الردّ المقبول عندها ، عندما لاتستطيع الإجابة على هذه المسألة أو تلك من المسائل التي تجهلها .

ــ لا أستطيع أن أنتظر طويلاً ، ربما تستطيعين أنْ تبلغي أخاك ، بأنْ ظروفاً قد استجدّت عندي ، لم أعد بسببها بحاجة الى الشقة . لذا

أرجو اعطاءها لمستأجر آخر ، وأنا من جهتي ، سأبحث أيضاً عن راغب بها .

كانت تصغي اليه ببلاهة وهي ترفّ عينيها بانتظام .

— فيما يتعلق بالعقد أرجو أن تتفضلي وتقولي . . .

— لكن أخي ليس موجوداً في البيت — رددت بالحاح ، من الأفضل أن تتكرّم وتأتي غداً : فيوم الغد السبت ، وأخي سيكون في البيت لأنه يوم عطلة . . .

— انني مشغول جداً ، لاتوجد لدي دقيقة فراغ واحدة ، — أجاب أبلوموف — . أرجو أن تتفضلي وتبلغي أخاك فقط ، بأن قيمة الإيجار تبقى لكم ، أما أنا فسأعثر على مستأجر . . .

— لكن أخي ليس موجوداً ، — قالت برتابة ، — ثم نظرت الى الشارع — انني ألمحه من بعيد عندما يأتي ، لكنه ، للأسف ، لم يأت بعد .

— حسناً ، سأنصرف . . .

— متى ستنتقل الى الشقة ؟ — سألت وهي تنهض من على الأريكة . فلا بدّ أنْ يسألني أخي عن ذلك . ماذا سأقول له ؟ . . .

— أبلغيه ماسبق أن قلته ، — قال أبلوموف ، — . أخبريه بأنّ ظروفاً قد استجدّت . . .

— ليتك تتفضل وتُشرّفنا بالمجيء غداً ، كي تتحدث إليه . . . — كررت أغافيا ماتفييفنا .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

ـ لاأستطيع المجيء غداً .

ـ فليكن بعد غد ، يوم الأحد : فميخا أندرييتش سيأتي لعندنا .

ـ هل سيأتي ميخا أندرييتش حقاً ؟ ـ سأل أبلوموف .

ـ اقسم بالله ، إن ما أقوله صحيح ، ـ أضافت صاحبة البيت .

ـ وبعد غد لاأستطيع المجيء ، ـ قال أبلوموف بفارغ الصبر .

ـ فليكن في الأسبوع المقبل . . . ـ لاحظت أغافيا ماتفييفنا . ـ متى ستنتقل الى الشقة اذن ؟ ـ سألت من جديد ، ـ أرجو أنْ تحدّد لي موعد انتقالك ، كي أغسل أرض الشقة وأزيل الغبار ، وأرتّب كل شيء .

ـ لن أنتقل .

ـ كيف ؟ وحاجياتك هذه ، أين سنضعها ؟

ـ أرجو أنْ تتفضّلي وتبلغي أخاك ، ـ بدأ أبلوموف كلامه متوقّفاً بين الكلمات ، وهو يركّز نظره مباشرة على صدرها ، ـ بأن ظروفاً قد استجدّت . . .

ـ لقد تأخر أخي اليوم ، ـ قالت برتابة وهي تنظر الى السياج ، الذي يفصل الشارع عن فناء المنزل . ـ إنني أعرف وقع خطواته ، كما انني أسمع وقع خطوات كل شخص يأتيه ، منذ أن تطأ قدماه الجسر الخشبي ، نادراً ما يأتي الناس الى هنا . . .

ـ هل ستبلغيه ما قلته لك ؟ ـ سأل أبلوموف وهو ينحني وينصرف .

ــ سيأتي أخي بعد نصف ساعة . . . قالت صاحبة البيت بقلق غير مألوف بالنسبة لها ، وهي تحاول أن تستوقف أبلوموف بصوتها .

ــ لاأستطيع أن أنتظر أكثر ، ــ قال أبلوموف بإصرار وهو يفتح الباب .

ماان اصبح أبلوموف على عتبة المنزل ، حتى بدأ الكلب نباحاً مسعوراً ، وهو يندفع تارة الى اليمين وأخرى الى اليسار كي يتحرر من سلاسله . أما الحوذي ، الذي كان نائماً وهو يسند رأسه على مرفقيه ، فقد بدأ يُرجع الاحصنة الى الوراء ، بينما عادت الجلبة من جديد لتعم الدجاج المزدحم ، الذي كان يندفع ويتطاير في اتجاهات مختلفة ، كما أطلت بعض الرؤوس من النوافذ .

ــ سأخبر أخي بأنك كنت هنا ، ــ أضافت صاحبة البيت بقلق ، عندما جلس أبلوموف في العربة .

ــ أبلغيه أيضاً ، بأنه نظراً للظروف المستجدة ، لاأستطيع أن أبقي الشقة على حسابي . وانني سأعطيها لمستأجر آخر ، أرجو أن يبحث أخوك عنه . . .

ــ يأتي المستأجرون دائماً في هذه الفترة . . . ــ قالت صاحبة البيت وهي تسمعه بشرود ــ سأخبر أخي بأنك كنت تريد المجيء .

ــ أجل ، سأمر قريباً ، ــ قال أبلوموف .

خرجت العربة من فناء المنزل والنباح المسعور يصم الآذان ، ثم راحت تترجرج على النتوءات الجافة البارزة على الزقاق الضيق .

في نهاية الزقاق ، ظهر رجل متوسط العمر ، يرتدي معطفاً بالياً ، ويحمل صرّة كبيرة تحت إبطه . كان يمسك بيده عصا غليظة ، وينتعل جزمة مطاطية رغم حرارة الجو وجفافه .

كان يسير مسرعاً وينظر الى كل الجهات ضارباً بشدة الأرض بقدميه ، كما لو انه يريد أن يثقب أرض الرصيف الخشبية . تابعه أبلوموف بنظراته ، ثم رآه وهو يدخل بوابة منزل بشينيتسينا .

« لابد أنه أخوها ! — قال أبلوموف . — فليذهب الى الشيطان ! لن أعود الآن لأتحدّث اليه ، فأنا أشعر بالجوع وبحرارة الجو ! كما ان أولغا تنتظرني . . .

سأرجىء التحدث اليه للمرة القادمة ! » .

أسرع ! — قال مخاطباً الحوذي

« ألاينبغي أن أبحث عن شقة أخرى ؟ — تذكر أبلوموف فجأة وهو ينظر الى الأسيجة على جانبي الطريق . — يجب أن أعود من جديد الى موروسكايا . . . سأرجىء الأمر الى المرة القادمة ؟ » .

— أسْرِعْ ! أسْرِعْ !

— ٣ —

هطلت الأمطار في أواخر شهر آب ، وأخذ الدخان ينطلق من المداخن ، أينما وجدت ، ثم أخذت المنازل الريفية الصيفية تفرغ من ساكنيها تدريجياً .

لم يزر أبلوموف المدينة . ذات صباح ، شاهد أثاث آل ايلينسكايا يُحمل ويُنقَل الى جهة ما . ومع أنَّ الإنتقال من الشقة ، والغداء خارج المنزل ، والامتناع عن الاستلقاء والنوم طيلة اليوم ، لم يعد يعتبر تضحية بالنسبة لأبلوموف ، الا أنه لم يكن يعرف كيف سيمضي الليل وحيداً .

فقد بدا له أمراً مستحيلاً ، البقاء وحيداً في المنزل الصيفي ، الذي يقطنه ، بعد أنْ خلت الحديقة والغابة من الرواد ، وأُغلِقَت نوافذ أولغا .

جاب حجرات منزلها الخاوية ، وتنزه في الحديقة ، وهبط الرابية ، لكن الحزن كان يثقل صدره .

أمر زاخار وأنيسيا بالذهاب الى ناحية فيبورغ ، حيث قرّر أنْ يستقر هناك ، ريثما يعثر على شقة جديدة ، اما هو فقد ذهب الى المدينة وتناول الغداء في إحدى الحانات ، وأمضى السهرة عند أولغا .

لم تكن الأمسيات الخريفية في المدينة تشبه الأمسيات الطويلة الرائعة في الحديقة والغابة ، فلم يعد يستطيع أنْ يراها هنا ثلاث مرات يومياً ، كما أنَّ كاتيا لن تقدر بعد الآن على المجيء اليه ، ولن يستطيع هو بدوره أيضاً أنْ يرسل زاخار ليوصل اليها رسالة على بعد خمسة فراسخ فقط . كأنَّ ملحمة الحب الصيفية الرائعة قد توقفت كلها ، فأخذ بريقها يبهت شيئاً فشيئاً ، بينما بدأ مضمونها يفقد جاذبيته .

أحياناً ، كانا يصمتان نصف ساعة . فتستغرق أولغا في عملها

وتطريزها وهي تحصي مربعات زخرفها ، بينما يستغرق أبلوموف في فوضى أفكاره المشوّشة ، ويستبق اللحظة الراهنة مسافات كبيرة الى الامام ، ليعيش في أوهامه وتخيلاته .

في بعض الأحيان فقط ، كان ينظر اليها بإمعان فيختلج شوقاً ووجداً ، أو تلقي أولغا عليه نظرة عجلى فتبتسم ، بعد أن تكون قد رأت شعاع الخضوع والسعادة الصامتة بادياً في عينيه .

ظل ثلاثة أيام متتالية يسافر الى المدينة ويتناول الغداء عند أولغا بحجة أنه لم يرتب أموره بعد هناك .

لكنه لم ير من اللائق أن يزورهم في اليوم الرابع ، فتسكع قليلاً بالقرب من منزل إيلينسكايا ، ثم أقفل عائداً الى البيت والحسرة في قلبه .

في اليوم الخامس لم يتناول آل إيلينسكايا الغداء في البيت .

في اليوم السادس قالت له أولغا بأن يوافيها الى أحد المخازن ، حيث يستطيع أن يرافقها من هناك سيراً على الاقدام حتى البيت ، أما العربة فستسير وراءهما .

كان ذلك كله محرجاً بالنسبة له ، لأنهما صادفا بعض المعارف أثناء الطريق ، حتى أن البعض منهم كان يتوقف ويتحدث إليهما .

— آه ، يالهي ، ياله من عذاب ! — قال أبلوموف ، والعرق يتصبب منه بسبب خوفه وارتباكه .

كانت عمتها تنظر اليه أيضاً بعينيها الواسعتين الفاترتين ، وهي تشم رائحة الكحول المنبعثة منه ، فتبدو وكأن دواراً قد أصابها من جرّاء هذه الرائحة .

وتأتي أيضاً المسافة البعيدة ، التي سيقطعها لتزيد في ارباكه ! فالعودة الى ناحية فيبورغ تتطلب منه ثلاث ساعات من الجهد .

— سأخبر عمتك ، — قال أبلوموف بالحاح ، — عندئذ أستطيع أنْ أبقى عندكم منذ الصباح ، دون أنْ يتناولنا الناس بألسنتهم . . .

— هل ذهبت الى الدائرة الحكومية ؟ — سألت أولغا .

كان أبلوموف يتمنى أنْ يقول لها : « لقد ذهبت وأنجزت كل شيء » ، لكنه كان يعلم بأن اولغا تنظر إليه بامعان ، وستقرأ الكذب على وجهه فوراً . تنهّد أبلوموف وأجاب :

— (متنهّداً) ليتك تعلمين ، كم يصعب تحقيق ذلك !

— هل تحدّثت الى أخ صاحبة الشقة ؟ هل بحثت عن شقة جديدة ؟ سألت أولغا بعد ذلك ، دون أنْ تنظر اليه .

— في الصباح لايتواجد في البيت مطلقاً ، وفي المساء أكون دائماً بصحبتك ، — قال ابلوموف وقد سُرّ لأنه وجد عذراً كافياً .

تنهدت أولغا لكنها لم تقل شيئاً .

— سأتحدث غداً من كل بد الى أخ صاحبة الشقة ، — قال أبلوموف مُطَمْئِناً ، — فغداً يصادف يوم الأحد ، وسأجده في البيت ، لأن اليوم هو يوم عطلة .

— مادمت لم تنجز ذلك كله ، — قالت أولغا متأملة ، — فمن المستحيل إبلاغ عمّي ، كما أنّ لقاءاتنا يجب أن تصبح نادرة . . .

– أجل ، أجل . . . هذا صحيح ، – أضاف أبلوموف وقد اعتراه الخوف .

– فلنتناول طعام الغداء عندنا مرة يوم الأحد ، ومرة أخرى يوم الأربعاء من كل أسبوع ، – قررت أولغا – . بعد ذلك يمكن أنْ نلتقي في المسرح : فسأخبرك عن موعد ذهابنا ، كي تذهب أنت أيضاً .

– أجل ، هذا صحيح ، – قال أبلوموف وقد سُرّ لأنها أخذت على عاتقها مسألة تنظيم اللقاءات .

– واذا ما أصبح الطقس جميلاً في أحد أيام الأسبوع ، فسأذهب الى الحديقة الصيفية لأتنزه .

بامكانك أنْ تذهب الى هناك أيضاً ؛ فستذكرنا بأيام الحديقة . . . الحديقة ! – كررت أولغا بمتعة .

قبّل يدها بصمت وودّعها على أمل اللقاء يوم الأحد ، شيّعته بنظراتها بأسى ، ثم جلست الى البيانو وراحت تعزف ألحاناً شجيّة . كان قلبها يبكي ، فبكت الألحان أيضاً . أرادت أنْ تغنّي ، لكنها لم تستطع !

استيقظ أبلوموف في اليوم التالي ، فارتدى سترته ، التي كان يرتديها في المنزل الصيفي .

لقد طلّق رداءه منذ زمن بعيد وأمر بإخفائه في الخزانة .

كان زاخار يحمل صينية عليها قهوة وحلويات ، وهي ترتجّ كالعادة بين يديه . وكعادتها ، فقد كانت أنيسيا تطلّ من خلفه برأسها من الباب وتراقب إنْ كان زاخار سيوصل الفناجين الى الطاولة بسلام . وبدون

كان يرى من الأسفل عندما تنحني ، جوربها وتنورتها النظيفين وساقيها الممتلئتين المسبوكتين .

« مُسْتَخْدَمَة . لكنّ مرفقيها كمرفقي كونتيسة ! ومما يزيدهما جمالاً وجود غمازتين عليهما » ـ فكّر أبلوموف .

في وسط النهار ، جاء زاخار ليسأل إنْ كان من المستحسن تذوق فطائرهم :

فقد أمرت صاحبة البيت انْ أعرض ذلك . فاليوم هو الأحد ، اليوم الذي يُعِدّون فيه الفطائر .

ـ أعتقد أنّ فطائرهم جيدة ! ـ قال أبلوموف بلا اكتراث . ـ فطائر بالبصل والجزر . . .

ـ ليست أسوأ من فطائرنا في أبلوموفكا مطلقاً ، ـ قال زاخار ـ ، حتى من الفطائر ، التي كنا نعدّها بالفطر والدجاج .

ـ لابد أنْ تكون شهية جداً : هات لنتذوقها ! من ذا الذي يُعدّها ؟ هل تلك المرأة القذرة ؟

ـ لايمكن ! ـ قال زاخار بازدراء . ـ فهي لاتعرف أن تحضّر شيئاً كهذا . فصاحبة البيت هي الكل بالكل . هي التي تحضّر الفطائر بمساعدة أنيسيا .

بعد خمس دقائق ، امتدت من الغرفة المجاورة يد عارية تقريباً ، يغطّي جزءاً ضئيلاً منها شالٌ رآه من قبل ، وهي تناول صحناً مليئاً بالفطائر الساخنة ، التي يتصاعد منها البخار .

ــ شكراً جزيلاً ، ــ قال أبلوموف بلطف وهو يتناول الفطائر ، ثم نظر الى الباب وركّز بصره على صدرها العامر وكتفيها العاريين . انغلق الباب بسرعة .

ــ ألاترغب بشيء من الفودكا ــ سأله صوت .

ــ لاأشرب ، أشكركِ جداً ، ــ قال أبلوموف بلطافة أكثر ، ــ مانوع الفودكا التي عندكم ؟

ــ منزلية ، من صنعنا : فنحن نفضل الفودكا المصنوعة من عنب الثعلب ، ــ قال الصوت .

ــ لم أذق في حياتي فودكا من عنب الثعلب ، اسمحي لي بشيء منها !

امتدت اليد العارية من جديد ، فناولته صحناً وكأساً من الفودكا ، جرع أبلوموف الكأس ، فأعجبه كثيراً .

ــ شكراً جزيلاً ، ــ قال أبلوموف وهو يحاول النظر الى الباب ، لكن الباب انغلق .

ــ (معاتباً) لماذا تختفين بسرعة هكذا ؟ فمن واجبي أنْ أقول لك : صباحاً سعيداً .

ضحكت صاحبة البيت وراء الباب .

ــ لاأزال في ثوب النوم ، فأنا في المطبخ منذ أن استيقظت . سأغيّر ملابسي الآن ، فأخي سيأتي قريباً ، ــ أجابت صاحبة البيت .

– (ملاحظاً) بالمناسبة ، أريد التحدث الى أخيك ، أرجو ابلاغه بالمجيء لعندي .

– حسناً ، سأبلغه ذلك حالما يأتي .

– من هذا الذي يسعل عندكم ؟ من صاحب هذا السعال الجاف ؟

– إنها جدتي ، فهي تسعل منذ ثماني سنوات .

انغلق الباب .

« كم هي . . . بسيطة ، – تفكّر أبلوموف ، – يوجد فيها شيء يلفت النظر . . . إنها نظيفة دائماً ! »

حتى هذا الوقت ، لم يكن أبلوموف قد تعرّف بعد على « أخيها » . كان يرى من الفراش فقط ، وهذا ما كان يحدث نادراً ، كيف كان يمرّ سريعاً في الصباح الباكر عبر السياج ، رجل يتأبط صرة ورقية كبيرةً ، فيختفي في الزقاق ، ثم يعود ليظهر بعدها من جديد في الخامسة مساء متأبطاً نفس الصرة وهو عائد ، فيختفي في العتبة . لم يكن صوته يُستَمع في البيت مطلقاً .

كان من الملاحظ أيضاً ، وخاصة في أوقات الصباح ، بأنّ أناساً يعيشون هناك : فقد كان يسمع صوت السكاكين في المطبخ ، كما كان يسمع عبر النافذة البواب يقطّع الحطب أو ينقل برميلاً من الماء على عربة ذات دولابين ، وعبر الجدار ، كان يسمع بكاء أطفال ، وسعال عجوز قوي حاد .

كان أبلوموف يشغل أربع غرف ، أي الصف الأمامي كله ، أما

صاحبة البيت فكانت تشغل مع أسرتها غرفتين خلفيتين ، بينما كان أخوها يشغل غرفة صغيرة في الأعلى .

كانت نوافذ حجرة أبلوموف وغرفة نومه تطل على فناء المنزل ، بينما كانت نوافذ الاستقبال تطل على الحديقة ، أما نوافذ الصالة فكانت تطل على حاكورة كبيرة مزروعة بالملفوف والبطاطا . وفي غرفة الاستقبال ، كانت النوافذ مغطاة بستائر من قماش الشيت الباهت . كانت كراس بسيطة مصنوعة من خشب الجوز ، مصفوفة على الجدران وتحت المرآة توجد طاولة ذات أربع زوايا ، وعلى النوافذ يوجد عدد كبير من الأصص التي تحتوي على نباتات مختلفة وقد عُلّق أيضاً أربعة أقفاص تحتوي على عصافير الكناري والسميلي .

دخل أخ صاحبة البيت على رؤوس أصابعه ، وردّ على تحية أبلوموف له بثلاث انحناءات . كانت أزرار بدلته الرسمية قد بُكّلت جميعها ، لدرجة أنه كان يصعب على المرء أنْ يتبيّن ، فيما إذا كان يرتدي تحتها ملابس داخلية . ربطة عنقه معقودة ببساطة ، أما نهايتها فكانت مخفيّة داخل بدلته .

كان في الأربعين من عمره ، على جبينه ذؤابة من الشعر المستقيم ، وعلى فوديه أيضاً ذؤابتان تشبهان أذني كلب من الحجم الوسط .

لم تكن عيناه الرماديتان تنظران الى الأشياء فجأة ، بل كانتا تنظران في البداية خلسة ، ثم تتوقّفان على الشيء في النظرة الثانية .

كان يبدو أنه يخجل من يديه ، لأنه كان حريصاً عندما يتكلم على

أنْ يخفي كلتا يديه وراء ظهره ، أو أنْ يخفي إحداهما في جيبه والأخرى وراء ظهره .

واذا ماقدّم مذكرة او وثيقة رسمية لرئيسه وأراد أنْ يستوضح بعض الأمور ، فانه كان يخفي احدى يديه وراء ظهره ، بينما كان يشير بحذر الى السطر والكلمة المقصودة بالإصبع الوسطى من يده الاخرى ، والظفر الى الاسفل ، ثم مايلبث أنْ يسحبها فوراً ويخفيها ، ربما لأنْ أصابعه غليظة حمراء ترتجف قليلاً ، مما بدا له من غير اللائق أنْ يظهرها غالباً .

ــ لقد أمرتم ، بان أحضر لعندكم ، ــ بدأ الرجل وهو يرمق أبلوموف بنظرة مزدوجة .

ــ أجل، فأنا أريد أن أتحدث اليك بشأن الشقة . أرجو أن تجلس، أجاب أبلوموف باحترام .

بعد دعوتين متتاليتين ، قرر إيفان ماتفييتش أن يجلس ، ثم انحنى قليلاً إلى الأمام مخفياً يديه تحت إبطيه .

ــ نظراً لبعض الظروف المستجدة ، فانه ينبغي عليّ أنْ أبحث عن شقة أخرى قال أبلوموف ، ــ لذا فقد وجدت من الضروري أنْ أبلغك ذلك .

ــ من الصعب أن أجد الآن مستأجراً آخر ، ــ قال إيفان ماتفييتش متنحنحاً ، وقد أخرج يديه ليحجب فمه ، لكنه مالبث أن أخفاهما فوراً في أكمامه ، ــ كان من السهل أن أعثر على مستأجرين كثر ، لو أنكم أخبرتموني في نهاية الصيف .

ـ (مقاطعاً) لقد أتيت ، لكنني لم أجدك .

ـ أبلغتني أختي بذلك ، ـ أضاف الموظف ـ . لاتقلق من ناحية الشقة : فستجد الهدوء والراحة هنا . ربما تكون الطيور قد أزعجتك ؟

ـ أي طيور ؟

ـ الدجاج .

ومع أنّ أبلوموف كان يسمع دائماً منذ الصباح الباكر ، قأقأة الدجاجات المفرّخة وصأصأة الصيصان ، لكنّ ذلك لم يكن يلفت انتباهه. فقد كان طيف أولغا ماثلاً أمامه باستمرار ، لذا فانه لم يكن يلحظ مايحيط به .

ـ كلا ، فهذا لايزعجني . اعتقدت بأنك كنت تتحدث عن عصافير الكناري ، التي تزقزق منذ الصباح .

ـ سننقلهم من هنا ، ـ أجاب إيفان ماتفييتش .

ـ إنها لاتزعجني أيضاً ، لكنني لاأستطيع البقاء هنا نظراً لبعض الظروف المستجدة .

ـ كما ترغبون ، ـ أجاب إيفان ماتفييتش ، لكن ماذا سيكون الحلّ اذا لم نعثر على مستأجر؟ . . . فستتكبدون عندئذ خسارة كبيرة .

ـ كم ستكون الخسارة ؟ ـ سأل أبلوموف .

ـ سأجلب الحساب .

جلَب العقد والحسابات .

— ثمانمائة روبلاً أجرة الشقة ، دفعت منها مقدماً مائة روبل ، يبقى عليك أنْ تدفع سبعمائة روبلاً ، — قال إيفان ماتفييتش .

— هل تريد أنْ تأخذ مني أجراً عن السنة كلها ، وأنا لم أمض عندكم أسبوعين ؟ — قال أبلوموف مقاطعاً .

— كيف إذن ؟ — اعترض إيفان ماتفييتش — . فليس من العدل والإنصاف أنْ تتحمل أختي الخسارة فهي أرملة فقيرة ، تعيش على الدخل الذي تتلقاه من إيجار البيت ؛ فدخلها من البيض والدجاج لايسدّ إلا أجراً يسيراً من حاجات أسرتها »

— عفواً ، فأنا لاأستطيع ، — بدأ أبلوموف كلامه . — احكم بنفسك ، فأنا لم امض اسبوعين هنا . هل يعقل أنْ تحاسبني عن سنة ؟

— العقد يوضح كل شيء ، — قال إيفان ماتفييتش مشيراً باصبعه الوسطى الى سطرين ، ثم أخفى إصبعه بسرعة في كمّه ، — تَفَضّلْ بقراءة نصّ العقد :

(يقرأ أبلوموف) :« أنا الموقع أدناه أبلوموف ، أقر وأعترف بأنني مطالب في حالة إخلاء الشقة قبل انتهاء مدة الإيجار المقررة ، بأن أسلّمها لشخص آخر بالشروط نفسها ، وإلا فانني أتعهد بتسديد الإيجار عن سنة كاملة الى السيدة بشينتيسينا ، اعتباراً من أول حزيران » .

— كيف يجوز ذلك ؟ . هذا ليس عدلاً .

— هكذا القانون ، — لاحظ إيفان ماتفييتش . — لقد وقّعتم على

ذلك بنفسكم : هذا هو توقيعكم اظهرت إصبعه من جديد وهو يشير الى التوقيع ، ثم اختفت فوراً .

— كم يجب أن أدفع ؟

— سبعمائة روبل ، — بدأ إيفان ماتفييتش يحسب باصبعه الوسطى نفسها ، ثم مايلبث أنْ يخفيها في قبضة يده ، — ومائة وخمسين روبلاً اجرة الإسطبل والعنبر .

— (معترضاً بشدة) لكن لاتوجد لدي أحصنة : فلماذا تريدني أنْ أدفع أجرة الاسطبل والعنبر ؟

— هذا موجود في العقد ، — قال إيفان ماتفييتش وهو يشير باصبعه الى احد السطور . — لقد قال لنا ميخا أندرييتش بأنك مترّبي خيولاً .

— ميخا أندرييتش كاذب ! — قال أبلوموف بأسى . — أعطني العقد .

— يمكنك أن تحصل على صورة عنه ، أما العقد فيخصّ أختي ، — أجاب إيفان ماتفييتش بدماثة وهو يمسك العقد بيده — زيادة على ذلك ، فأنت مدين لنا أيضاً بمئتين وخمسين روبلاً مقابل ماتستفيده من الحاكورة والمواد الغذائية والخضراوات كالملفوف واللفت وغيره . . . ، — قرأ إيفان ماتفييتش .

— أي حاكورة ؟ أي ملفوف ؟ ماهذا الذي تقول ؟ كيف يمكن ذلك أنْ يكون ! —

اعترض أبلوموف بأسلوب يكاد ينمّ عن تهديد .

ــ هذا موجود في العقد : فميخا أندرييتش أخبرنا ، بأنك تريد أنْ يتضمن العقد هذه الأمور . . .

ــ مالكم تتصرفون وتقررون بدوني ، فأنا لاأريد ملفوفاً ولالفتاً . قال أبلوموف وهو ينهض . . .

نهض إيفان ماتفييتش عن الكرسي أيضاً .

ــ عفواً ، كيف يمكن أن نتصرف بدونكم : ها هو ذا توقيعكم ! اعترض إيفان ماتفييتش.أخذت اصبعه الغليظة ترتجف من جديد ، وهو يضعها على التوقيع فاهتزت الورقة كلها .

ــ كم بلغ مجموع الحساب ؟ ــ سأل أبلوموف بفارغ الصبر .

ــ يوجد أيضاً مائة واربعة وخمسون روبلاً وثمانية وعشرون كوبيكا أجرة طلاء السقف والأبواب وتصليح نوافذ المطبخ .

ــ هل هذا على حسابي ؟ ــ سأل أبلوموف بدهشة . ــ هذا على حساب صاحب المُلْك دائماً . هل يقبل أحد أنْ يستأجر شقة غير صالحة للسكن ؟ . . .

ــ العقد يقول بأنّ هذا يتم على حسابك ، ــ قال إيفان ماتفييتش مشيراً باصبعه من بعيد الى السطر الذي يتضمن هذا النص ــ . أصبح المبلغ الإجمالي الآن ، ألفاً وثلاثمائة واربعة وخمسين روبلاً وثمانية وعشرين كوبيكاً ! ــ ختم إيفان ماتفييتش كلامه بوداعة ، مخفياً كلتا يديه والعقد أيضاً وراء ظهره .

ـ أين أحصل على مبلغ كهذا ؟ لاتوجد لديّ نقود ! ـ اعترض أبلوموف وهو يتمشى في الغرفة . ـ لاينقصني إلا ملفوفكم ولفتكم !

ـ كما تريدون ! ـ أضاف إيفان ماتفييتش بصوت خافت ـ لكنكم ستجدون الراحة هنا ، ـ قال إيفان ماتفييتش . ـ أما النقود . . . فأختي ستنتظر ريثما يتوفر لديك المبلغ .

ـ لاأستطيع البقاء هنا ، لاأستطيع ، ظروفي لاتسمح ! أسمعت ؟

ـ سمعت . كما تريدون ، ـ أجاب إيفان ماتفييتش بطاعة ، وقد تراجع خطوة الى الوراء .

ـ حسناً ، سأفكر بالأمر ، وسأحاول تسليم الشقة لمستأجر آخر ! ـ قال أبلوموف وهو يومىء الى الموظف برأسه .

ـ سيكون ذلك صعباً ، لكن كما تريدون ! ـ ختم إيفان ماتفييتش كلامه ، ثم خرج بعد أن انحنى ثلاث مرات .

أخرج أبلوموف محفظة نقوده ، وأحصى مالديه : فوجد أنّ كل مافي حوزته هو ثلاثمائة وخمسة روبلات . صُعِق تماماً .

« أين بدّدت نقودي ؟ ـ سأل أبلوموف نفسه بدهشة وقد تملكه الرعب تقريباً . ففي بداية الصيف تلقيت من القرية ألفاً ومئتي روبل ، لم يبق منها الآن الا ثلاثمائة ! » .

بدأ يحسب ويتذكر نفقاته ومصاريفه كلها ، لكنه لم يستطع أنْ يتذكر إلامئتين وخمسين روبلاً فقط .

ــ أين ذهبت هذه النقود ؟ ــ قال أبلوموف

ــ زاخار ، زاخار !

ــ ماذا تريد ياسيدي ؟

ــ كيف بدّدنا نقودنا كلها ؟ لم يبق لدينا نقود !

بدأ زاخار يبحث في جيوبه فأخرج نصف روبل وقطعة معدنية من فئة العشرة كوبيكات ، ووضعهما على الطاولة .

ــ نسيت أن أعطيهما لك ياسيدي فقد بقيتا معي من اجرة نقل الأغراض ــ قال زاخار .

ــ ليس هذا ماأبحث عنه ، قل لي أين ذهبت الثمانمائة روبلاً ؟

ــ من أين لي أن أعرف ؟ هل أعرف كيف تنفق النقود ياسيدي ؟ هل أعرف المبالغ التي تدفعها لسائقي العربات ؟

ــ أجل ، لقد أنفقت كثيراً أجور تنقل لسائقي العربات ، ــ تذكر أبلوموف وهو ينظر الى زاخار : ــ ربما كنت ماتزال تتذكر يا زاخار ، المبلغ الذي دفعناه لسائق العربة عندما انتقلنا من المنزل الصيفي .

ــ كيف لي أنْ أتذكر ؟ ــ أجاب زاخار ــ أذكر أنك امرتني ذات مرّة ، بأن أعطيه ثلاثين روبلاً .

ــ لماذا لاتعرف القراءة والكتابة يازاخار ؟ ــ قال أبلوموف معاتباً ــ ماأسوأ أن يكون المرء أميّاً !

ــ عشت هذه السنين كلها وانا أُمّي ، لكنني والحمد لله لم أعش أسوأ من الآخرين ! ــ اعترض زاخار وهو ينظر جانباً .

« كان شتولتس محقاً عندما قال بأنه يجب تأسيس مدرسة في القرية » تفكر أبلوموف .

ــ لكن الشخص الذي عمل عند آل ايلنيسكايا ، كان متعلماً ، ــ تابع زاخار ، ــ ومع ذلك ، فانه كان يسرق الآنية الفضية من عندهم .

« أرجو المعذرة ! ــ تفكر أبلوموف بخوف . ــ فهؤلاء الذين يعرفون القراءة والكتابة هم في الحقيقة بلا أخلاق . . . كلا ، مازال الوقت مبكّراً لتأسيس المدارس ! . . »

ــ على أي شيء أنفقنا النقود أيضاً ؟

ــ من أين لي أن أعرف ؟ لكنني أذكر بأنك أعطيت ميخا أندرييتش بعض النقود عندما كنا في المنزل الصيفي . . .

ــ صحيح ، ــ سُرّ أبلوموف لانه تذكر ذلك . ــ إذن ، ثلاثين روبلاً لسائق العربة وخمسة وعشرين روبلاً ، كما أذكر ، لتارانتييف . أين أنفقنا نقودنا أيضاً ؟

نظر أبلوموف الى زاخار بتأمل وتساؤل بينما كان زاخار يرمقه خلسة بنظراته ، وهو متجهم .

ــ هل تذكر أنيسيا شيئاً ؟ ــ سأل أبلوموف .

ــ متى كانت الحمقاء تتذكر شيئاً ؟ وهل تعرف المرأة شيئاً ؟ ــ قال زاخار بازدراء .

ــ انني لا أذكر شيئاً ! ــ قال أبلوموف بأسى ، ــ ألا يمكن أنْ يكون اللصوص قد سرقونا ؟

ـ لا ، لا يمكن ، لأنهم كانوا سيأخذون كل النقود ، ـ قال زاخار وهو ينصرف . غاص أبلوموف في كرسيه واستغرق في التفكير. « من أين أحصل على النقود ؟ ـ راح أبلوموف يفكر والعرق البارد يتصبب منه ـ متى سيتلقى نقوداً من القرية ، وكم سيكون مقدارها ؟ »

نظر الى الساعة فاذا بها الثانية ، موعد ذهابه الى أولغا . إنه اليوم المحدد لتناول الغداء عندها . أخذت أسارير أبلوموف تنفرج شيئاًفشيئاً، فأمر باحضار عربة وانطلق الى مورسكايا .

ـ ٤ ـ

قصّ لأولغا كل ما دار بينه وبين إيفان ماتفييتش ، وأضاف من عنده وهو يسرع في الكلام ، بأن الأمل كبير جداً في تسليم الشقة هذا الأسبوع .

ذهبت أولغا وعمتها للقيام بزيارة قبل أن يحين موعد الغداء ، أما أبلوموف فذهب يستطلع شقة في الجوار. عرّج في طريقه على منزلين . عثر في أحدهما على شقة مكونة من أربع غرف ، بايجار قدره أربعة آلاف روبل ، بينما عثر في المنزل الآخر على شقة من خمس غرف بايجار قدره خمسة آلاف روبل .

ـ يالفظاعة ! يالفظاعة ! ـ قال أبلوموف ، وقد وضع يديه على أذنيه ، وهو يولي هارباً وسط دهشة البوابين. لم يستطع أبلوموف من شدة الخوف أنْ يحصي المبلغ الإجمالي الناتج عن إضافة أكثر من ألف

روبل كان عليه أنْ يدفعها الى بشينيتسينا ، الى أي من هذين المبلغين ، فأسرع الخطى قاصداً أولغا .

كان هنالك حشد من الزوار . كانت أولغا بكامل حيويتها ، تتحدث ، تغني وتثير ضجة ، بيد أنّ أبلوموف هو الوحيد الذي كان يسمع وهو شارد الذهن ، مع أنّ أولغا كانت تغني خصيصاً له ، كي لايجلس كئيباً مرتبكاً ، ومن أجل أن تُدخل الفرح والسعادة الى قلبه .

ـ تعال غداً الى المسرح ، فلدينا مقصورة ، ـ قالت أولغا .

« في الليل وفي مثل هذه الأوحال والمسافة البعيدة ! » ـ تفكر أبلوموف ، لكنه ما إن نظر الى عينيها ، حتى ردّ على ابتسامتها بابتسامة تدلّ على الموافقة .

ـ احجز مقعداً ، ـ أضافت أولغا ، ـ فسيزورنا آل مايبفسكي ، لقد دعتهم عمتي الى مقصورتنا .

ثم نظرت الى عينيه كي تعرف مقدار فرحه .

« يالهي ! ـ فكر أبلوموف برعب . ـ كل ماأملكه الآن من النقود ثلاثمائة روبلاً » .

ـ اطلب من البارون مساعدتك في تأمين الحجز ، فهو يعرف الجميع هناك ، إنه يستطيع أنْ يحجز غداً .

ابتسمت من جديد ، كذلك فعل أبلوموف وهو ينظر اليها ، وبابتسامة أيضاً طلب أبلوموف من البارون تأمين مسألة الحجز ، فردّ عليه البارون ايضاً بابتسامة كعلامة على تلبية طلبه .

ـ الآن تحجز مقعداً، وبعد ذللك سنملك الحق، بعد أنْ تكون قد أنجزت الأمور المتفق عليها فيما بيننا ، بحجز مكان في مقصورتنا ، ـ أضافت أولغا .

ابتسمت ابتسامة أخيرة من نوع تلك الابتسامات التي ترتسم على محياها عندما تكون سعيدة .

أحسّ أبلوموف فجأة ، بنشوة عارمة من السعادة ، عندما كشفت أولغا النقاب قليلاً عن أفق المستقبل الفاتن المفروش بالأزهار والبسمات .

حتى أنّ أبلوموف نسي حاجته الى النقود ؛ وعندما لمح في صباح اليوم التالي فقط صرة أخ صاحبة الشقة ، وهو يمر أمام نافذته ، تذكر موضوع الوثيقة ، فرجا إيفان ماتفييتش أنْ يصدقّها له . بدأ إيفان بقراءة الوثيقة ، ثم أعلن عن وجود نقطة واحدة غير واضحة فيها ، فاستوضح عنها .

أُعيدت كتابة الوثيقة من جديد ، ثم تمّت المصادقة عليها أخيراً ، وارسلت الى البريد . وبسرور كبير زفّ أبلوموف الخبر لأولغا، وظل مرتاحاً هادئاً مدة طويلة .

كان سرور أبلوموف كبيراً ، لأنّ البحث عن شقة جديدة لن يكون ضرورياً قبل أن يستلم ردّاً من القرية .

« يمكن العيش هنا أيضاً ، ـ فكر أبلوموف ، ـ هنا بعيد عن كل المشاغل والهموم ، والنظام دقيق صارم في البيت ، والخدمة تسير بشكل رائع » .

في الواقع ، كانت الخدمة تسير بشكل رائع . ومع أن أبلوموف كان له طعامه المستقل الخاص به ، إلا أنّ عناية صاحبة الشقة واهتمامها كانا يطالان مطبخه أيضاً .

ذات مرة ، دخل إيليا إيليتش المطبخ فوجد أغافيا ماتفييفنا وانيسيا وهما في جلسة ودّية جداً .

اذا كانت العاطفة موجودة فعلاً في إطار العلاقات الانسانية،واذا كانت القلوب تتآلف حقاً ، فإن الود والتعاطف لن يتجلّيا يوماً في صورة أكثر بهاء ورونقاً ، مما تجلّى في علاقة أغافيا ماتفييفنا وأنيسيا . فقد فهمت وقدّرت كل منهما الأخرى ، منذ أول نظرة وكلمة وحركة .

فأغافيا ماتفييفنا أدركت جيداً ، وقدّرت عالياً مواهب أنيسيا في تدبير الأمور المنزلية ، منذ أن شمّرت الأخيرة عن ساعديها ، ومسكت الممسحة بيديها ، فرتبت المطبخ أحسن ترتيب وأزالت الغبار عن الطاولة والجدران بضربات سريعة من مكنستها ، ونظّفت المدفأة بخفّةلاتبارى، فغدا كل شيء نظيفاً مرتباً على أحسن وجه . منذ ذلك الوقت أصبحت أنيسيا تحتل منزلة رفيعة في قلب أغافيا ماتفييفنا .

وعندما شاهدت أنيسيا بدورها ذات مرة كيف تتصرف أغافيا ماتفييفنا في مطبخها بحيوية ونشاط وترى بعينيها الحادتين ، كعيني الصقر كل حركة خرقاء تصدر عن أكولينا ، فتصدر الأوامر وتقرر بنجاح

مايجب عمله من خلال نظرة عابرة تلقيها على هذا الشيء أو ذاك ، ومن خلال لمسة اصبع تعرف عمر الدجاجة ، وتحدد إن كان السمك طازجاً أم لا ، وتنجز بخفّة وهمة عملاً هنا ، وآخر هناك ، ـ نظرت اليها باعجاب ودهشة وتقدير ، وأدركت أنيسيا بأنّ مكانها ومجال عملها ، ليس في مطبخ أبلوموف ، حيث نشاطها وخفقان قلبها المضطرم وحركاتها السريعة المفاجئة كلها مركزة فقط ، لتتلقف في الجو صحناً أسقطه زاخار هنا ، وكأساً هناك، وحيث خبرتها ودقة تصوراتها مكبوحة من قبل زوجها بحسده وغطرسته الفظة . فهمت المرأتان بعضهما ، فأصبحت كل منهما تلازم الأخرى باستمرار .

عندما كان أبلوموف يتناول الغداء خارج المنزل ، كانت أنيسيا تتواجد في مطبخ صاحبة البيت ، فتنتقل من ركن الى آخر مدفوعة بحبها للعمل ، فتضع أصيصاً هنا ، وآخر هناك، وفي لحظة واحدة تقريباً تفتح الخزانة وتخرج منها مايلزمها في عملها ثم تغلقها ، قبل أن تدرك أكولينا حقيقة مايجري .

بالمقابل كانت مكافأة أنيسيا مجزية : غداء وستة فناجين من القهوة ونفس الكمية مساء ، وحديث مفتوح لاينتهي ، ووشوشة أحياناً مع صاحبة البيت نفسها .

وعندما كان أبلوموف يتغدى في البيت ، كانت صاحبة الشقة تساعد أنيسيا ، أي أنها كانت تدلها وتقدم لها النصيحة بكلمة منها ، أو باشارة من إصبعها ، فتحدد إن كان الشواء قد نضج أم لا ، أو إن كان

من الضروري إضافة قليل من النبيذ الأحمر أو القشدة الى الصلصة ، وان كان السمك يُحَضَّر بهذه الطريقة أم لا . . .

يالهي ، كم كانتا تتبادلان المعلومات في الشؤون المنزلية ، ليس في فن الطهي فحسب ، بل وفي الخياطة والغسيل وتنظيف الثياب والمطرزات وإزالة البقع عن الملبوسات والبياضات ، واستخدام مختلف الأعشاب والأدوية ، وفي كل مايتعلق بشؤون الحياة المنزلية ، وما أدخله العقل المبدع والخبرة التاريخية عبر القرون من مبتكرات في هذا المجال .

كان إيليا ايلييتش ينهض صباحاً في التاسعة ، فيلمح أحياناً من خلال السياج أخ صاحبة الشقة متأبطاً صرته ، وهو في طريقه الى العمل ، ثم يبدأ بعد ذلك بتناول القهوة . وكما عرفنا من قبل ، فالقهوة هنا تُحَضَّر بشكل رائع ، والقشطة لذيذة ، والخبز شهي ناضج .

بعد ذلك يدخّن سيجارة ويصغي بانتباه الى قرق الدجاجة المفرخة والى صأصأة فراخها ، والى تغريد وزقزقة الكناري . فلم يأمر بنقلهم : « لأنه كان يتذكر قريته أبلوموفكا من خلالهم » ، كما كان يقول .

ثم يجلس بعد ذلك ليكمل قراءة الكتب ، التي كان قد بدأها ، عندما كان يسكن في المنزل الصيفي ، ويستلقي أحياناً على الاريكة وهو يقرأ .

الهدوء مثالي والسكون كما يبتغي ، يعكره أحياناً وقع أقدام جندي ما

يمر في الشارع المجاور ، أو جلبة بعض الفلاحين ، الذين وضعت فؤوسهم تحت أحزمتهم . في بعض الأحيان ، لكن هذا قلما يحدث ، كان يصل الى هذه المجاهل بائع جوال ، فيقف عند السياج نصف ساعة من الزمن وهو ينادي :

« تفاح ، بطيخ استراخاني » — فيجبر المرء على الشراء .

أحياناً تأتي اليه الطفلة ماشا ، وقد أرسلتها أمها أغافيا ماتفييفنا لتخبره بأنّ انواعاً من الفطر تباع في الخارج ، فتستعلم منه إنْ كان يريد شراء شيء منها .

وفي أحيان أخرى ، يستدعي أبلوموف الطفل فانيا ، ابن صاحبة البيت لعنده ، ويسأله عما حفظ من دروسه ، ويجلسه ليكتب أو يقرأ شيئاً ما ، ثم يدقّق له ماكتبه وقرأه .

واذا لم يغلق الطفلان الباب وراءهما ، فانه كان يرى منه العنق العاري لصاحبة البيت وظهرها ومرفقيها المتحركين دائماً .

انها لاتفتأ عن العمل ، فاما أنها تكوي أو تغسل أو تحضّر الطعام ، واذا ما لاحظت انه ينظر اليها من خلال الباب نصف المفتوح ، فانها تتابع عملها دونما تكلف ، ولاترمي الشال على كتفيها وعنقها ، بل تكتفي بالضحك فقط ، وتتابع من جديد الكوي والغسيل الموضوع على الطاولة الكبيرة .

أحياناً ، يقترب أبلوموف من الباب والكتاب في يده ، فيلقي نظرة عليها ثم يدخل في حديث معها .

ـ إنك تعملين دائماً ! ـ قال لها ذات مرة .

ضحكت واستمرت تُدَوِّر من جديد ، وباهتمام ملحوظ ، ذراع طاحونة القهوة ، وهي ترسم بمرفقها المتحرك بسرعة ، دوائر زاغت منها عينا أبلوموف .

ـ ألاتتعبين ؟

ـ كلا ، لقد اعتدت على ذلك ، ـ أجابت أغافيا وهي تحرّك الطاحونة .

ـ ماذا تفعلين عندما لايوجد عمل ؟

ـ هل يمكن للعمل أنْ ينتهي ؟ العمل موجود دائماً ، ـ قالت أغافيا ، ـ في الصباح أحضّر الغداء ، وبعد الغداء تأتي الخياطة ، ثم أحضّر العشاء .

ـ هل تتعشين ؟

ـ وهل يمكن أن نظل بدون عشاء ؟ نتعشى بالطبع . في العيد نذهب لنؤدي صلاة الليل .

ـ هذا جيد ، ـ قال أبلوموف . ـ الى أي كنيسة تذهبين ؟

ـ الى كنيسة الميلاد .

ـ هل تقرئين شيئاً ما ؟

ـ نظرت اليه ببلاهة ثم صمتت

ـ هل تملكين كتباً ؟

ـ أخي يملك بعضاً منها ، لكنه لايقرأها . نجلب بعض الصحف من الحانة ، فيقرأ أخي أحياناً بعض المقاطع فيها بصوت مسموع . . . يوجد لدى فانيتشكا كثير من الكتب .

ـ أصحيح أنك لاتستريحين مطلقاً ؟

ـ والله صحيح !

ـ ألا تذهبين الى المسرح ؟

ـ أخي يتواجد هناك في فترة عيد الميلاد .

ـ وأنت ؟

ـ متى يمكنني ذلك ؟ والعشاء من سيحضّره ؟ ـ سألت أغافيا ماتفييفنا ، وهي ترميه بنظرة جانبية .

ـ تستطيع الطباخة أن تحضّره بدونك . . .

ـ أكولينا ! ـ اعترضت بدهشة . ـ كيف يمكن ذلك ؟ وماذا تستطيع أن تفعل بدوني ؟

حتى عشاء يوم غد ، لن تلحق أنْ تُحضّره .

ـ سادت لحظة صمت . أخذ أبلوموف يتنعم برؤية مرفقيها المكتنزين ، المسبوكين .

ـ كم هي جميلة يداك ، ـ قال أبلوموف فجأة ، ـ أستطيع أنْ أصفها الآن ، إنْ شئت .

ضحكت وقد بدا عليها الخجل بعض الشيء

ـ الأكمام تعيقني عن العمل ، ـ قالت موضحة ، ـ فأكمام

الفساتين الدارجة هذه الايام ، تعيق عن العمل ، فما إن تتحرك الأيدي حتى تتسخ .

ثم صمتت ، كما صمت أبلوموف ايضاً .

ـ ينبغي أن أكمل طحن القهوة ، ـ أسرّت أغافيا لنفسها ، ـ كما يجب أن أشتري قرفة .

ـ يجب أن تتزوجي ، ـ قال أبلوموف ، ـ إنك ربة بيت رائعة .

ضحكت ثم بدأت تضع القهوة في وعاء زجاجي .

ـ حقاً أقول ، ـ أضاف أبلوموف .

ـ من يقبل أنْ يأخذني مع أولادي ؟ ـ أجابت أغافيا ، ثم بدأت تحسب شيئاً مافي ذهنها .

ـ عشرتان . . . ـ قالت متفكرة ، ـ هل من المعقول أن نضعهم جميعاً ؟ ـ

ثم وضعت قطرميز القهوة في الخزانة ، وأسرعت الى المطبخ . أما أبلوموف فقد رجع الى حجرته وأخذ يقرأ كتاباً . . .

ـ يالها من امرأة نضرة ، صحيحة الجسم ، ويالها من ربة بيت رائعة ! حقاً ، يجب أنْ تتزوج . . . ـ أسرّ لنفسه ، وراح يفكر . . . بأولغا .

في الايام الصاحية ، كان أبلوموف يضع سدارته على رأسه ويتجول في الأماكن القريبة المجاورة ؛ فيزعجه الوحل هناك ، وتقلقه الكلاب هنا بمجرد أنْ تراه ، فيعود الى البيت .

وفي البيت ، المائدة جاهزة والطعام شهي ونظيف . وأحياناً من خلال الباب نصف المفتوح ، كانت صاحبة البيت تمد يدها العارية وتناوله صحناً ، ثم ترجوه أنْ يتذوق الفطائر التي أعدّتها .

ــ الحياة هادئة جميلة في هذه الناحية ، لكنها موحشة فقط ! ــ كان أبلوموف يقول وهو يتوجه الى الاوبرا . ذات مرة ، أثناء عودته من المسرح في وقت متأخر ليلاً ، ظل أبلوموف يقرع باب البوابة زهاء ساعة ونيف ، يساعده الحوذي أيضاً ، حتى أن الكلب فقد صوته من شدة النباح ، وهو يحاول قطع السلسلة المربوطة على عنقه كي يفلت منها. غضب أبلوموف وأعلن أنه سيترك البيت نهائياً في اليوم التالي . لكن يوماً قد انقضى ويومين وأسبوعاً ، وأبلوموف لم يترك البيت .

كان أبلوموف يشعر بالوحشة الشديدة عندما لايرى أولغا في الأيام غير المحددة لزيارتها ، لأنه لم يكن يسمع صوتها أويقرأ في عينيها ذلك الحب الواضح الثابت والسعادة العارمة .

بالمقابل ، كانت السعادة تغمره أثناء زيارته لها ، فيستمتع منتشياً ويتنعم برؤية عينيها الجميلتين ؛ وفي حضور الآخرين كانت تكفيه نظرتها ، غير المبالية بالآخرين ، لكنْ المعبّرة جداً بالنسبة له .

مع حلول الشتاء كانت لقاءاتهم على انفراد تصبح نادرة جداً . سبب ذلك ، هو أن زواراً أصبحوا يترددون الى بيت إيلينسكايا باستمرار ، فكانت تمضي أيام بكاملها دون أن يتمكّن أبلوموف من

التحدث الى أولغا مطلقاً . كانا يتبادلان النظرات . كانت نظراتها تعبّر أحياناً عن التعب ونفاذ الصبر .

كانت تنظر بحاجبين مقطبين الى جميع الضيوف . حتى أن أبلوموف قد أحس بالضجر لعدم تمكنه من الانفراد بها ، وعزم مرتين على الانصراف بعد الغداء مباشرة .

— الى اين ؟ — سألت أولغا بدهشة ، وقد وجدت نفسها بالقرب منه ، وهي تمسك قبعته .

— الى البيت . . .

— لماذا ؟ — سألت أولغا . كان أحد حاجبيها قد ارتفع قليلاً عن مستوى الآخر . —

ماذا ستفعل ؟

— لاشيء . . . — قال أبلوموف ، وهو يفتح عينيه بصعوبة من شدة النعاس .

— من سيسمح لك ؟ ألست تريد النوم ؟ — سألت أولغا بصرامة ، وهي تنظر اليه بالتناوب، بعينها اليسرى ، ثم اليمنى .

— هذا مستحيل ! — اعترض أبلوموف بحيوية . — أنام في النهار ! كل مافي الأمر ، أنني أشعر بالملل .

ثم أعطاها القبعة

— اليوم الى المسرح ، — قالت أولغا .

ـ لكننا لن نكون في مقصورة واحدة ، ـ أضاف أبلوموف متنهداً .

ـ وماذا يضير ذلك ؟ فكل منا يشاهد الآخر ، كما يمكنك أن تأتي الينا أثناء الاستراحة ، وعند الانصراف ترافقني حتى العربة . . . استعد للذهاب ! ـ أضافت أولغا بلهجة آمرة امتثل أبلوموف لطلبها ، وذهب الى المسرح ، ثم أخذ يتثاءب كما لو أنه كان يريد أن يبتلع المسرح ، وأخذ يحك قفا رأسه ، وهو يضع ساقاً فوق الأخرى .

« آه ، كم أتمنى أن ينتهي المشهد سريعاً ، لأجلس بالقرب منها ، وأتخلص من عذاب هذا البعد عنها ! ـ فكّر أبلوموف . ـ كم يصعب عليّ أن تصبح لقاءاتنا بعد هذا الصيف الممتع ، الذي قضيناه سوية ، عابرة ، خاطفة ، ألعب فيها دور الفتى المغرم . . . لو كنت متزوجاً ، لما وافقت على الذهاب الى المسرح اليوم : فها أنا ذا أشاهد هذه الأوبرا للمرة السادسة . . . ») .

أثناء الإستراحة ، توجه أبلوموف الى أولغا وأخذ يشق طريقه بصعوبة إليها ، وهو يمر أمام شابين كانا يجلسان في مقصورتها . رجع أبلوموف بعد خمس دقائق ، فوجد نفسه وسط حشد من الناس ، يتزاحمون للعودة الى اماكنهم . ابتدأ الفصل الثاني ، فبدأ الجميع يسرعون الى مقاعدهم . كان الشابان ، اللذان يجلسان في مقصورة أولغا موجودين أيضاً وسط هذا الحشد ، لكنهما لم يشاهدا أبلوموف .

ـ من هذا السيد ، الذي كان في مقصورة آل إيلينسكايا ؟ ـ سأل أحدهما الآخر .

ـ إنه شخص يدعى أبلوموف ، ـ أجاب الآخر باستخفاف .

ـ من يكون أبلوموف هذا ؟

ـ إنه . . . إقطاعي ، صديق شتولتس .

ـ آ ! ـ قال الآخر بصورة معبّرة . ـ صديق شتولتس . وماذا يفعل هنا ؟

ـ الله أعلم ! ـ أجاب الآخر ، ثم ذهبا الى مكانيهما . انذهل أبلوموف من هذا الحوار المهين بالنسبة له .

« من هذا السيد ... شخص يُدْعى أبلوموف . . . ماذا يفعل هنا . الله أعلم » ، ـ أخذت هذه الكلمات تدوّي في رأس أبلوموف . ـ « شخص ما ! ماذا أفعل هنا ؟ كيف ؟ انني أحب أولغا ، لكن سؤالاً قد برز الى الوجود : ماذا أفعل هنا ؟ لقد لاحظوا وجودي . . آه ، آه ، يالهي ! يجب أن أفعل شيئاً ما . . . »

لم يعد يرى مايجري على خشبة المسرح ، لم يعد يشاهد الفرسان ولا النساء ، ولم يعد يسمع الموسيقى الأوركسترالية ، التي كانت تدوّي . كان ينظر الى كل الجهات ، وهو يحصي كم من في معارفه الموجودين في المسرح : إنهم يجلسون هنا ، هناك ، في كل مكان ، وهم يتساءلون « من هذا السيد ، الذي دخل الى مقصورة أولغا ؟ . . . » ـ « شخص ما يدعى أبلوموف ! » ـ كان الجميع يجيبون .

« أجل ، فأنا « شخص ما ، نكرة » ! ـ فكر أبلوموف بمرارة . ـ الناس يعرفونني ، لأنني صديق شتولتس . ـ ماذا أفعل عند أولغا ؟ ـ « الله أعلم ! . . . »

ياإلهي ! هؤلاء الشبان ينظرون إليّ ، ثم يركّزون بعد ذلك أبصارهم على مقصورة أولغا ! »

نظر أبلوموف الى المقصورة ، فوجد منظار أولغا موجها اليه .

« ياإلهي ! ـ إنها لاترفع بصرها عني ! ماذا وجدَت بي ، حتى تعيرني اهتماماً كهذا ؟ تنظر إليّ كما او أنني كنز ثمين ! إنها تشير إليّ برأسها الآن كي أنظر الى خشبة المسرح . . . الشابان الجالسان في مقصورتها ينظران إليّ ويضحكان . . . ياإلهي ، ياإلهي ! »

اضطرب أبلوموف من جديد ، وأخذ يحك قذاله ، ثم بدّل وضع ساقيه فوق بعضهما .

« يجب أن أحلّ الأمر بسرعة ، وإلا . . . لماذا لم يرسل لي وكيلي جواباً من القرية ؟ فعدم وصول الجواب هو الذي منعني من السفر الى القرية ، ومن إعلان خطوبتي من أولغا . . . آه ، إنها لاتزال تنظر إليّ ! يالها من مصيبة ! » .

عاد أبلوموف الى البيت ، قبل أن ينتظر نهاية الأوبرا ، لكن هذا الإنطباع اخذ يمحى من ذاكرته تدريجياً ، فقد بدأ ينظر من جديد الى أولغا بسعادة لاتوصف ، ويستمع الى غنائها باعجاب كبير وهو يحبس دموعه . وعندما يصل الى البيت ، كان أبلوموف ، على غير معرفة من

أولغا يستلقي على الأريكة لا لرغبة في النوم ، بل من أجل أنْ يفكّر بها ويستغرق مسروراً في تأملاته . وهو يستحضر في ذهنه صورة حياته المنزلية المستقبلية المليئة بالسعادة والهدوء ، وأولغا الى جانبه تشع ضياءً وسروراً ، فتبعث البهجة والطمأنينة من حوله . كان أبلوموف ، وهو يتأمل صورة المستقبل ، ينظر أحياناً بلا وعي ، من خلال الباب نصف المفتوح ، الى مرفقي صاحبة الشقة المتحركين...

... ذات مرة ، كان الهدوء الذي يسود الطبيعة والبيت نموذجياً مثالياً ، لا أثر لقرقعة العربات ولا اصفق الابواب، وفي غرفة الإنتظار كان رقاص الساعة الجدارية يدقّ بانتظام ، وتغريد الكناري يداعب الأذن ، لكن ذلك كله لم يكن يعكر هذا الهدوء ، بل كان يضفي عليه فقط مسحة من الحياة .

كان إيليا إيليتش مستلقياً على الأريكة من غير اكتراث ، وهو يلعب بخفه فيسقطه على الأرض ، ويرفعه في الجو فيدّوره ثم يسقط من جديد ، فيلتقطه بساقه . . . في هذه الأثناء دخل زاخار ووقف في الباب .

ـ ماذا تريد ! ـ سأل زاخار بتهاون .

كان زاخار ينظر إليه جهاراً تقريباً ، لا خلسة وهو صامت .

ـ مابك ؟ ـ سأل أبلوموف وهو ينظر إليه بدهشة . ـ هل الفطيرة جاهزة ؟

ـ هل عثرت على شقة ؟ ـ سأل زاخار بدوره .

ـ لم أعثر على شقة بعد . ماسبب سؤالك هذا ؟

— لم أرتّب جميع حاجياتنا بعد : فالآنية والملابس والصناديق لاتزال مكومة كلها فوق بعض . هل أرتّبها ؟

— انتظر ، — قال أبلوموف بسرور ، — فأنا أنتظر جواباً من القرية .

— موعد العرس سيتأجّل إذن الى مابعد عيد الميلاد ، أليس كذلك ؟

— أي عرس ؟ — سأل أبلوموف وقد نهض فجأة .

— واضح أي عرس أقصد : عرسك ! — أجاب زاخار بصورة قطعية ، كما لو أنه يتحدث عن مسألة مقررة منذ زمن بعيد . — فأنت ستتزوج ، أليس كذلك ؟

— أتزوج ! من ؟ — سأل أبلوموف بذعر وهو يرمق زاخار بعينين مشدوهتين .

— الآنسة إيلينسكايا . . . وقبل أن يكمل زاخار حديثه ، كان أبلوموف قد أصبح بالقرب منه .

— من ذا الذي أوحى لك بهذه الفكرة أيها التعس ؟ — صرخ أبلوموف بصوت حماسي متحفظ ، زاجراً زاخار بعنف .

— وما مبرر أنْ تنعتني بهذا الوصف ياسيدي ؟ الحمد لله ! — قال زاخار وهو يتراجع تجاه الباب . — من أوحى لي ؟ أناس من طرف آل إيلينسكايا قالوا لي هذا منذ الصيف الفائت .

— هس ! . . . — بدأ أبلوموف يزجر زاخار متوعداً ، وهو يرفع إصبعه الى الأعلى .

ــ وهل أختلق من عندي ؟ ــ قال زاخار .

ــ ولا كلمة ! ــ كرر أبلوموف وهو ينظر الى زاخار متوعداً ثم أشار اليه بأن ينصرف . انصرف زاخار ثم أطلق زفرة عمّت أرجاء الحجرات كلها .

لم يستطع أبلوموف أن يصحو من هول ماسمع ، فظل واقفاً في الوضعية ذاتها وهو ينظر مذعوراً إلى المكان الذي كان يقف فيه زاخار ، ثم وضع يديه على رأسه وتهاوى على الكرسي بيأس .

« الناس يعرفون ! ــ أخذت هذه الكلمات تدور في رأسه . ــ الشائعات وصلت الى الخدم والمطابخ ! الى هذا الحد وصلت الأمور اذن ! لقد تجرأ وسأل عن موعد العرس . كل هذا يحدث وعمتها لاتشتبه بشيء بعد ، واذا ما اشتبهت ولابدّ ، فانها ربما تضمر شيئاً ما عدائياً . . . آه آه ، آه ، آه ، ماذا ستقول ؟ وأنا ؟ وأولغا ؟ » .

ــ ماذا فعلت ! كم أنا تعس ! ــ قال أبلوموف وهو يتهاوى على الأريكة ، دافناً وجهه في الوسادة . ــ العرس ! هذه اللحظة الشاعرية في حياة العاشقين ، هذه السعادة القصوى ــ تصبح مدار حديث الخدم ، وسائقي العربات ، في الوقت الذي لم يتقرر فيه شيء بعد ، في الوقت الذي لم أتلقّ فيه أي رد من وكيلي في القرية ، ولم أعثر فيه على شقة بعد ، في الوقت الذي لاتزال فيه محفظة نقودي خاوية . . .

راح يتأمل ويحلل اللحظة الشاعرية ، التي فقدت بريقها فجأة ، بمجرد أن تحدّث زاخار عنها. أصبح أبلوموف يرى الجانب الآخر

للميدالية ، فبدأ يتقلب بعذاب من جنب الى جنب . ثم ينقلب على ظهره وينهض فجأة فيخطو خطوات ثلاث في الغرفة ثم يستلقي من جديد .

« ماذا فعلت ! — تفكر زاخار برعب وهو قابع في غرفة المدخل — لقد غرّني الشيطان ! » .

— كيف عرفوا ؟ — قال أبلوموف مستغرباً — فأولغا صامتة لم تقل شيئاً ، وأنا لاأتجرأ حتى على التفكير بذلك بصوت مسموع ، في الوقت الذي يجري الحديث فيه عن الزواج في غرفة المدخل ! تلك هي نتيجة اللقاءات على انفراد ، تلك هي خاتمة النظرات الشغوفة المضطرمة والغناء الساحر ! آه، هل يعقل ألا تنتهي قصائد الحب الرائعة تلك على خير أبداً ! يجب أن يتكلل حبي بالزواج ، كي أسبح بعدها في بحر السعادة الوردي ! يالهي ! ياالهي ! أأركض الى اولغا ، وأمسكها من يدها ، ثم أصحبها الى عمتها وأقول : « هذه هي عروسي ! » .. لكنني لم أنجز شيئاً بعد ، فلا الرد على رسالتي قد أتى ، ولا النقود موجودة ، ولا الشقة جاهزة ! كلا يجب أولاً أن أخرج هذه الفكرة من ذهن زاخار ، وأطفىء الشائعات . كما تُطفأ النيران ، فأحول دون انتشار السنة النار والدخان . العرس ! ماذا يعني العرس ؟ . . . » .

ابتسم أبلوموف وهو يتذكر صورة العرس الشاعرية المثالية المرتسمة في ذهنه . تذكر الفستان الطويل الأبيض الرائع ، وغصن النارنج ، وهمس الجمهور . . .

لكن الألوان تغيرت : فالحشد هنا أصبح مكوّناً من زاخار الفظ

الوسخ ، ومن مجموع خدم إيلينسكايا ، وبعض العربات ومن وجوه غريبة فضولية . فبدا له المشهد كئيباً مرعباً .

« يجب أن أزيل هذه الفكرة من ذهن زاخار نهائياً ، وأقنعه بأنها مجرد سخافة لا أكثر » ، — قرر أبلوموف وهو يرتجف مضطرباً ، ويتعذب بأسى .

استدعى زاخار بعد ساعة

تظاهر زاخار بأنه لم يسمع نداء أبلوموف ، ثم انسلّ الى المطبخ دون أن يحدث ضجة . فتح زاخار أحد مصراعي باب المطبخ دون أن يصدر صريراً ، وهمّ بالدخول فارتطم جنبه به ، بينما ارتطم كتفه بالمصراع الآخر ، فانفتح المصراعان وأحدثا ضجة قوية .

— زاخار ! — صرخ أبلوموف بصورة آمرة .

— ماذا تريد ؟ أجاب زاخار من غرفة المدخل .

— تعال الى هنا ! — قال إيليا إيليتش .

— أأجلب لك شيئاً ياسيدي ؟ — أجاب زاخار .

— تعال الى هنا ! — قال أبلوموف باصرار وهو يتوقف بين الكلمات .

— آه ، ماأطيب الموت ! — قال زاخار بصوت أجش وهو يدخل الحجرة .

— ماذا تريد ياسيدي ! — سأل زاخار وهو يدخل في الباب .

— اقترب ! — قال أبلوموف بصوت خافت مهيب ، وهو يدلّ

زاخار على المكان الذي يجب أن يقف فيه . كان المكان قريباً لدرجة أنّ زاخار كان مضطراً لأن يجلس على ركبتي سيده .

— كيف يمكنني أنْ أقترب الى النقطة التي حددتها ياسيدي ؟ فالمكان ضيق هناك ، فأنا أستطيع أنْ أسمعك من هنا ، — قال زاخار وقد توقف عند الباب باصرار .

(بلهجة آمرة) قلت لك ، اقترب !

اقترب زاخار خطوة واحدة ، ثم توقف كالتمثال ، وهو ينظر عبر النافذة الى الدجاجات المتحركة في الحديقة ، معرّضاً فوديه كمكنسة ، تجاه سيده . تغيّر إيليا إيليتش من شدة الإضطراب ، فبدا وجهه مدّبباً وأصبحت عيناه تتحركان بقلق وانزعاج .

« ستنشب المعركة الآن ! » — فكّر زاخار ، وقد أصبح وجهه متجهماً أكثر فأكثر ،

— كيف تجرّأت على توجيه مثل هذا السؤال السخيف الى سيدك ؟ سأل أبلوموف .

« ها هو ذا قد بدأ ! » — تفكر زاخار ، وقد أخذت عيناه ترفّان بشدّة ، وهو ينتظر بأسى « الكلمات المؤسفة » .

— أسألك ، كيف استطعت أن تُدخل في ذهنك فكرة سخيفة كهذه ؟ — كرر أبلوموف .

نظر زاخار صامتاً .

ـ أتسمعني يازاخار ؟ ـ لماذا تسمح لنفسك بعدم الإكتفاء فقط بفكرة كهذه ، بل بالتفوه بها أيضاً ؟ .

ـ عذراً ياإيليا إيلييتش ، من الأفضل أن أنادي أنيسيا . . . ـ أجاب زاخار ، ثم مضى ، باتجاب الباب .

ـ أريد أنْ أتحدث إليك أنت ، ـ قال أبلوموف معترضاً ، ـ لماذا ابتكرت فكرة سخيفة كهذه ؟

ـ لم أبتكر شيئاً ، ـ قال زاخار . ـ أناس من طرف آل إيلينسكايا قالوا ذلك .

ـ ومن قال لهم ؟

ـ كيف لي أن أعرف ! كاتيا أخبرت سيميون ، وسيميون أخبر نيكيتا ، ونيكيتا أخبر فاسيليسا ، وفاسيليسا أخبرت أنيسيا ، وأنيسيا أخبرتني . . . قال زاخار .

ـ (مذعوراً) ياإلهي ، ياإلهي ! كل هؤلاء يعرفون ! هذا كله هراء ، سخافة ، كذب ، افتراء ـ هل تسمعني ؟ ـ قال أبلوموف وهو يضرب الطاولة بقبضة يده . ـ هذا مستحيل ، غير ممكن !

ـ لماذا مستحيل ؟ قاطع زاخار بعدم مبالاة . ـ المسألة عادية ـ عرس ! فلست أنت الوحيد ، الذي يتزوج ، الجميع يتزوجون .

ـ الجميع ! ـ قال أبلوموف . ـ إنك بارع في وضعي على مستوى واحد من حيث الاهمية ، مع الآخرين ، لابل مع الجميع !

مستحيل ، غير ممكن ! هل أصبح العرس مسألة عادية ؟ ماذا يعني العرس ؟

نظر زاخار الى أبلوموف ، فرأى عينيه المضطرمتين غيظاً تحملقان فيه ، فحوّل بصره فوراً الى ركن في الجهة اليمنى .

ـــ اسمع يازاخار ، سأشرح لك ماذا يعني « العرس ، العرس » ـ ـ سيبدأ الناس الفضوليون بالكلام ، وستردد النساء هذه الكلمة وكذلك الأطفال والخدم ، وستنتقل الى المخازن والأسواق . فلن يُعرف الانسان بعد ذلك باسم إيليا إيلييتش ، او بيتر بيترو فيتش بل سيسمى «عريساً ». العريس هو الانسان الذي يصبح في الغد عرضة لنظرات الآخرين ، كما لو أنهم ينظرون إلى مخادع محتال ، بعد أن كانوا يرفضون أن ينظروا اليه البارحة.العريس هو الإنسان ، الذي يسدّون عليه الطريق في المسرح والشارع .

« انظروا هذا هو العريس ! » ـــ سيهمس الجميع ـ ـ . كم من الناس سيقتربون منه يومياً ، ويحملقون فيه بحماقة وغباء ، كما تفعل أنت الآن تماماً ! (حوّل زاخار نظره بسرعة الى الحديقة).ويقولون بعد ذلك كلاماً سخيفاً ، ـــ تابع أبلوموف ـ ـ . تلك هي البداية ! العريس هو من يذهب الى خطيبته يومياً منذ الصباح ، كالمحكوم عليه باللعنة في قفاز بلون القش ، وفي بدلة قشيبة ، دون ان يبدو عليهالضجر . العريس هو الإنسان الذيلايأكل ولا يشرب كما ينبغي ، بل يعيش على الهواء وتقديم باقات الورد ! أرأيت ؟ كيف يمكنني أن أتحملذلك كله؟

توقف أبلوموف ونظر ليرى ان كان تصويره لمتاعب الزواج قد أثرّ على زاخار .

ـ أيمكنني الإنصراف الآن ؟ ـ سأل زاخار وهو يلتفت الى الباب .

ـ كلا ، انتظر ! إنك بارع في إطلاق الشائعات المزيفة ، لذا فمن واجبك أن تتعلم لماذا هي مزيفة .

ـ ماحاجتي لأن أعرف ذلك ؟ ـ قال زاخار وهو يتفحص بعينيه جدران الغرفة .

ـ ربما تكون قد نسيت مايتطلبه الزواج من مشاغل وركض وهموم من العريس والعروس . فهل يوجد عندي من أعتمد عليه للذهاب الى الخياط وصانع الاحذية والأثاث ؟ فأنت لست من يعتمد عليه في تأدية هذه المهام . أنا الوحيد الذي سيتقطع ويتمزق بالذهاب الى هنا وهناك في سبيل ذلك . فالمدينة كلها ستعرف ، بأن « أبلوموف سيتزوج » ، هل تسمعني ؟ ـ سيقول الناس : « هل هذا معقول ؟ من سيتزوج ؟ من تكون العروس ؟ » ـ قال أبلوموف بنبرات صوت مختلفة . ـ سيكون الحديث عن زواجي شغل الناس الشاغل ! كم سأتعذب ، فالتفكير وحده بهذه الامور يجعلني مريضاً ، ثم تأتي بعد ذلك كله لتختلق فكرة الزواج !

نظر الى زاخار من جديد .

ـ أتسمح بأن أنادي أنيسيا ؟ ـ سأل زاخار .

ــ لماذا ؟ ليست أنيسيا هي التي اختلقت هذا الإفتراض الطائش ، بل أنت .

ــ رحماك يا إلهي ، ماذا اقترفت اليوم من ذنب حتى تعاقبني ؟ ــ همس زاخار ، ثم تنهد بقوة ، لدرجة أن كتفيه قد ارتفعا قليلاً .

ــ والمصاريف ؟ تابع أبلوموف ــ والنقود من أين أحصل عليها ؟

ألا تعرف ، كم من النقود معي ؟ ــ سأل أبلوموف بطريقة تنم عن التهديد . ــ والشقة ؟ يجب أن أدفع هنا ألف روبل ، وأن أستأجر شقة أخرى أيضاً أدفع ايجارها ثلاثة آلاف روبل ، ناهيك عن الإكمالات ! زد على ذلك تكاليف العربة والطباخ ونفقات المعيشة ! كيف لي أن أتدبر ذلك كله ؟

ــ كيف يتزوج الآخرون إذن ؟ ــ قال زاخار معترضاً ، لكنه ندم على ما بدر منه، لأن سيده قفز من كرسيه لدى سماعه ذلك ، حتى أنه كاد أن يثب نحوه .

ــ تعود ثانية وتقارنني بـ « الآخرين » ؟ حذار ! قال أبلوموف مهدداً باصبعه . ــ الآخرون يعيشون في غرفتين فقط مع أولادهم وضيوفهم ، في بيوت الآخرين تخدم امرأة واحدة فقط . هل ترضى بأن تذهب سيدة نبيلة الى السوق ! هل تذهب أولغا سيرغييفنا الى السوق ؟

ــ المسألة محلولة ، الى السوق أذهب أنا ، ــ لاحظ زاخار .

ــ ألا تعرف مقدار دخلنا من أبلوموفكا ؟ ألم تسمع ماكتبه وكيل القرية ؟ الدخل هذا العام أقل من السنة الفائتة بألفي روبل ! ورغم ذلك

فهناك أمور كثيرة يجب إنجازها : شق الطريق ، بناء المدرسة والسفر الى أبلوموفكا ، وهناك في القرية لايوجد لديّ بيت أعيش فيه . . . عن أي عرس تتحدث ؟ ماذا تبتكر وتختلق ؟

توقّف أبلوموف . استولى عليه الرعب بسبب هذه الصورة المستقبلية المخيفة . فأزهار النارنج ، والورود ، وبريق العيد ، وصيحات الدهشة وسط الجمهور ـ تلاشت كلها فجأة .

تغير وجهه واستغرق في التفكير . أخذ يعود الى رشده تدريجياً ، ثم التفت وشاهد زاخار .

ـ ماذا تريد ؟ ـ سأل أبلوموف وعلامات الإنزعاج بادية على وجهه .

ـ لقد أمرتني ياسيدي بأن أنتظر ! ـ قال زاخار .

ـ انصرف ! ـ أشار له أبلوموف بفارغ الصبر . اتجه زاخار بسرعة نحو الباب .

ـ لا ، انتظرْ ! ـ استوقفه أبلوموف فجأة .

ـ حيّرتني ياسيدي ، مرة تقول انصرف ، وأخرى انتظر ! غمغم زاخار وهو يمسك الباب بيده .

ـ (بصوت قلق) كيف تتجرأ على اطلاق مثل هذه الشائعات الطائشة ؟

ـ متى أطلقتها ؟ لست أنا الذي أطلقتها . أناس من طرف آل إيلينسكايا ، هم الذين قالوا بأن السيد النبيل سيخطب . . .

ـ هس . . . ـ همس أبلوموف وهو يلوّح بيده مهدّداً ، ـ ولا كلمة ! أتسمع ؟

ـ سمعاً ياسيدي ، ـ أجاب زاخار بخوف .

ـ هل ستتوقف عن نشر هذه الترّهات ؟

ـ أجل ـ أجاب زاخار بصوت خافت وهو لايفهم نصف الكلمات ، فكل ماعرفه فقط ، هو أنها كلمات « مؤسفة » .

ـ واذا ماصادف أن دار الحديث أمامك حول هذا الموضوع ، أو وجّه أحدهم إليك سؤالاً بشأنه ، فقل لكل من يسأل : هراء ، فهذا أمر مختَلَق ، عار عن الحقيقة ، ولا يمكن أن يكون ! ـ أضاف أبلوموف هامساً .

ـ سمعاً وطاعة ياسيدي ، ـ همس زاخار بصوت خافت لايكاد يُسْمَع .

التفت أبلوموف إليه متوعداً باصبعه . أخذ زاخار يرفّ عينيه المذعورتين ، ثم توجّه على رؤوس أصابعه تجاه الباب على أمل الإنصراف

ـ من هو الشخص الأول ، الذي أطلق هذه الإشاعة ؟ ـ سأل أبلوموف ، بعد أن كان قد أدركه .

ـ كاتيا أخبرت سيمون وسيميون أخبر نيكيتا ، ونيكيتا أخبر فاسيليسا ، قال زاخار هامساً .

ـ وأنت نشرت الإشاعة للجميع ! سأريك ! ـ همس أبلوموف متوعداً . تلصق تهمة باطلة بسيدك ! آ !

طيب !

ـ لماذا تقرّعني بهذه الكلمات ياسيدي ؟ ـ قال زاخار ، ـ سأنادي أنيسيا : فهي تعرف كل شيء . . .

ـ ماذا تعرف ؟ قل ، قل فوراً ! . . . خرج زاخار من الباب بسرعة البرق ، ثم دخل المطبخ بعجلة غير معهودة .

ـ ضعي المقلاة ، وهلمّي الى سيدي ! ـ قال زاخار مخاطباً أنيسيا وهو يشير باصبعه الكبيرة الى الباب .

أعطت أنيسيا المقلاة لأكولينا ، ثم سحبت طرف ثوبها من تحت زنّارها ، وضربت وركيها براحتي يديها ، ومسحت أنفها بسبابتها ثم مضت الى سيدها . وخلال خمس دقائق تمكّنت أنيسيا من تهدئة روع أبلوموف ، بعد أن قالت له بأن أحداً لم يتحدث قط عن العرس ، وأقسمت بأنها تسمع هذا الموضوع للمرة الأولى ؛ أخبرته بأنها سمعت كلاماً آخر تماماً ، مفاده أن البارون سيخطب الآنسة أولغا . . .

ـ البارون ! ـ سأل إيليا إيليتش وهو يقفز فجأة ، وقد تجمّد ليس قلبه فحسب ، بل يداه وساقاه أيضاً .

ـ هذا ايضاً هراء ! ـ قالت أنيسيا بسرعة ، بعد أن رأت أنها هربت من مشكلة فوقعت في مشكلة أكبر .

حقيقة الامر ياسيدي ، أن كاتيا أخبرت سيميون بما قلته لكم ، وسيميون أخبر مارفا ، ومارفا حرّفت الكلام لنيكيتا ، ونيكيتا قال ، بأنه « سيكون رائعاً جداً ، لو تزوج سيدك الآنسة . . . »

ــ كم هو أحمق نيكيتا هذا ! ــ لاحظ أبلوموف

ــ حقاً ، إنه لأحمق ، ــ أكدت أنيسيا ، ــ فهو يبدو كالنائم تماماً عندما يسير خلف العربة . فاسيليسا لم تصدق . ــ تابعت أنيسيا ، وهي تسرع في الكلام ، ــ فقد أخبرتني بأن الآنسة أولغا لاتفكر بالزواج ، وأنه من غير المعقول ألا يكون إيليا إيليتش قد عثر على عروس لو أنه أراد الزواج حقاً ، كما أخبرتني بأنها شاهدت صموئيل منذ مدة قريبة ، حتى أنه ضحك لدى سماعه الخبر وقال لها : عن أي عرس تتحدثين ؟ فالحالة في منزل آل إيلينسكايا تبعث على الأسى ، أكثر مما تبعث على الفرح ، فعمة الآنسة أولغا تشعر بصداع في رأسها ، والآنسة نفسها تبكي وهي صامتة ؛ وفي البيت لايجري أي تحضير لجهاز العروس ، حتى أنهم رهنوا في الأسبوع الفائت فضياتهم . . .

« رهنوا فضياتهم ؟ لايوجد لديهم نقود ! » ــ تفكر أبلوموف وهو يطوف بعينيه على الجدران بهلع ، ثم توقفت عيناه على أنف أنيسيا ، لأنه لم يجد شيئاً آخر يوقفهما عليه . كانت أنيسيا تبدو وكأنها لاتتحدث بفمها ، بل بأنفها .

ــ حذار من الثرثرة ياأنيسيا ! ــ قال أبلوموف زاجراً بحركة من إصبعه .

ــ وهل يمكن أن أفعل ذلك ياسيدي ! فهذا أمر لايمكن أن يخطر على بالي مطلقاً ، ــ قالت أنيسيا بصوت يشبه نجر الخشب ، ــ كيف

أتحدث عن أمر لا وجود له بتاتاً . أقسم بالله إنني أسمع هذا للمرة الأولى اليوم ! كيف يمكن أن أثرثر ؟ لا ياسيدي ، هذا مستحيل . فأنا لا أتحدث الى أحد ؛ أقضي الوقت كله في المطبخ . لم أشاهد أحداً من طرف آل إيلينسكايا منذ أكثر من شهر ، حتى أني نسيت أسماءهم . وهنا ، مع من أثرثر ، فأنا لاأتحدث إلا مع صاحبة البيت فقط ، والحديث كله يدور حول الطهي والغسيل والشؤون المنزلية ؛ الى العجوز يستحيل التحدث : فهي تسعل دائماً ، كما أنها لاتسمع إلا بشق النفس. أكولينا امرأة غبية بلهاء ، اما البواب فسكّير ؛ يبقى الأطفال فقط : ماذا يمكن أن يدور بيننا من حديث ؟ حتى صورة الآنسة أولغا نسيتها ...

ــ كفى ، كفى ، كفى ! ــ قال أبلوموف ، مشيراً بيده بفارغ الصبر كي تنصرف .

ــ كيف يمكن أن أتحدث عن أمر لا وجود له ؟ ــ أكملت أنيسيا كلامها وهي تنصرف. ــ ماقاله نيكيتا هراء بهراء ، فكلام الحمقى لايؤخذ به .

لايمكن أن يخطر في بالي مطلقاً ، أمر كهذا : فمن طلوع الشمس حتى غروبها وأنا أكدّ وأعمل ــ فكيف يمكن أن أفكر بأمر كهذا ؟ الله يشهد على ماأقول ! إثر ذلك ، اختفى ذلك الأنف المتكلم وراء الباب ، ثم ظلّ صوتها مسموعاً خلفه بعض الوقت .

ــ هكذا إذن ! فأنيسيا تؤكد : كيف يعقل ذلك ! ــ قال أبلوموف هامساً ، وهو يشبك راحتي يديه ببعضهما .

— السعادة ، السعادة ! — كرّر أبلوموف بعد ذلك بمرارة . — كم هي هشّة ، لايوثق بها !

والاكليل ، والحب ! كيف أحصل على النقود ؟ كيف سأتدبّر نفقات معيشتي ؟ فالمرء يجب أنْ يشتري الحب والسعادة الصافية .

منذ هذه اللحظة لم يعد أبلوموف يشعر بحلاوة الطمأنينة والأحلام الواعدة . أصبح قلقاً لاينام ولا يأكل إلا القليل القليل ، وينظر الى كل شيء ساهماً .

كان يريد أن يخيف زاخار ، لكن خوفه أصبح أكبر ، وهو يتأمل ويفكر ملياً بالجانب العملي للزواج . أدرك أبلوموف جانبه الشاعري بالطبع ، لكنه أدرك أيضاً جانبه العملي الذي يعتبر خطوة رسمية لدخول مدرسة الواقع الجدية الصارمة ، التي ترتّب على عاتقه العديد من المسؤوليات والالتزامات القاسية .

كان أبلوموف قد تخيّل حديثه مع زاخار على نحو مغاير تماماً .

تذكر كيفية إعلان نبأ زواجه بمهابة أمام زاخار ، الذي سيطير فرحاً وسيرتمي على قدميه ، وكيف سيعطيه خمسة وعشرين روبلاً ، بينما يعطي أنيسيا عشرة روبلات . . .

تذكر كل شيء ، تذكر نبضات السعادة الرائعة ، وارتعاش أنامل أولغا ، والقبلة الحارة الشغوفة ، ثم أخذت هذه العبارة تتردّد في أعماقه : « لقد ضاع كل شيء وانقضى ! » .

— ماذا الآن ؟ . . .

ــ ٥ ــ

لم يكن أبلوموف يعرف كيف سيواجه أولغا ، لم يكن يعرف ماستقوله له ، أو ماسيقوله لها ، فقرر ألا يذهب إليها يوم الاربعاء ، وأن يؤجّل لقاءه بها ليوم الأحد ، وهو الوقت الذي يكون فيه هناك عادة حشد كبير من الزوار ، الأمر الذي لايسمح لهما باللقاء على انفراد .

لم يكن يريد أن يروي على مسامعها أقاويل الناس الحمقاء عنهما ، كي لايزعجها ويعكر صفوها ، فقد رأى أنه من الحكمة عدم البوح إليها بذلك ، لكنه بالمقابل ، لايعرف التصنّع والتكلف : فتستطيع أولغا أن تنتزع حتماً من أعماق نفسه كل شيء .

هدأ قليلاً بعد أن استقر على هذا القرار ، وكتب الى جاره في القرية والى وكيله هناك رسالة يرجو فيها بالحاح الإسراع في الرد ، على أن يكون الجواب مُرضياً ما أمكن .

بعد ذلك ، بدأ يفكر كيف سيمضي ذلك اليوم بعيداً عن أولغا ، دون أن يستمع الى غنائها العذب ، ويستمتع بالنظر إليها .

قرر أبلوموف أن يذهب الى إيفان غير اسيموفيتش ، ويتناول الغداء عنده ، كي يخفف عن نفسه قدر المستطاع من عناء ذلك اليوم . وفي الأحد ، يكون وضعه قد تحسّن ، ولربما يكون الجواب من القرية قد وصل أيضاً .

أقبل يوم الأربعاء .

استيقظ أبلوموف على نباح الكلب المربوط بالسلاسل.دخل أحد ما فناء المنزل ، وبدأ يسأل عن شخص ما . صاح البواب لزاخار . حمل زاخار الى أبلوموف رسالة آتية من بريد المدينة .

ـــ من الآنسة إيلينسكايا ، ـــ قال زاخار .

ـــ كيف عرفت ؟ ـــ سأل أبلوموف بغضب ـــ إنك تكذب !

ـــ مثل هذه الرسائل ، كانت تأتيك منها ياسيدي ، عندما كنا في المنزل الصيفي ، ـــ أصرّ زاخار .

« هل صحتها بخير ؟ ماذا يعني ذلك ؟ » تفكر أبلوموف وهو يفتح الرسالة .

« لاأريد أن أنتظر حتى يوم الاربعاء (كتبت اولغا) : فأنا لا أستطيع أن أصبر طويلاً على فراقك . سأنتظرك غداً بفارغ الصبر في الحديقة الصيفية ، الساعة الثالثة » .

انتهى نص الرسالة .

عاد القلق من جديد الى أبلوموف ، وبدأ يروح ويجيء من شدة الإضطراب ، وهو يفكر بما سيقوله لها ، وكيف سيواجهها .

ـــ لاأقدر ، لاأستطيع ، ـــ قال أبلوموف .

لكنه وجد أخيراً مايُدخِل الهدوء الى نفسه . تخيّل أن أولغا ستأتي الى الموعد ، إما بصحبة عمتها ، أو بصحبة سيدة أخرى ، كما ريا سيميونوفنا مثلاً ، التي تحبها كثيراً ، ولاتشبع من النظر اليها . انبعث في نفسه الأمل ، بأنه سيستطيع أن يخفي قلقه واضطرابه بوجود مثل هذه

السيدة ، التي تصحب أولغا ، وأخذ يهيّىء نفسه كي يكون كثير الكلام ، أنيساً .

« في موعد الغداء بالذات : ماأغرب تحديد الموعدفي وقتكهذا ! »— تفكر أبلوموف ، وهو يتوجه ، ليس بدون كسل ، الى الحديقة الصيفية .

ماإن دخل الممشى الطويل ، حتى شاهد امرأة تضع خماراً على وجهها ، وهي تنهض وتتجه لملاقاته .

لم يستطيع أن يتصور بأنها أولغا : فهي وحيدة ! لايمكن ! إنها لن تفعل ذلك ، إذ لاتوجد لديها حجة أو ذريعة لمغادرة البيت .

لكن المشية تبدو مشيتها : فساقاها تنزلقان بخفة ورشاقة ، وعنقها ورأسها مائلان الى الأمام قليلاً ، كأنها تبحث بعينيها دائماً عن شيء ماتحت قدميها .

شخص آخر كان يمكن أن يميّزها من قبعتها ومعطفها ، لكن أبلوموف الذي كان يمضي بصحبتها الصباح كله ، لم يستطع أن يحدّد أبداً نوع المعطف الذي ترتديه ولا القلنسوة التي على رأسها .

كانت الحديقة خالية من الناس تقريباً ، إذ لم يكن يشاهَد فيها إلا رجل كهل يسير برشاقة وسرعة : يبدو أنه كان يقوم بنزهة من أجل إنعاش صحته ، وامرأتان،ومربية بصحبة طفلين ازرقّ وجههما بسبب البرد .

.. كانت أوراق الاشجار قد تساقطت تماماً ، الغربان تنعق بصورة

كريهة . بالمناسبة ، كان يبدو بجلاء ، أن الطقس جميل ، حتى ان المرء سيشعر بالدفء اذا مالبس جيّداً .

كانت المرأة ذات الخمار تقترب أكثر فأكثر . . .

. إنها هي ! .. قال أبلوموف ، ثم توقف من شدة الرعب وهو لايصدّق عينيه .

ـ هذا أنت ؟ مابك ؟ ـ سأل أبلوموف وهو يأخذ يدها .

ـ كم أنا سعيدة لأنك أتيت ، ـ قالت أولغا دون أن تجيب على سؤاله ، ـ اعتقدت بأنك لن تأتي ، وبدأت أضطرب !

ـ كيف أتيت الى هنا ، وبأي طريقة ؟ ـ سأل أبلوموف باندهال.

ـ دعْك من هذا . ماهذه الاسئلة ؟ ـ إنها تبعث على الملل !. أردت أن أراك فأتيت ـ هذا كل مافي الامر !

شدّت على يده بقوة وأخذت تنظر اليه بسرور وبعدم مبالاة . مستمتعة بروعة هذا اللحظة ورونقها ، لدرجة أنه شعر بالحسد لعدم مشاركته لها مزاجها هذا . كان وجهها خالياً من تلك الفكرة المركّزة ، التي تلتمع عادة على حاجبيها ، وتنسكب على جبينها ، فقد كان صافياً رائعاً لاأثر للكدر فيه .

كان وجهها يشع ببريق البراءة الطفولية ، وبالثقة بالمستقبل المشرق الباسم ، وبالسعادة . . . كانت غايةً في اللطف .

ـ آه ، كم أنا سعيدة ! ـ قالت بإصرار وهي تبتسم وتنظر إليه .

اعتقدت بأني لن أراك اليوم . البارحة شعرت بالضجر فجأة ، دون أن أعرف السبب ، فكتبت إليك . ألست مسروراً ؟

نظرت الى وجهه .

ــ لماذا أنت جهم اليوم ؟ لماذا أنت صامت ؟ هل أنت غير مسرور ؟ اعتقدت بأنك ستكون في غاية السعادة والفرح ، لكنك تبدو كالنائم تماماً .

استيقظ من غفوتك أيها السيد ، فأولغا معك !

ثم دفعته برفق معاتبة .

ــ هل أنت مريض ؟ مابك ؟ ــ ألحّت أولغا .

ــ كلا ، فأنا سعيد وصحتي جيدة ــ قال أبلوموف بسرعة ، كي يصرف نظر أولغا عن قراءة مافي أعماقه من أسرار وخبايا . ــ كل مافي الأمر ، هو أنني قلق ، لأنك أتيت الى هنا بمفردك . . .

ــ هذه هي رغبتي ، ــ قالت أولغا بنفاذ الصبر . ــ هل كان من الأفضل ، أن تأتي عمتي معي ؟

ــ أجل ياأولغا . . .

ــ لو كنت أعرف رأيك هذا ، لرجوتها أن ترافقني ، ــ قالت أولغا بصوت ممزوج بالأسى وهي تفلت يده . ــ كنت أعتقد ، بأنّ وجودي معك على انفراد ، هي أكبر سعادة بالنسبة لك .

ــ (معترضاً) كلا ، هذا لايجوز أن يحدث ! . كيف تأتين بمفردك . . .

ـــ لاداعي للتحدث عن هذا طويلاً ، من الأفضل أن نتحدّث عن أمر آخر ، ـــ قالت أولغا بدون اكتراث .

ـــ اسمَعْ . . . آه ، كنت أريد أن أقول شيئاً ... ما ، لكنني نسيت . . .

ـــ أما كنت تريدين التحدث عن سبب مجيئك الى هنا بمفردك ؟ ـــ بدأ أبلوموف الكلام وهو ينظر جانباً .

ـــ كلا ! فأنت تعود الى الموضوع ذاته ! كفى ! ماذا كنت أريد أن أقول ؟ . . . لقد نسيت ، سأتذكر فيما بعد .

آه ماأروع المكان هنا ، فأوراق الأشجار تساقطت،إنها أوراق الخريف ـــ هل تذكر هوغو ؟ انظر،الشمس تطل هناك ، آه ، ماأروع نهر النيفا . . . هيا بنا نتنزه في القارب . . . .

ـــ ماذا تقولين ؟ سامحك الله ! في مثل هذا البرد ، فأنا في قميص القطن فقط . . .

ـــ وأنا أيضاً في فستان قطني . ماأهمية ذلك . هيّا ، هيّا .

ثم ركضت وهي تسحبه بيده . أخذ يقاوم . لكنهما جلسا في القارب وانطلقا .

ـــ كيف أتيت الى هنا بمفردك ؟ ـــ أصرّ أبلوموف وقد بدا عليه الإنزعاج .

ـــ أ أقول ؟ ـــ أخذت تتظاهر بالغيظ بدهاء ، بعد أن أصبحا في

وسط النهر . ــ الآن يمكنني القول : فأنت لاتستطيع أن تهرب من هنا ، بينما كنت تستطيع أن تهرب من هناك . . .

ــ ماذا ستقولين ؟ ــ قال أبلوموف بذعر .

ــ ألن تذهب الينا في الغد ؟ ــ سألت أولغا بدلاً من أن تجيب .

« آه ، يالهي ! ــ تفكر أبلوموف . ــ كأنها قد قرأت أفكاري وعرفت بأنني لم أكن أريد الذهاب » .

ــ أجل سأذهب ، ــ أجاب بصوت مسموع .

ــ منذ الصباح ، ليوم بكامله .

اضطرب أبلوموف

ــ اسمع . . . ــ بدأت اولغا بجدّية ، ــ لقد طلبت منك المجيء اليوم ، كي أقول لك . . .

ــ ماذا ؟ ــ سأل بذعر

ــ كي . . . تذهب إلينا غداً .

ــ آه ، يالهي ! ــ اعترض أبلوموف بنفاذ صبر . ــ لكن ، كيف أتيت الى هنا ؟

ــ الى هنا ؟ ــ ردّدت أولغا بسرور . ــ تسأل كيف أتيت الى هنا ؟ هكذا ببساطة . . . اسمع . . . يكفي التحدث عن ذلك !

غرفت حفنة ماء ورشقتها على وجهه . أغمض عينيه ثم ارتعش بينما أخذت أولغا تضحك .

ــ ماأبرد الماء ، لقد تجمّدت يدي تماماً ! يالهي ! يالروعة ، يا

للبهجة ! ـ تابعت أولغا وهي تتلفت جانباً . ـ فلنذهب غداً الى هنا من جديد ، على أن نأتي من البيت مباشرة . . .

ـ ألم تأت الآن مباشرة من البيت ؟ من أين قادمة أنت ؟ ـ سأل أبلوموف بسرعة .

ـ من المخزن ، ـ أجابت أولغا .

ـ من أي مخزن ؟

ـ كيف ؟ لقد قلت في الحديقة ، من أي مخزن . . .

ـ كلا ، لم تقولي . . . ـ قال أبلوموف بفارغ الصبر .

ـ لم أقل ! غريب ! لقد نسيت ! ذهبت بصحبة رجل الى أحد الصاغة . . .

ـ وماذا أيضاً ؟

ـ ماذا تسمي هذه الكنيسة ؟ ـ سألت اولغا فجأة صاحب القارب . وهي تشير الى مكان بعيد .

ـ أية كنيسة ؟ تلك ؟ ـ أعاد صاحب القارب السؤال من جديد.

ـ سموليني ! ـ أجاب أبلوموف بنفاذ الصبر . ـ ذهبت الى المخزن . ماذا فعلت هناك ؟

ـ توجد هناك . . . أشياء رائعة . . . آه ، لقد عثرت على سوار رائع !

ـ (مقاطعاً) الحديث ليس عن السوار ! ماذا فعلت ايضاً ؟.

ــ هذا كل شيء ، ــ أضافت أولغا بسرور وهي تتفحص المكان بانتباه من كل الجهات .

ــ أين الرجل ؟ ــ سأل أبلوموف بالحاح .

ــ ذهب الى البيت ، ــ أجابت أولغا بلا اكتراث ، وهي تنظر الى الأبنية الموجودة على الضفة المقابلة .

ــ وأنت ؟ ــ قال أبلوموف .

ــ ماأروع المكان هناك ! ألا يمكننا الذهاب الى هناك ؟ ــ سألت أولغا مشيرة بمظلتها الى الجهة المقابلة . ــ فأنت تعيش هناك !

ــ أجل .

ــ دلّني على الشارع ، الذي تعيش فيه .

ــ أين الرجل ؟ ــ سأل أبلوموف .

ــ أرسلته الى البيت من أجل السوار ، وأمرته بأن ينتظر عند المخزن ، أما أنا فأتيت الى هنا ــ أجابت بلا اكتراث .

ــ كيف فعلت ذلك ؟ ــ قال أبلوموف وهو يحملق فيها.

علّت أمارات الخوف وجه أبلوموف . أما أولغا فقد اتخّذت قصداً الهيئة ذاتها .

ــ تكلمي بجدّية ياأولغا ، كفى مزاحاً .

ــ أنا لاأمزح ، ذلك مافعلت حقاً ! ــ قالت بهدوء . ــ لقد تناسيت السوار عمداً في البيت ، في الوقت الذي طلبت فيه عمّي أن أعرّج على

المخزن . فأنت لن يخطر ببالك أمر كهذا ! ـ أضافت أولغا باعتزاز ، وكأنها عملت أمراً عظيماً .

ـ ماذا سنفعل فيما لو عاد الرجل ؟ ـ سأل أبلوموف .

ـ لا ، لن يأتي ، فقد طلبت منه أن ينتظر ويبلغ عمّي ، بأنني ذهبت الى مخزن آخر ، أما انا فأتيت الى هنا . . .

ـ واذا سألتك ماريا ميخا يلوفنا الى أي مخزن ذهبت فماذاستقولين؟

ـ سأقول بأنني كنت عند الخياطة .

ـ واذا سألت الخياطة ؟

ـ واذا غار نهر النيفا في البحر فجأة، واذا انقلب الزورق في النهر ، واذا انهار حي مورسكايا ومنزلنا واذا ما توقفت عن حبي فجأة . . . ـ قالت أولغا ثم رشقت وجهه بالماء من جديد .

ـ لكن الرجل ينتظر . . . ـ قال أبلوموف وهو يمسح وجهه . ـ ياصاحب القارب ، هيّا الى الضفة !

ـ لا، لا ! ـ أمرت اولغا صاحب القارب .

ـ هيا الى الضفة ؟ فالرجل ينتظر ، ـ أصرّ أبلوموف .

ـ فلينتظر ! لا ، لا تعُد الى الضفة .

لكن أبلوموف أصرّ على رأيه ، وأخذ يسير في الحديقة مسرعاً ، أما أولغا فقد كانت على العكس من ذلك ، تسير ببطء وهي تستند على يده .

ـ لماذا أنت مسرع هكذا ؟ ـ قالت أولغا . ـ تمهّلْ ، فأنا أريد أن أبقى معك .

أخذت تمشي ببطء أكثر ، وهي تلتصق بكتفه وتنظر الى وجهه عن كثب ، أما أبلوموف فكان يتحدث اليها عن المسؤوليات والواجب بتكاسل وضجر ومشقة .

كانت تسمعه بشرود ، وقد علت ابتسامة فاترة شفتيها ، وهي تخفض رأسها وتنظر الى الأسفل ، أو الى وجهه من جديد ، وهي تفكر بشيء آخر .

ـ اسمعي ياأولغا ـ بدأ أبلوموف ، كلامه أخيراً بمهابة ، ـ ينبغي أن أقول لك بكل صراحة وحسم ، بأننا ذهبنا بعيداً . فواجبي ومسؤولياتي تحتّم عليّ بأن أقول لك ذلك .

ـ ماذا ستقول ؟ ـ سألت أولغا بفارغ الصبر .

بأننا نرتكب حماقة ، لأننا نلتقي سراً .

ـ لقد سبق أنّ قلت هذا ، عندما كنّا في المنزل الصيفي ، ـ قالت أولغا بتأمل .

ـ أجل ، لكنني كنت آنذاك مفتوناً : كنت ادفع بيدٍ وأمسك بأخرى . لقد كنت أنت صريحة ، أما أنا فكأنني . . . كنت أخدع نفسي . كان إحساسي بالسعادة آنذاك لايزال عارماً . . .

ـ أما الآن فاصبح فاتراً ، وبدأت تضجر . . .

ـ آه ، كلا ياأولغا ! انك لست محقة في ذلك . حقيقة الأمر ، هي

أنني لم أكن قادراً فيما مضى على الإمتثال لنداء العقل . فضميري يعذبني لأنك ماتزالين فتية ومعرفتك للعالم والناس ماتزال بسيطة ، زد على ذلك أن حبك طاهر ونقي لدرجة أنه لايخطر في بالك مطلقاً ما نلاقيه معاً من لوم واستنكار قاسيين بسبب ما نفعله ، لاسيّما أن هذا اللوم ينصب عليّ بالدرجة الأولى .

ـ وماذا سنفعل ؟ ـ سألت اولغا وهي تتوقف .

ـ كيف ؟ إنك تخدعين عمتك ، وتخرجين سراً من البيت وتقابلين رجلاً على انفراد . . . حاولي أن تفصحي عن ذلك كله يوم الاحد ، في حضرة الضيوف . . .

ـ وما المانع من ذلك ؟ ـ قالت بهدوء . ـ لعلي سأقول . . .

ـ عندها سترين ، ـ تابع أبلوموف ، ـ كم سيكون موقف عمتك صعباً ، وكم سيكون رد فعل السيدات مستهجناً وكيف سيتجاسر الرجال على النظر إليك بوقاحة وخبث . . .

أخذت اولغا تفكر .

ـ لكننا انا وأنت ـ عروسة وعريس ! ـ قالت أولغا معترضة

ـ أجل ، أجل ، ياعزيزتي أولغا ، ـ قال أبلوموف وهو يضغط على يديها ، ـ لكن هذا لايعفينا من اليقظة والحذر لدى كل خطوة نخطوها . فأنا أريد أن أمشي متأبطاً ذراعك باعتزاز على مرأى من العالم كله ، لاسرّاً ، أريد أن يخفض الناس أبصارهم احتراماً لك وأنت تمرّين أمامهم ، لا أن يتجاسروا على النظر إليك بوقاحة وخبث ، أريد

ألا يخطر ببال أحد قط ، بأنك قد تنسين الخجل والتهذيب والواجب . . .

ـ لم أنسَ الخجل والتهذيب والواجب ، ـ أجابت أولغا باعتزاز وهي تسحب يدها منه .

ـ أعرف ، أعرف ياملاكي الطاهر ، فلست أنا الذي يقول ذلك ، بل الناس ، الذين لن يغفروا لك أية زلّة . أستحلفك بالله أن تفهمي قصدي . فأنا أريدك أن تكوني في أعين الناس كما أنت في حقيقة الأمر ، طاهرة نقية لاعيب فيك . . .

أخذت أولغا تسير متأملة .

ـ افهمي القصد مما أقوله لك : فلن تكوني سعيدة ، وسأكون أنا المسؤول عن ذلك كله . سيقولون ، بأني قد استدرجتك وأغمضت عينيك عن الهاوية . فأنت طاهرة هادئة معي ، لكن من ستقنعين بذلك ؟ من سيصدّق ؟

ـ هذا صحيح ، ـ قالت أولغا مرتعشة . اسمع ، ـ أضافت بحسم ، ـ سنخبر عمتي بكل شيء ، ولتباركنا غداً . . .

امتقع أبلوموف .

ـ مابك ؟ ـ سألت أولغا .

ـ انتظري ياأولغا : لماذا أنت مستعجلة هكذا ؟ . . . ـ أضاف أبلوموف بسرعة وشفتاه ترتجفان .

ـ ألست أنت الذي كنت تستعجلني منذ أسبوعين ؟ ـ سألت أولغا ، وهي تنظر اليه بامعان وجفاء .

ـ (متأوهاً) لكنني لم أفكر عندئذ بالاستعدادات ، التي هي كثيرة ! . . .

لننتظر الرسالة ، التي ستأتيني من القرية .

ـ لماذا ننتظر الرسالة ؟ فهل يمكن لهذا الرد أو ذاك أن يغير من عزمك ؟ ـ سألت أولغا ، وهي تنظر اليه بامعان أكثر .

ـ طبعاً لا ! المسألة هي مسألة تحضير واستعدادات . فالحديث مع عمتك سيدور عن العرس وموعده . فنحن لن نتحدث اليها عن حبنا ، بل عن مثل هذه الأمور العملية ، التي لم أستعد لها الآن بعد .

ـ فلنخبرها إذن بمجرد أن تستلم الرسالة ، وفي هذه الأثناء سندع الجميع يعرفون بأننا خطيب وخطيبة ، واننا سنلتقي يومياً . لقد تعبت من هذه الأيام الطويلة ، ـ أضافت أولغا ، ـ فالجميع يلحّون عليّ بأسئلتهم ويلاحظون علاقتنا ويلمحون اليك . لقد تعبت من ذلك كله !

ـ يلمحون إليّ ؟ ـ نطق أبلوموف بصعوبة فائقة .

ـ أجل ، بفضل سونيتشكا .

ـ أرأيت ، أرأيت ؟ فأنت لم تصغ إلي ، بل غضبت مني آنذاك !

ـ ماذا أرى ؟ لاشيء ، كل ماأراه هو أنك جبان . . . فأنا لاأحب هذه التلميحات .

ـ لست جباناً ، بل حذراً . . . أستحلفك بالله أن نذهب من هنا يا أولغا :

انظري ، هناك عربة تقترب ـ أليسوا من معارفنا ؟ آه ! فأنا لاأحتمل ذلك . . . هيا ، هيا ـ قال أبلوموف بهلع حتى أنه نقل عدوى الخوف إليها .

ـ أجل ، فلنذهب بسرعة ، ـ قالت أولغا بهمس ، وهي تسرع في الكلام .

أخذا يركضان تقريباً في الممشى حتى نهاية الحديقة ، دون أن ينبسا بكلمة واحدة ، حيث كان أبلوموف يتلفت بهلع وقلق الى جميع الجهات ، بينما كانت أولغا مطرقة رأسها تماماً الى الأسفل وقد أرخت خمارها .

ـ نلتقي غداً ! ـ قالت أولغا ، بعد أن وصلا الى المخزن ، حيث كان الرجل ينتظر .

ـ كلا ، من الأفضل بعد غد . . . لا ، لا ، من الأفضل يوم الجمعة أو السبت ، ـ

ـ لماذا ؟

ـ لانني اعتقد ياأولغا ، بأن الرسالة قد تصلني حتى ذلك الوقت .

ـ على أية حال ، تعال غداً لنتناول الغداء معاً ، سمعت ؟

ـ أجل ، أجل ، حسنا ، حسناً ! ـ أضاف أبلوموف بسرعة ، ثم دخلت أولغا الى المخزن .

« آه ، يالهي ، الى أي حدّ وصلت الأمور ! أي حجر سقط عليّ فجأة ! ماذا سأفعل الآن ؟ سونتيشكا ! زاخار ! أيها الشبان النيّقون ... »

— ٦ —

لم يلاحظ أبلوموف ، بأن الغداء ، الذي قدّمه له زاخار كان بارداً تماماً ، لم يلاحظ كيف وجد نفسه بعد ذلك في الفراش ، واستغرق في نوم عميق ثقيل .

ارتعد في اليوم التالي من فكرة الذهاب الى أولغا : فقد هاله الأمر ! تصور نفسه والناس ينظرون اليه بصورة معبرة .

فبدون هذا السبب أو ذاك ، يستقبله البواب بلطف زائد في منزل آل إيلينيسكايا ، وسيميون ينطلق مندفعاً ليلبي طلبه ، عندما يريد كأساً من الماء ، وكاتيا والمربية تودعانه بابتسامة صادقة ودية .

« العريس ، العريس ! » — سيقولها الجميع ، في الوقت الذي لم يطلب فيه يد أولغا بعد من عمتها ، وفي الوقت الذي لايملك فيه نقوداً ولايعرف من أين سيحصل عليها ، حتى أنه لايعرف مقدار دخله هذا العام من القرية ، فلا بيت لديه هناك — ياله من عريس ناجح !

قرّر أن يلتقي أولغا في أيام الآحاد فقط ، وبحضور الناس أيضاً ، على أنْ يستمر ذلك حتى يستلم رداً إيجابياً من القرية . لذا ، فانه لم يستعد للذهاب اليها ، عندما أقبل يوم الغد ، موعد لقائه المفترض بها .

لم يحلق ذقنه ، ولم يرتد ملابسه ، بل أخذ يقلّب بكسل صحفاً فرنسية ، كان قد أخذها من منزل آل إيلينسكايا في الأسبوع الفائت ، لم ينظر الى الساعة باستمرار ، ولم يعبس ، لأن عقارب الساعة لاتمضي الى الامام بسرعة .

اعتقد زاخار وأنيسيا ، بأنه كالعادة ، لن يتغدى في البيت ، حتى انهما لم يسألاه ماذا سيحضّران من طعام .

أنّبهما بسبب ذلك ، ثم أعلن بأنه ليس صحيحاً إطلاقاً مايعتقدانه ، بأنه يتناول طعام الغداء عند آل إيلينسكايا في كل يوم أربعاء ، مؤ كداً بأن هذا « افتراء » ، وانه كان يتناول الغداء في مثل هذا اليوم عند إيفان غير اسيموفيتش ، ثم أعلن بعد ذلك ، انه سيتناول الغداء مستقبلاً في البيت باستمرار ، باستثناء بعض أيام الآحاد فقط .

اندفعت أنيسيا راكضة الى السوق من أجل شراء مايفضله سيدها من مواد لتحضّرها له .

جاء أطفال صاحبة البيت لعنده : صحّح لفانيا عمليات الجمع والطرح ، فعثر على غلطتين . ثم سطّر دفتر ماشا وكتب لها خطاً ، وطلب منها أن تكتب مثله .

استمع بعد ذلك الى تغريد الكناري ثم راح ينظر عبر الباب نصف المفتوح ويراقب ساعدي صاحبة الشقة المشمّرين .

في الساعة الثانية ، سألت صاحبة البيت من وراء الباب ، إن كان يرغب بتناول بعض الفطائر . ناولته بعضاً منها ، بالإضافة الى كأس من الفودكا المصنوعة من عنب الثعلب .

هدأ اضطراب إيليا إيليتش قليلاً ، لكن سحابة من السرور والتأمل الكسول سيطرت عليه حتى الغداء .

بعد الغداء مباشرة ، استلقى على الأريكة ، فاستولى عليه النعاس ،

لكن باب الغرفة انفتح فجأة ، ودخلت أغافيا ماتفييفنا ، وهي تحمل هرمين من الجوارب بيديها .

وضعتهما على كرسيين ، فانتفض أبلوموف وقدّم لها الكرسي الثالث ، لكنها لم تجلس . فالجلوس لم يكن من عادتها : فهي دائماً واقفة ، دائماً في حركة وعمل .

ــ لقد جمعت اليوم جواربكم ، ــ قالت صاحبة البيت ، ــ خمسة وخمسون زوجاً ، كلها رديئة تقريباً . . .

ــ كم أنت طيبة ! ــ قال أبلوموف ــ وهو يقترب منها ، ويلمس مرفقها مداعباً .

ضحكت أغافيا ماتفييفنا .

ــ لماذا تزعجين نفسك ؟ فأنا أشعر بالخجل حقاً بسبب ماتفعلين .

ــ هوّن عليك . فهذا عمل بسيط : لايوجد لديك من يقوم به ، ــ تابعت أغافيا ماتفييفنا ، ــ يوجد هنا عشرون زوجاً غير صالحة إطلاقاً .

ــ لاتتعبي نفسك بشيء ، ارمها من فضلك ! لاتشغلي نفسك بها . فسأشتري جوارب جديدة . . .

ــ كيف أرميها ، ولماذا ؟ فهذه يمكن إصلاحها ، ــ ثم أخذت تحصي الجوارب بحيوية .

ــ تفضلي واجلسي ، لماذا أنت واقفة ؟ ــ اقترح أبلوموف .

ــ كلا ، أشكرك جداً ، فلا وقت لديّ للجلوس ، ــ أجابت

وهي تعتذر من جديد عن الجلوس . ــ اليوم عندي غسيل : فيجب أن أنجز عملي .

ــ إنك معجزة،لاربة بيت ! ــ قال أبلوموف وهو يثبّت نظره على عنقها وصدرها .

ضحكت .

ــ ماذا قلتم ، هل أرفأ الجوارب ؟ ــ سألت صاحبة البيت ، ــ فسأوصي على خيطان وقماش قطني . فمثل هذه الأشياء ، تجلبها لنا عجوز من القرية ، لأن شراءها هنا عبث ، لأنها رديئة .

ــ اعملي معروفاً ، لكني أشعر بالخجل حقاً من هذا الإزعاج .

ــ "هوّنْ" عليك ، هل هذا أمر يتطلب العناء ! هذه سأصلحها بنفسي ، وهذه سأعطيها للجدة ، غداً ستأتي أخت زوجي لزيارتنا : فهي لن تفعل شيئاً في الأمسيات ، وستساعدني . ابنتي ماشا بدأت تتعلم الحياكة أيضاً ، لكن الصنارة كبيرة بالنسبة ليديها .

ــ هل يعقل ، أن ماشا تعرف الحياكة ؟ ــ سأل أبلوموف .

ــ أقسم ، أن هذا حقيقة .

لا أعرف كيف أشكرك ، ــ قال أبلوموف وهو ينظر اليها بمتعة كتلك التي كان ينظر بها الى الفطائر الساخنة صباحاً . ــ فأنا شاكر لك جداً ، جداً ، وسأردّ هذا الجميل ، وخاصة لماشا : سأشتري لها فساتين من الحرير ، وسأجعلها تبدو كالدمية في بهائها .

ــ ماذا تقول ؟ وهل هذا يستحق الشكر؟ماحاجتها بفساتين الحرير:
فحتى فساتين البفتة تخرّبها بسرعة . وكذلك الأحذية .

نهضت ثم أخذت الجوارب

ــ الى أين مستعجلة الى هذا الحد ؟ . اجلسي ، فأنا لستمشغولاً .

ــ في وقت آخر ، في العيد ؛ نأمل أن تشرّفنا بزيارتك لتناول القهوة . أما الآن ، فالغسيل بانتظاري . سأذهب لأرى ، إن كانت أكولينا قد بدأت ؟ . . .

ــ أتمنى لك التوفيق ، فأنا لاأجرؤ على تأخيرك ، ــ قال أبلوموف مقتفياً بنظره ظهرها ومرفقيها .

ــ لقد أخرجت رداءك أيضاً من الصندوق ، ــ تابعت أغافيا ماتفييفنا . ــ يمكن إصلاحه وغسله : فقماشه رائع ! سيمضي زمن طويل قبل أن يهتري .

ــ عبثاً ! فقد أقلعت عنه ، ولن ألبسه ، فأنا لم أعد بحاجة إليه .

ــ ومع ذلك ، سأغسله : ربما ستلبسه في وقت من الأوقات . . . في العرس مثلاً ! أكملت كلامها وهي تضحك ، ثم أغلقت الباب .

طار النعاس من عينيه فجأة ، فانفتحت عيناه ، وأصبح سمعه مرهفاً .

ــ إنها تعرف كل شيء ! ــ قال أبلوموف وقد تهاوى على الكرسي ــ . زاخار ، زاخار آه منك !

انهالت الكلمات « المؤسفة » ، أي كلمات التحقير على زاخار من جديد،وبدأت أنيسيا تتكلم من أنفها،وتقول « بأنها لأول مرة تسمع عن لسان صاحبة البيت حديثاً عن الزواج والعرس ، وأن أحاديثهما لم تتضمن أية إشارة أو تلميح الى هذا الموضوع ، وأن صاحبة البيت لاتعرف شيئاً عن الآنسة إيلينسكايا ، حتى أنها لم تسمع بها ، ولابد أنها كانت تقصد عروساً أخرى . . . »

تكلمت أنيسيا طويلاً حول هذا الموضوع ، لدرجة أن إيليا إيليتش أشار اليها بيده كي تسكت . في اليوم التالي ، حاول زاخار أنْ يحصل على موافقة سيده للقيام بزيارة المنزل القديم الكائن في شارع غوروخف ، لكن أبلوموف أنّبَهُ ورفض تلبية طلبه .

ــ الناس لايعرفون هناك شيئاً بعد عن الموضوع ، وأنت تريد أن تنشر الإشاعة .

اجلس هنا ، وإياك أن تغادر هذا البيت ! ــ أضاف أبلوموف متوعداً .

مضى يوم الاربعاء . تلقى أبلوموف من جديد ، في يوم الخميس رسالة من أولغا ، حملها اليه ساعي البريد ، تتساءل فيها عما جرى له ، وعن السبب الذي حال دون مجيئه اليها . أخبرته أولغا في رسالتها . بأنها بكت الليل كله ، ولم تذق طعم النوم تقريباً .

ــ لم يعرف هذا الملاك طعم النوم ! ــ هتف أبلوموف ــ . يالهي لماذا تحبني ؟ لماذا أحبها ؟ لماذا التقينا وتعارفنا ؟ كل هذا بسبب أندريي :

لقد أصابتنا علوى الحب . أية حياة هذه ، فكلها مليئة بالإضطراب والقلق ! متى ستأتي السعادة الهادئة ، متى سيحلّ الإطمئنان والهدوء ؟

استلقى وهو يطلق زفرات قوية ، ثم نهض ، حتى أنه خرج الى الشارع متأملاً ، باحثاً عن مقاييس حياتية ، تسمح له أن يعيش بهدوء وسكينة، في ظل حياة تجري فيها الأيام بوتيرة واحدة، في ظل حياة يجري فيها الزمن قطرة قطرة ، في ظل حياة ساكنة يلفها الهدوء ، يتأمل فيها بصمت الطبيعة المحيطة به ، دون أن تعكّر صفو عيشه مشاغل الحياة المنزلية وهمومها . فهو لم يكن يريد مطلقاً أن يجري نهر الحياة صاخباً ، زاخراً بالأمواج ، كما يتصوره شتولتس .

ــ هذا مرض ، حمى ، تجاوز للحدود ، خرق للسدود، طوفان ،ـ قال أبلوموف ـ .

كتب الى أولغا ، بأن البرد قد أصابه في الحديقة الصيفية قليلاً ، لذا فقد كان مضطراً لأنْ يغلي بعض الأعشاب ويشرب ماءها ، ويلازم البيت يومين ، وانه الآن قد تحسّن ، وهو يأمل أن يراها يوم الأحد .

أرسلت اليه جواباً أثنت فيه على حسن تصرفه واهتمامه بصحته ، ونصحته بأن يلازم البيت يوم الاحد أيضاً ، اذا مارأى ذلك ضرورياً ، وأضافت بأنه من الأفضل بالنسبة لها أن تتحمل معاناة بُعده عنها أسبوعاً آخر ، من أن تنتكس وتسوء صحته .

حمل الجواب اليه نيكيتا ، وهو الشخص الذي قالت عنه أنيسيا

بأنه المسؤول عن الثرثرة ، التي حدثت بشأن موضوع العرس . كان يحمل أيضاً بعض الكتب المرسلة من أولغا ، مع رجاء لأبلوموف بأن يقرأها ويبلغها رأيه أثناء لقائهما المقبل ، إن كانت تستحق عناء القراءة .

طلبت أولغا من أبلوموف أيضاً ، موافاتها بجواب يشرح لها فيه وضعه ويطمئنها عن أحواله الصحية .

كتب أبلوموف الجواب وأعطاه بنفسه الى نيكيتا ، كما صحبه الى فناء المنزل وراح يراقبه بنظره حتى أصبح خارجه . فعل أبلوموف ذلك كله خشية أن يعرّج نيكيتا على المطبخ ، ويكرّر هناك « الوشاية » ، ومن أجل ألا يذهب زاخار لمرافقته حتى الشارع .

سُرّ أبلوموف لاقتراح أولغا المتعلق بصيانة صحته وبعدم المجيء يوم الأحد ، وكتب إليها ، بأنه من الضروري حقاً أن يلازم البيت بضعة أيام أيضاً من أجل أن يتماثل للشفاء تماماً .

قام بزيارة صاحبة البيت يوم الأحد ، وتناول القهوة ، وأكل بعض الفطائر الساخنة ، وعند الغداء أرسل زاخار الى حيّ في الناحية الأخرى من أجل شراء البوظة والسكاكر لطفلي أغافيا ماتفييفنا .

رجع زاخار بعد جهد جهيد الى ضفة النهر ، التي يقع عليها منزل أغافيا ماتفييفنا ، فالجسور كانت قد رفعت ، ونهر النيفا كان على وشك أن يتجمد . أصبح مستحيلاً على أبلوموف أن يفكر بالذهاب الى أولغا يوم الاربعاء .

كان ممكناً بالطبع أن يصل الآن الى ضفة النهر الأخرى ، ويقيم

بضعة أيام عند إيفان غيراسيموفيتش ، ويتواجد يومياً عند أولغا .

الحجة مشروعة : كان موجوداً على ضفة النهر الأخرى ، ولم يتمكن من العودة الى شقته .

كانت هذه الفكرة أول ماداعبت ذهن أبلوموف ، فأنزل ساقيه بسرعة الى الأرض ، لكنه تفكر قليلاً ، ثم استلقى من جديد ببطء وقد بدا وجهه مهموماً ، وأطلق زفرة .

« كلا ، فلتسكت الأقاويل والشائعات ، ولينسه زوار منزل أولغا قليلاً ، وليشاهدوه هناك يومياً عندما يعلن على الملأ نبأ خطوبته على أولغا »

ــ كم هو مملّ الإنتظار ، لكن لاحيلة في اليد ، ــ أضاف أبلوموف متنهداً ، ثم تناول الكتب ، التي أرسلتها أولغا .

قرأ خمس عشرة صفحة . جاءت إليه ماشا تدعوه للذهاب الى نهر النيفا :

الجميع ذاهبون ليروا كيف أصبح النهر . ذهب ثم عاد وقت موعد الشاي .

أخذت الايام تتالى . كان إيليا إيليتش يشعر بالضجر ، فيقرأ ، ويتمشى في الشارع ، وأثناء وجوده في البيت كان يرمق صاحبة البيت بنظراته عبر الباب ، كي يتبادل معها بضع كلمات ليكسر جدار الملل . حتى أنه طحن لهاذات مرة كمية من القهوة ، باذلاً الكثير من الجهد لدرجة أنّ جبينه قد تبلّل بالعرق .

أراد أنْ يعطيها كتاباً لتقرأه . حرّكت شفتيها ببطء وقرأت العنوان

ثم أعادت له الكتاب قائلة بأنها ستأخذه ثانية مع حلول عيد الميلاد ، وسترغم فانيا على أنْ يقرأه بصوت مسموع ، كي تسمعه جدته أيضاً ، أما الآن فلا وقت لديها لذلك .

في هذه الأثناء ، كانت حركة العبور على نهر النيفا عبر الجسور ، قد أعيدت . ذات مرة كان نباح الكلب ومحاولته الإفلات من الجنزير ، بمثابة إعلان عن قدوم نيكيتا ، الذي كان يحمل كتاباً ورسالة تتضمن استفساراً عن صحة أبلوموف .

كان أبلوموف يخشى اجتياز الجسور الى الجانب الآخر من النهر ، لذا فقد توارى كي لايراه نيكيتا ، وكتب جواباً يقول فيه ، بأنّ ورماً صغيراً قد برز في رقبته ، لذا فانه لايستطيع مغادرة البيت ، وانّ « القدر القاسي قد حرمه من سعادة رؤية محبوبته أولغا ، بضعة أيام أخرى » .

أوصى زاخار كثيراً كي لايثرثر مع نيكيتا إطلاقاً ، كما شيّع الأخير بنظرة حتى السياج ، بينما هدّد أنيسيا بحركة من إصبعه ، عندما أطلّت بأنفها من المطبخ ، وهي تريد أنْ تسأل نيكيتا شيئاً ما .

— ٧ —

مضى أسبوع . ماإن استيقظ أبلوموف صباحاً ، حتى سأل بلهفة مستفسراً ، إنْ كانت الجسور قد نصبت .

ــ كلا ، لم تُنصَبْ بعد ، ــ كان الردّ على سؤاله ، ثم أمضى اليوم بهدوء ، وهو يصغي الى دقات رقاص الساعة ، والى قرقعة طاحونة القهوة ، والى تغريد الكناري .

الصيصان لم تعد تصأصيء ، فقد أصبحت منذ زمن بعيد دجاجات هرمة ، تختبيء في الخم . الكتب التي أرسلتها أولغا ، لم يكمل قراءتها : فالصفحة الخامسة بعد المائة التي توقف عندها ، لاتزال مفتوحة كما تركها منذ أيام عدة .

أما الوقت فغالباً مايمضيه باللعب مع طفلي صاحبة الشقة . ففانيا صبي فطن ، استطاع بثلاث مرات أنْ يحفظ أسماء المدن الرئيسية في أوروبا .

وعده إيليا إيليتش بأن يهديه نموذجاً صغيراً للكرة الارضية ، بمجرد أنْ يذهب الى الجهة الأخرى للنهر ، أما ماشنكا فقد أعدّتْ له ثلاثة مناديل – صحيح أنها رديئة . لكن الطفلة بالمقابل ، كانت تعمل جادّةً بيديها الصغيرتين ، بطريقة تبعث على الضحك ، وهي تركض إليه في كل مرّة تنجز فيها قطعة صغيرة ، لتريه ماأنجزته من عمل .

كان أبلوموف يتحدّث باستمرار الى صاحبة الشقة ، بمجرد أن يلمح مرفقيها عبر الباب نصف المفتوح ، وأصبح يميّز من حركة المرفقين نوعية العمل ، الذي تقوم به .

حتى أنه حاول التحدث إلى الجدة الطاعنة في السن ، لكنها لم تستطع بحالٍ من الأحوال ، أنْ تنهي حديثها : فهي تتوقف في منتصف الكلمة ، وتسند قبضتها على الجدار ، وتنحني ، وتبدأ نوبة السعال القوي الحاد ، ثم تتأوه بعد ذلك – وهكذا ينتهي الحديث .

الشخص الوحيد ، الذي لم يكن يراه مطلقاً هو أخ صاحبة الشقة ، وفي بعض الأحيان كان أبلوموف يلمح صرته الكبيرة من خلال النافذة

لكنّ وجوده في البيت لم يكن يلاحظ . فحتى عندما دخل أبلوموف «صادفة» ، الغرفة ، التي يتناول فيها سكان البيت طعامهم ، فانّ أخ صاحبة الشقة مسح شفتيه بأصابعه بسرعة ، ثم توارى في غرفته الكائنة في ركن منعزل في الأعلى .

ذات مرة ، ما إن استيقظ أبلوموف صباحاً ، وبدأ بتناول القهوة ، حتى أبلغه زاخار بأنّ الجسور قد نصبت . بدأ قلب أبلوموف يخفق .

ــ يوم غد هو الأحد ، ــ قال أبلوموف ، ــ يجب أن أذهب الى أولغا ، وأتحمّل بشجاعة ، طوال اليوم نظرات الآخرين الفضولية المعبّرة . ثم يخبرها عن عزمه على التحدث الى عمتها . لكنه لايزال غير قادر على أنْ يتحرك خطوة واحدة الى الامام في هذا الإتجاه .

كان سروره عظيماً وهو يتخيل بانتعاش بأنه قد اصبح عريساً ، وفي اليوم التالي والثالث يتوافد الرجال والسيدات من كل حدبٍ وصوب لتهنئته ، ويصبح فجأةً موضوعاً للإهتمام والفضول ، وتقام على شرفه الولائم ، وتشرب في صحته الأنخاب . وبعدها . . . بعدها يستخدم حق العريس وواجبه ، ويقدم الى عروسه هدية . . .

ــ هدية ! ــ أسرّ أبلوموف لنفسه بهلع ، ثم انفجر في ضحك مرير .

ــ هدية ! لكنه لايملك إلا مئتي روبل فقط ! قد يستلم نقوداً مع

حاول عيد الميلاد ، وربما بعده ، بيد أن المبلغ الذي سيستلمه لايزال مجهولاً بالنسبة له على أية حال ، فالرسالة ستوضح كل شيء ، لكن الرسالة تأخرت . ماالعمل ؟ ماذا أتصرف ؟ وداعاً أيها الهدوء الرائع ، الذي استمر أسبوعين !

في هذه الأثناء ارتسم امامه طيف أولغا الرائع ، بحاجبيها الأزغبين الناطقين ، وبعينيها الشهلاوين الذكيتين ، ورأسها الجميل ، وضفائر شعرها الطويلة ، التي تضفي على قامتها الهيفاء المشوقة ، وعلى هيئتها كلها البهاء والروعة .

لكن ، ماإن يخفق قلبه حباً وطرباً ، حتى تسقط عليه كالحجر ، فكرة مضنية ثقيلة : ماذا يتصرف ، ماذا يفعل ، كيف يوفّر متطلبات الزواج المادية ، كيف يؤمّن النقود ، وكيف سيعيش بعد ذلك ؟

« سأنتظر أيضاً ، لعل الرسالة تأتي غداً أو بعد غد » . أخذ يحسب كم من الوقت سيمضي قبل أنْ تصل رسالته الى القرية ، كم من الوقت سيؤخرّها جاره هناك ، وكم من الوقت سيمضي حتى يرسل رداً .

« لابدّ أنْ يصل الرّدّ خلال ثلاثة أو أربعة أيام ، سأرجىء مسألة الذهاب الى أولغا » ، — قرر أبلوموف ، خاصّةً أنها قد لاتكون عرفت بعد ، بأنّ الجسور نصبت . . .

— كاتيا ، هل نُصبت الجسور ؟ — سألت أولغا وصيفتها في الصباح ذاته ، بمجرّد أنْ استيقظت .

كان هذا السؤال يتكرر يومياً . لكنّ أبلوموف لم يكن يفترض ذلك إطلاقاً .

— لاأعرف ياسيدتي ، لم أر بعد أي حوذي أو بوّاب ، كما أنّ نيكيتا لايعرف .

— انك تجهلين دائماً كل ماهو ضروري بالنسبة لي ! — قالت أولغا بامتعاض ، وهي مستلقية في الفراش ، تتفحّص السلسلة الموجودة حول عنقها .

— سأتأكد الآن ياسيدتي . فأنا لم أجرؤ على الإنصراف ، لأني اعتقدت بأنك ستستيقظين ، وإلا لكنت قد ذهبت منذ بعض الوقت . — ثم خرجت كاتيا من الغرفة .

سحبت أولغا دِرْج الطاولة الصغيرة وأخرجت منه رسالة أبلوموف الأخيرة .

« مسكين ، إنه مريض ، — فكرت أولغا باهتمام ، — إنه يتألم هناك وحيداً . . . آه ياإلهي ، متى سأراه . . . » .

وقبل أن تكمل فكرتها ، كانت كاتيا تدخل الغرفة مندفعةً ، وقد تورّد وجهها .

— الجسور نصبت اليوم ! — قالت بسرور ثم هرعت بسرعة لملاقاة سيدتها التي وثبت من فراشها ، فوضعت عليها سترةً ، وقدّمت لها خفاً صغيراً جداً . سحبت أولغا الدرج بسرعة وأخرجت منه شيئاً ما وضعته في يد كاتيا ، فما كان من الأخيرة إلا أن قبّلت يد سيدتها .

فكلّ ذلك : الوثبة من الفراش ، ووضع قطعة النقود في يد كاتيا ، وتقبيل يد أولغا — تمّ في لحظة واحدة .

« آه ، غداً هو يوم الأحد : كم هذا مناسب ؟ سيأتي ! » — قالت أولغا متفكرة ، ثم ارتدت ملابسها بنشاط ، وتناولت الشاي بسرعة وذهبت مع عمتها الى المخزن .

— فلنذهب ياعمتي غداً الى كنيسة سمولني ، — قالت أولغا .

اتسعت عينا عمتها قليلاً ، ثم فكرت ، وقالت :

— ربما نفعل ذلك ، لكنها بعيدة ياعزيزتي ! كيف خطر لك ذلك ، خاصةً في مثل هذا الشتاء !

خطر ذلك ببال أولغا ، لأنّ أبلوموف دلّها على تلك الكنيسة عندما كانا في القارب ، متملكتها الرغبة بأن تصلّي فيها من أجله ، كي يمنحه الله الصحة والسعادة ، ولكي يزداد حبه لها رسوخاً ، ومن أجل أنْ يضع الله حداً لتردّده . . . مسكينة أولغا !

أقبل يوم الأحد . استطاعت أولغا أنْ تُعِدّ الغداء حسب مذاق أبلوموف .

ارتدت أولغا فستاناً أبيض ، ووضعت السوار ، الذي أهداها إياه على معصمها ، وسرّحت شعرها بالطريقة التي يحب ، وأعدّت البيانو وجرّبت أنْ تغني منذ الصباح أغنية العذراء الطاهرة . كان صوتها رنّاناً عذباً ، كما كان تماماً عندما غنّت في المنزل الصيفي . ثم أخذت تنتظر .

شاهدها البارون على هذه الحال ، وقال بأنها ازدادت جمالاً ، لكنها نحفت قليلاً .

ــ فعدم توفر هواء القرية النقي ، والتغير الذي طرأ على أسلوب حياتك هنا ، قد أثر عليك بشكل ملحوظ ــ قال البارون ــ . فما يلزمك ياعزيزتي أولغا سيرغييفنا ، نسيم الحقول والقرية .

قبّل يدها بضع مرات ، لدرجة أن شاربيه المصبوغين قد تركا بقعة صغيرة على أصابعها .

ــ أجل ، إنني بحاجة للقرية ، ــ أجابت أولغا متأملة ، لكن جوابها لم يكن موجهاً اليه ، بل لأحدٍ ما آخر .

ــ على ذكر القرية ، ــ أضاف البارون قائلاً ، ــ فإن قضيتك ستنتهي في الشهر المقبل ، وفي نيسان تستطيعين أن تذهبي الى أملاكك . صحيح أنها ليست كبيرة ، لكن موقعها رائع ! ستكونين مسرورة . ماأروع بيتك هناك ! ماأروع الحديقة ! يوجد جناح منه على رابية ستحبّينه .

المشهد يطل على النهر . . . إنك لاتتذكرين تلك الإطلالة ، فعمرك لم يكن يتجاوز الخامسة عندما انتقل والدك من هناك وأخذك معه .

ــ آه ، كم سأكون مسرورة ! ــ قالت أولغا ، ثم استرسلت في التفكير .

« لقد تقرّر كل شيء الآن ، ــ فكرت أولغا ، ــ سنذهب الى هناك ، لكنه لن يعلم بذلك قبل أن . . . » .

ـ في الشهر المقبل إذن يابارون ؟ ـ سألت بحيوية . ـ هل هذا صحيح ؟

ـ صحيح إنك رائعة بوجه عام ، لكنك تبدين اليوم أكثر روعة ، ـقال البارون ـ، ثم ذهب الى عمتها. ظلت أولغامكانها وراحت تحلم بسعادتها القريبة ، لكنها قررت ألاّ تبوح لأبلوموف بهذا الخبر ، ولا بمخططاتها المستقبلية .

كانت تريد أنْ تتابع حتى النهاية كيف سيُحْدِثُ الحب تحوّلاً في روحه الكسولة ، وكيف سينفض عنه غبار الكسل والتردّد ، ويقف فرحاً مشدوهاً أمام سعادته القريبة ، عندما يستلم رداً مُرْضياً من القرية فيركض إليها متألقاً مشرقاً ويضعه عند قدميها ، ثم يتسابقان الى عمتها ، وبعدها . . .

بعدها ستقول له ، بأنّ لها قرية أيضاً ، وحديقة ، وجناحاً مطلاً على النهر ، ومنزلاً جاهزاً للسكن يمكنهماأنْ يذهبا إليه فوراً ، ومن ثم الى أبلوموفكا .

« كلا ، لاأريد جواباً مُرْضياً ، ـ تفكرت أولغا ، ـ لأنه سيتباهى عندئذ ولن يشعر بالسرور عندما سيعرف أنّلديّ منزلاً وحديقة. كلا ، من الأفضل أنْ يستلم رسالة مزعجة ، غير سارة ، يخبره فيها مرسلها بضرورة ذهابه شخصياً الى القرية لتنظيم شؤونه .

فيذهب الى أبلوموفكا مندفعاً ، ويصدر أوامره بسرعة ، كيفما اتفق ، فينسى الكثير من الأمور الهامة ويعود بسرعة ، ثم يعرف فجأة ،

بأنّ ذهابه الى أبلوموفكا لم يكن ضرورياً . فهي تملك حديقة وجناحاً مُطِلاً على النهر ومنزلاً جاهزاً للسكن ، يمكنهما العيش فيه دونما حاجة لأبلوموفكا . . . أجل ، أجل ، فهي لن تخبره بذلك مهما كلف الأمر ، وستتمالك نفسها حتى النهاية ؛ فليسافر الى هناك ، فليتحرك ، فليتنعش ، فليبذل الجهد من أجل السعادة المقبلة ! لكن ، لماذا أُرسِله الى القرية لنبتعد عن بعضنا ؟ كلا ، فعندما يأتي لوداعها شاحباً حزيناً ، وهو يرتدي ثياب السفر ، عندها ستقول له فجأة بأنْ لاداعي للسفر قبل حلول الصيف : فيسافران عندئذ معاً . . . » .

هكذا كانت أولغا تحلم ، ثم هرعت إلى البارون ، وحذّرته بأسلوب لبق كي لايخبر الأمر لأحد قبل الأوان ، فأجابها بأنه لن يقول شيئاً لأيٍّ كان . كانت أولغا تعني بعبارة أيٍّ كان ، أبلوموف طبعاً .

ــ لكنْ ، هل يمنع أنْ أخبر المسيو أبلوموف فقط . . .

تمالكت أولغا نفسها وقالت بلا اكتراث :

ــ كلا ، الأمر ينطبق عليه أيضاً .

ــ أنت تعرفين ، انّ رغبتك هي بمثابة قانون بالنسبة لي . . . ــ أضاف البارون بلطف .

لم تكن أولغا بدون دهاء ، فاذا ماأرادت أنْ ترمق أبلوموف بنظرة في وجود الضيوف ، فانها تنظر أولاً وبالتأكيد الى ثلاثة آخرين ، ثم تنظر إليه بعد ذلك .

كم من التصورات داعبت مخيلتها ــ من أجل أبلوموف ! كم مرة

احمرّت وجنتاها ! كم مرّةً جرّبت فيها مفاتيح البيانو ، لتتأكد من سلامة دوزنته ، كي تخرُج الألحان رائعة ! ومع ذلك لم يأت ! ماذا يعني ذلك ؟

مضت ساعتان ، ثلاث ، أربع — لكنه لم يأت — ! في الساعة الرابعة والنصف بدأ "جمّال أولغا يبهت : أخذت تذبل بشكل ملحوظ ، ثم جلست الى الطاولة وقد امتقع وجهها .

لكنّ الآخرين لم يلاحظوا شيئاً — كانوا يأكلون الأطعمة ، التي أعدّت خصيصاً من أجل أبلوموف ، ويتحدثون بسرور وعدم مبالاة .

انقضى الغداء ، وأقبل المساء ، لكنه لم يأت . حتى الساعة العاشرة ، كان اضطرابها ناجماً عن الأمل والقلق : في الساعة العاشرة مضت الى حجرتها .

في البداية ، صبّت على رأسه ، ذهنياً ، كل المرارة وخيبة الأمل ، التي عصرت قلبها : فلم تترك كلمة سخرية مرّة ، يلخر بها قاموس مفرداتها ، إلا واستخدمتها ذهنياً ضده .

أحسّتْ ، كأنّ جسدها كله يحترق ، ثم شعرت بعد ذلك بأنه أصبح بارداً كالثلج .

« إنه مريض ، إنه وحيد هناك ، حتى انه لايستطيع الكتابة ، فقد أعياه المرض . . . » — التمعت في ذهنها هذه الأفكار .

تملكتها هذه القناعة تماماً ولم تستطع النوم طوال الليل . كانت تغفو غفوات قصيرة متقطعة وتستيقظ قلقة مضطربة ، ثم تعود لتنام قليلاً ، ثم

تهذي وتستيقظ من جديد ملهوفة متعبة . ومع أنها كانت ممتقعة شاحبة عندما استيقظت في الصباح ، إلا أنها بدت هادئة ثابتة العزم .

في صباح يوم الإثنين دخلت صاحبة البيت حجرة أبلوموف وقالت : هناك فتاة تسأل عنك .

ـ عني ؟ مستحيل ! ـ أين هي ؟

ـ انها موجودة هنا : فقد أخطأت ، ودخلت عتبتنا . أأسمح لها بالدخول ؟

لم يكن أبلوموف يعرف بعد ، ماسيتخذ من قرار ، عندما رأى كاتيا قد أصبحت امامه . فما كان من صاحبة البيت إلا أن انصرفت .

ـ كاتيا ! ـ قال أبلوموف بدهشة . ـ كيف حالك ؟ ماذا جرى ؟

ـ سيدتي هنا ، ـ أجابت هامسة ، ـ طلبت مني أن أسأل . . .

تغيّرت ملامح أبلوموف

ـ أولغا سيرغييفنا ! ـ همس أبلوموف مذعوراً . ـ ليس صحيحاً ياكاتيا ، هل تمزحين ؟

لاتعذبيني !

ـ أقسم ، أنّ ماأقوله صحيح : إنها في العربة.تنتظر عند المخزن ، فهي تريد القدوم الى هنا . أرسلتني لأقول لك ، بأنْ ترسل زاخار الى مكان ما خارج البيت . فهي ستصل بعد نصف ساعة .

ـ من الأفضل أن أذهب بنفسي . كيف يمكنها المجيء الى هنا ؟ ـ قال أبلوموف .

ـ لن تلحق : فهي ستصل بين لحظة وأخرى ، إنها تعتقد بأنك مريض . وداعاً . سأذهب إليها حالاً : فهي تنتظرني هناك لوحدها . . .

ثم انصرفت كاتيا .

ارتدى أبلوموف بسرعة غير معهودة السترة وربطة العنق ، وانتعل حذاءه ثم صاح لزاخار .

ـ زاخار ، لقد رجوتني منذ فترة غير بعيدة بأنْ تذهب الى الجهة الأخرى من النهر ، لزيارة المنزل الذي كنا نسكن فيه ، في شارع غوروخف ، إذهبِ الآن ! قال أبلوموف باضطراب محموم .

ـ لن أذهب ، ـ أجاب زاخار بحسم .

ـ كلا ، اذهب ! ـ قال أبلوموف باصرار .

ـ ماذا أفعل هناك في مثل هذا اليوم ؟ لن أذهب ! ـ قال زاخار بعناد ،

ـ اذهب وروّح عن نفسك ، ولاتعاند ، فأنا أريدك أنْ تكون مسروراً . . .

هيّا ، اذهب الى أصدقائك !

ـ دعني من أصدقائي !

ـ ألاترغب بأنْ تراهم ؟

ـ إنهم أنذال ، لاأريد أنْ أراهم الآن !

ـ هيا ، اذهب ، اذهب ! ـ أصرّ أبلوموف وقد بدا عليه التهيّج

ـ كلا ، سأمضي اليوم كله في البيت ، ربما سأذهب إليهم يوم الأحد ! ـ أجاب زاخار بشيء من عدم الإكتراث .

ـ اذهب الآن فوراً ! ـ استعجله أبلوموف باضطراب ـ ينبغي عليك أنْ . . .

ـ تريد أنْ أقطع الآن سبعة فراسخ ؟ ـ قال زاخار .

ـ هيا ، اذهب وتنزّه ساعتين من الزمن : انظر الى نفسك ، فسحنتك يبدو عليها النعاس ـ اذهب واستنشق الهواء !

ـ سحنتي عادية لاتختلف عن سحنات الآخرين ! ـ قال زاخار وهو ينظر الى النافذة بكسل .

« آه يالهي ، لم يبقَ على وصولها إلا القليل ! » ـ أسرّ أبلوموف لنفسه ، وهو يمسح العرق عن جبينه .

ـ اذهب من فضلك ، وتنزّهْ بعض الوقت ، أرجوك ! خذ هاتين القطعتين النقديتين واشرب بيرة مع صاحبك .

ـ من الأفضل أنْ أبقى عند العتبة هنا : الى أين سأذهب في صقيع كهذا ؟ سأجلس هنا ، عند البوّابة ، فهذا ما أستطيع أنْ . . .

ـ كلا ، ستذهب الى مكانٍ أبعد من البوّابة ، ـ قال أبلوموف بحيوية ، ـ اذهب الى الشارع الكائن على الجهة اليسرى من الحديقة .

« ماأغرب ذلك ! ـ تفكّر زاخار ، ـ يرغمني بأنْ أتنزّه ، هذا أمر جديد ، لم يحدث من قبل » .

ـ من الأفضل أنْ أتنزّه يوم الأحد ياسيدي . . .

- ألن تذهب ؟ - قال أبلوموف بغيظ ، وقد نفذ صبره .

انصرف زاخار أما أبلوموف فنادى أنيسيا .

- اذهبي الى السوق ، - قال أبلوموف مخاطباً أنيسيا ، - واشترِ شيئاً ما من أجل الغداء . . .

- لقد اشتريت كل شيء من أجل الغداء ، سيكون الغداء جاهزاً قريباً . . . . - تكلمت من أنفها .

- اسكتي واسمعي ! - صاح أبلوموف ، فخافت أنيسيا .

- اشترِ . . . ولو هليون . . . - تابع أبلوموف ، وهو لا يعرف ماذا يبتكر من ذريعة ، كي يرسلها الى السوق .

- أين أعثر على الهليون في هذا الوقت ياسيدي ؟ فلن أجده مهما بحثت . . . .

- اذهبي ! - صرخ أبلوموف فولّت أنيسيا هاربة - إياك أنْ تعودي قبل الساعة الثانية .

- ماهذه الأعجوبة ؟ - قال زاخار لأنيسيا ، - وقد التقاها صدفةً عند البوابة - .

طردني لأتنزّه ، وأعطاني قطعتين نقديتين . الى أين أذْهب لأتنزّه ؟

- هذا أمر يخصّ سيدي ، - لاحظت أنيسيا - . اذهب الى أرتيم سائق الكونت وقدّم له الشاي على حسابك ، فهو يدعوك دائماً لتناول الشاي ، أما أنا فسأذهب الى السوق .

ـ ماهذه الأعجوبة ياأرتيم ؟ ـ قال زاخار له أيضاً . ـ لقد طردني كما أعطاني نقوداً لأشرب بيرة . . .

ـ حسن يازاخار ، هيا بنا !

ـ أومأ لزاخار برأسه كي يذهبا الى شارع بالقرب .

ـ هيا ! ـ كرر زاخار وهو يشير برأسه أيضاً الى الشارع ذاته

ـ يالها من أعجوبة ! ـ غمغم زاخار وهو يبتسم .

ذهب زاخار وأرتيم ، أما أنيسيا فركضت حتى وصلت الى سياج من الأغصان المجدولة ، وراحت تنتظر لترى ماسيحدث .

كان أبلوموف ينصت الى كل صوتٍ وهو ينتظر . أحدٌ ما وصل إلى سياج المنزل ، فابتدأ في اللحظة ذاتها نباح الكلب وقرقعة السلسلة .

ـ ياله من كلب ملعون ! صَرَّ أبلوموف على أسنانه ، وخطف سدارته واندفع باتجاه السياج ، ففتح الباب وأخذ أولغا في أحضانه تقريباً حتى العتبة .

كانت لوحدها . أما كاتيا فقد ظلت تنتظرها في العربة بالقرب من البوّابة .

ـ كيف صحتك ؟ هل أنت مريض ؟ ماذا جرى لك ؟ ـ سألت أولغا بسرعة ولهفة ، دون أنْ تنزع قبعتها أو معطفها وأخذت تتفحصه من قدميه حتى رأسه عندما دخلا الحجرة .

ـ لقد تحسنت الآن ، فالورم زال من رقبتي تماماً ، ـ قال أبلوموف وهو يتلمّس رقبته ، ثم سعل سعالاً خفيفاً .

ـ لماذا لم تأتِ البارحة ؟ ـ سألت أولغا ، وهي تلقي عليه نظرة ثاقبة مستطلعة ، فلم يستطع أنْ ينطق كلمة واحدة .

ـ أولغا ، كيف أقدمت على مثل هذا التصرف ؟ ـ قال أبلوموف بهلع ـ. هل تدركين ماتفعلين . . .

ـ سنتحدث عن هذا فيما بعد ! ـ قاطعت أولغا بفارغ الصبر ـ . أسألك لماذا لم تأت ؟

صمت أبلوموف .

ـ هل ظهر شحاذ العين ؟ ـ سألت أولغا

ظلّ أبلوموف صامتاً .

ـ لم تكن مريضاً ، ولم تؤلمك رقبتك ، ـ قالت أولغا وهي تقطّب حاجبيها .

ـ لم أكن مريضاً ، ـ أجاب أبلوموف بصوت تلميذ .

ـ خدعتني ! ـ نظرت إليه بدهشة . ـ لماذا ؟

ـ سأشرح لك كل شيء ياأولغا ، ـ قال مبرّئاً نفسه ، ـ هنالك سبب هام منعني من الذهاب إليك فترة اسبوعين . . . كنت أخشى . . .

ـ ماذا كنت تخشى ؟ ـ سألت أولغا وهي تجلس وتنزع قبعتها ومعطفها .

أخذ المعطف والقبعة ووضعهما على الاريكة .

ـ الأقاويل والإشاعات . . .

ــ لم تخش بأنني لم أنم الليل كله فقد كدت أنْ أمرض ، ــ قالت أولغا وهي تلقي عليه نظرة فاحصة .

ــ إنك لاتعرفين ياأولغا ، ماذا يجري هنا ، ــ قال أبلوموف وهو يشير الى قلبه ورأسه ، ــ فأنا قلق مضطرب ، كأني على نار . ألا تعرفين ماذا جرى ؟

ــ ماذا جرى أيضاً ؟ ــ سألت ببرود ؟

ــ ذهبت الأقاويل مذهباً بعيداً عنيّ وعنك ! لم أكن أريد ازعاجك وخشيت أنْ أراك .

روى لها كل ماسمعه من زاخار وأنيسيا ، وتذكر حديث الشابين أثناء حفلة الأوبرا ، ثم ختم كلامه قائلاً بأنه لايعرف طعم النوم منذ ذلك الوقت ، وانه يرى كل نظرة استفساراً ولوماً ، أو تلميحات خبيثة ماكرة الى لقاءاتهما .

ــ لكننا قررنا أنْ نعلن خطوبتنا أمام عمتي في هذا الأسبوع ، ــ اعترضت أولغا ، ــ فلا بد أنْ تنتهي هذه الأقاويل . . .

ــ أجل ، لكنني لم أكن أرغب بأنْ أتحدث الى عمتك قبل هذا الأسبوع ، وقبل أنْ أستلم رداً من القرية على رسالتي . فأنا أدرك بأنها لن تسأل عن حبي ، بل عن أملاكي ، وستدخل في تفصيلات حول هذا الموضوع ، في الوقت الذي لاأستطيع أنْ أوضح شيئاً ، قبل استلام جواب من وكيلي في القرية .

تنهدت أولغا .

– لولا معرفتي الدقيقة بك، –قالت متأملة ،– الله وحده يعلم ماذا كنت سأفكر . فأنت تخشى أقاويل الخدم عنّا ، لكنك لاتخشى أنْ تسبّب لي الإزعاج ! لم أعد أقدر على فهمك .

– اعتقدتُ بأنّ ثرثرتهم ستزعجك . الله وحده يعلم ماذا تقول كاتيا ومارفا ، الله وحده يعلم ماذا يقول سيميون وهذا الأحمق نيكيتا .

– أعرف مايقولون ، منذ زمن بعيد ، – قالت أولغا بعدم اكتراث.

– تعرفين ؟ كيف ؟

– كاتيا ومربيتي أخبراني بذلك منذ زمن بعيد ، فسألاني عنك وقدّما لي التهنئة .

– هل قدّما لك التهنئة حقاً ؟ – سأل أبلوموف برعب – وماذا قلت ؟

– شكرتهم على التهنئة ، أهديت مربيتي شالاً ، وقد وعدت بأنها ستذهب الى سيرغي سيراً على الأقدام . لقد تعهدتُ أنْ تُزَوِّجَ كاتيا من صانع الحلوى : فهي مغرمة به . . .

نظر أبلوموف إليها بعينين مذعورتين مندهشتين .

– تواجدك يومياً عندنا أمر طبيعي جداً ، – أضافت أولغا – أما أقاويل الناس ، فليست هذه هي المرة الأولى ، التي يحدث فيها مثل هذا الأمر . فقد حدث هذا مع سونيتشكا أيضاً : ماالذي يخيفك ؟

– لماذا ظهرت هذه الأقاويل ؟ – قال أبلوموف وهو يمطّ في الكلام .

— وهل هي بدون أساس ؟ أليست حقيقة ؟

— إنها حقيقة ! — كرّر أبلوموف بطريقة لاتنمّ عن التساؤل أو النفي . —

أجل — أضاف بعد ذلك ، — في الواقع ، أنت على صواب : لكنني لاأريد فقط أن يعرفوا شيئاً عن لقاءاتنا ، هذا ماأخشاه . . .

— تخاف ، ترتجف كالطفل . . . لاأفهمك ! وهل أنت تسرقني ؟

شعر بالحرج ، أما أولغا فكانت تنظر إليه باهتمام .

— اسمع ، — قالت أولغا ، — يوجد بعض الكذب هنا ، فأنا لاأشعر بصراحتك الآن . . . هيّا ، قل كل ماتشعر وتفكر به ، كان بامكانك أنْ تنقطع عن الذهاب — إلينا يوماً ، يومين — أسبوعاً على أكثر تقدير ، من باب الحذر ، لكن ، كان ينبغي أنْ تخبرني ، أو تكتب لي . فأنت تعرف ، بأنني لم أعد طفلة ، وليس من السهل أنْ تخدعني بكلامك . ماذا يعني ذلك كله ؟

أخذ يفكر ، ثم قبّل يدها بعد ذلك وتنهد

— إليك ماأفكر به ياأولغا ، — قال أبلوموف ، — كنت أشعر طوال هذا الوقت بالخوف عليك ، فقد تعب ذهني من كثرة التفكير بك وبمشاغلنا وهمومنا المشتركة ، وامتلأ قلبي ألماً من الآمال والتوقعات المتحققة تارة ، والضائعة تارة أخرى ، فجسدي كله منهك مزعزع : فقد تخدّر ، وهو يبحث عن هدوء ولو مؤقت . . .

ــ لماذا لم يتخدّر جسدي ؟ لماذا أبحث عن الهدوء والراحة بالقرب منك فقط ؟

ــ قواك فتية راسخة ، فأنت تحبين بهدوء ووضوح ، أما أنا . . . لكنك تعرفين كم أحبك ! ــ قال أبلوموف وهو ينزل الى الأرض ويقبل يديها .

ــ كلا ، فأنا لاأعرف إلا القليل ، ــ فأنت غريب لدرجة أنني أضيع في تصوراتي ، فذهني وأملي ينطفئان . . . قريباً سنكون عاجزين عن فهم بعضنا بعضاً : عندها سيصبح الوضع سيئاً ! ثم صمتا .

ــ ماذا كنت تفعل طيلة هذه الأيام ؟ ــ سألت أولغا وهي تتفحص الغرفة بعينيها للمرّة الاولى.ــسكنكغير مريح: فالسقف منخفض جداً ! النوافذ صغيرة والدهان قديم . . . أين الغرف الأخرى ، التي تسكنها ؟

سرعان مابدأ أبلوموف يريها الغرف الأخرى ، كي يغيّر موضوع الحديث ، عما كان يفعله طيلة هذه الأيام . بعد ذلك جلست أولغا على على الأريكة ، بينما جلس أبلوموف على الأرض عند قدميها .

ــ ماذا كنت تفعل طيلة الأسبوعين الماضيين ؟ ــ سألت أولغا مستجوبة .

ــ كنت أقرأ ، وأكتب ، وأفكر بك .

ــ هل قرأت كتبي ؟ كيف وجدتها ؟ سآخذها معي .

أخذت أولغا كتاباً من على الطاولة ونظرت الى الصفحة ، التي كان مفتوحاً عليها : فوجدت أن الغبار يكسوها .

ـــ أنت لم تقرأه ! ـــ قالت أولغا .

ـــ كلا ، أجاب أبلوموف .

نظرت الى الوسائد المدعوكة والى الفوضى ، التي تسود الحجرة ؛ نظرت الى النوافذ المغبرّة والى طاولة الكتابة ، فرتّبت بعض الأوراق ، التي كساها الغبار ، ثم حرّكت الريشة في المحبرة الجافة ونظرت إليه بدهشة .

ـــ ماذا كنت تفعل ؟ ـــ كررت أولغا ـــ فأنت لم تكن تقرأ ولا تكتب . أليس كذلك ؟

ـــ لم يكن لديّ متسع من الوقت ، ـــ بدأ أبلوموف يتعثر في الكلام ، فما ان أنهض صباحاً ، حتى يبدأ ترتيب الغرف وتنظيفها ، الأمر الذي كان يمنعني من القراءة والكتابة ، بعدها تبدأ الاحاديث عن الغداء . ثم يأتي طفلا صاحبة الشقة كي أصحح لهما بعض مسائل الحساب ، بعدها يدعونني الى الغداء . وبعد الغداء . . . كيف يمكن للمرء أن يقرأ ؟

ـــ كنت تنام بعد الغداء ، ـــ قالت أولغا بطريقة إيجابية ، الأمر الذي دفع أبلوموف ، بعد دقيقة من التردد بأنْ يجيب :

ـــ كنت أنام . . .

ـــ لماذا ؟

ـــ كي لاأشعر بالوقت : كنت أشعر بالملل بسبب غيابك عني ، فالحياة لاتطاق بدونك ياأولغا . . . توقف أبلوموف عن الكلام ، بينما راحت أولغا ترمقه بنظرات صارمة .

ـ إيليا ! ـ بدأت أولغا الكلام بمنتهى الجدّية . ـ أتذكر عندما قلت لي في الحديقة العامة ، بأنّ الحياة تضطرم في داخلك ، أتذكر عندما أكدت لي ، بأنني قد أصبحت هدف حياتك ومثالها الاعلى ، أتذكر عندما أمسكتني بيدي وقلت بأنني معبودتك ، أتذكُر كيف أعطيتك موافقتي ؟

ـ وهل يمكن نسيان ذلك ؟ ألم يغيرّ ذلك مجرى حياتي ؟ ألا ترين ، كم أنا سعيد !

ـ كلا ، لاأرى ، لقد خدعتني ، ـ قالت أولغا ببرود ، ـ فأنت تسقط من جديد . . .

ـ خدعتك ! كيف تقولين هذا ؟ أقسم بأنني على استعداد لأنْ أرمي نفسي في الهاوية من أجلك !

ـ أجل ، قد تفعل ذلك لو أنّ الهاوية موجودة هنا ، تحت أقدامك في هذه اللحظة ، ـ قالت أولغا مقاطعة ، ـ لكن في حال تأجيل المسألة يومين أو أكثر ، فانك ستغيّر رأيك وتخاف ، خاصّة إذا مابدأ زاخار وأنيسيا يثرثران بصدد ذلك . . ، هذا ليس حبّاً .

ـ هل تشكّين في حبيّ ؟ ـ بدأ أبلوموف الكلام بحرارة . ـ أتعتقدين بأنني أرجىء الأمور خوفاً على نفسي ، لاخوفاً عليك ؟ إنني أحافظ على سمعتك واسمك أكثر من أي شيء في الوجود ، إنني أسهر عليك ، كما تسهر الأمّ على أبنائها لتحميهم من كلّ مكروه . . .

آه ياأولغا ! اطلبي براهين على ذلك ! أكرر لك ، بأنني على أتمّ

الإستعداد لأنْ أنسحب من حياتك بصمت ، إذا ما شعرت يوماً بأنّ سعادتك مع شخص آخر تفوق سعادتك معي ؛ إنيّ مستعد لأنْ أفديك بنفسي عندما يتطلّب الأمر ذلك ! ـ قال أبلوموف والدموع في عينيه .

ـ لاأحد يطلب ذلك ، فأنا لست بحاجة لما تقول ! لماذا أريد أنْ تضحي بحياتك ؟ افعل مايلزم . هذه حيل الناس الماكرين ، الذين يقترحون التضحيات غير الضرورية ، التي لايمكن لأحد أنْ يقبل بها ، كي يتفادوا فعل ماهو ضروري. إنني على ثقة بأنك لست ماكراً ، لكنْ . . .

ـ قد لاتعرفين مقدار حبي العميق لك ! ـ تابع أبلوموف . ـ لقد استحوذت على تفكيري ومشاعري منذ اللحظة التي عرفتك فيها . . . وها أنا ذا أكرر بأنّ هدفي الوحيد في الحياة هو أنت . بدونك لاأستطيع العيش ، بدونك سأصبح كالمجنون تماماً !

إنني أتنفس الآن ، وأنظر وأفكر وأشعر من خلالك . عجباً ، كيف تندهشين لأنني كنت أنام وأتهاوى في تلك الايام ، التي قضيتها بعيداً عنك ؟ كنت أشعر بالملل والكآبة بسبب غيابك عني ؛ كنت أسير كالآلة ، وأتصرّف دون أنْ ألاحظ ماكنت أقوم به . فأنت قوة ومحرك هذه الآلة ، ـ قال أبلوموف وهو ينتصب جاثياً على ركبته .

كانت عيناه تتلألآن ، كما كان عليه الحال أيام لقاءاتهما في الحديقة ، فقد عاد الكبرياء وقوة الإرادة ينبعثان منهما من جديد .

ـ إني على استعداد لأنْ أذهب حيث تأمرين ، وأنْ أفعل ما تشائين . إنني أشعر بالحياة عندما تنظرين إليّ وتتحدثين وتغنّين . . .

كانت أولغا تصغي بتأمل صارم الى تلك العواطف الصريحة التي يبديها .

— اسمعْ يا إيليا ، — قالت أولغا ، — إنيّ أثق بحبك وقدرتك بالسيطرة على نفسك .

لماذا تخيفني بتردّدك وقلة حزمك ؟ لماذا توصلني الى درجة الشك ؟ كنت تقول لي بأني هدفك وغايتك ، لكنك تسير نحو هذا الهدف بخجل وبطء ؛ مازالت هناك مسافة طويلة عليك أنْ تجتازها ؛ يجب أنْ تصبح أكثر سمواً مني ومقدرة . فأنا أنتظر ذلك منك ! لقد رأيت كيف يحبّ الناس السعداء ، — أضافت أولغا وهي تطلق تنهيدة ، — فكل شيء يجيش ويغلي عندهم ، وسكينتهم لاتشبه سكينتك ؛ إنهم لايحنون رؤوسهم ، عيونهم مفتوحة دائماً ، لاينامون إلا قليلاً ، أوقاتهم زاخرة بالنشاط والحركة ! أما أنت . . . فلا تبدو بأنك تريد أنْ تجعل منيّ هدفاً لك .

أخذت تهز برأسها مبدية علامة الشك .

— أنت ، أنت ! . . . — قال أبلوموف وهو يقبّل يديها من جديد ويتململ عند قدميها . — أنت كل شيء بالنسبة لي ! يا إلهي ، أية سعادة تغمرني ! — قال كما لو أنه في حلم . — كيف تعتقدين ، بأنني يمكن أنْ أخدعك وأخيّب ظنك ! سترين ، وسيرى أندريي أيضاً ، — تابع أبلوموف وعيناه تشعّان بريقاً ، — كم سيجعلني حبك أحلّق عالياً ! انظري ، انظري إليّ : ألست منتعشاً في هذه اللحظة ؟ فلنذهب من

هنا ! هيّا ! هيا ! لاأستطيع أن أبقى لحظة واحدة هنا ، فأنا أشعر بالضيق والقرف في هذا المكان ! — قال أبلوموف وهو يتطلع باشمئزاز حقيقي لما حوله . — دعيني أستمتع اليوم بهذا الشعور الرائع . . . آه ، ليت نار الوجد تحرقني غداً ودائماً ، كما تحرقني الآن ! بدونك أخبو وأسقط ! لقد انبعثت الآن من جديد ، لقد انتعشت . يبدو لي ، أنني . . .

أولغا ، أولغا ! أنت درّة هذا العالم ، أنت أروع امرأة في هذا الكون أنت . . . أنت . . .

وضع وجهه على يدها ثم همد . أما لسانه فقد توقف عن الكلام .

بعدها ، وضع يدها على قلبه كي يوقف اضطرابه ، ثم ألقى عليها نظرة شغوفة نديّة وأصبح بلا حراك .

« رقيق ، رقيق ، رقيق ! » — أسرّت أولغا لنفسها وهي تتنهد ، لكنّ تنهيدتها هذه كانت تختلف عن تنهيداتها في الحديقة العامة ، ثم استغرقت في تفكير عميق .

— حانَ أنْ نذهب ! — قالت أولغا بلطف بعد أنْ صَحَتْ من تأملها .

صحا أبلوموف فجأة .

— يالهي ، أنت هنا ! عندي ؟ — قال أبلوموف ، ثم تغيّرت نظرته الفرحة فأصبحت خجولة مرتبكة وهو يتلفّت الى كل الجهات . لم تعد كلمات الوجد تنعقد على لسانه .

خطف قبعتها ومعطفها بسرعة ، حتّى انه كاد أنْ يضع المعطف ، بدلاً من القبعة على رأسها من شدة ارتباكه .

ضحكت أولغا .

ــ لاتقلق بشأني ، ــ طمأنته أولغا ، ــ فعمّي غادرت البيت ليوم كامل ؛ أما مربيتي وكاتيا فهما الوحيدتان في البيت فقط ، اللتان تعرفان بمغادرتي المنزل .

مدّت إليه يدها مودعة ، ثم عبرت فناء المنزل بهدوء وبشعور من الإعتزاز بالنفس بالعفّة والبراءة ، دون أن تأبه لنباح الكلب ثم استقلت العربة ومضت .

ومن نوافذ شقة صاحبة المنزل أطلّت رؤوس تراقبها ، كما أطلّت أنيسيا برأسها عبر سياج الأغصان المجدولة .

وعندما انعطفت العربة في الشارع الآخر ، قدمت أنيسيا وقالت ، بأنها فتشت السوق كله فلم تعثر على المليون ، أما زاخار فقد عاد بعد ساعات ثلاث ونام يوماً بكامله .

تمشى أبلوموف في الغرفة طويلاً دون أن يشعر بتعب في ساقيه،أو يسمع وقع خطواته .

ماان تلاشى صرير دواليب العربة على الثلج ، التي كانت تحمل حياته وسعادته ، ــ حتى زال اضطرابه ، واستقام ظهره وصفا ذهنه ، فأصبح وجهه متألقاً مشرقاً كما كان قبل لحظات ، وبدأت عيناه تشعّان بريقاً وسعادة ورقة . أحسّ بحرارة تسري في جسده ، كما أحسّ

بالحيوية والنشاط . عاودته من جديد ، الرغبة ، التي كانت تتملكه سابقاً ، بأنْ يسافر مع أولغا الى مكانٍ ما بعيد ، الى هناك حيث يتواجد شتولتس، الى القرية والحقول والأحراش ؛ عاودته الرغبة بأنْ ينعزل في حجرته وينهمك في العمل ، ويسافر الى مرفأ ريبينسلك ، ويقوم بشقّ الطريق الى هناك ، ويقرأ كل كتاب جديد يكون موضع اهتمام الناس ، ويذهب الى الأوبرا . . .

أجل ، تملكته الرغبة بأنْ تأتي اليه ، ويذهب إليها ، ومن ثم يذهبان الى دار الأوبرا معاً .

ماأروع أنْ يمضي المرء اليوم على هذا النحو ! ماأجمل أنْ يستنشق المرء عبق الحياه بوجود أولغا ، ويستمتع بأشعة ضيائها الساحر وقواها المتألقة ، وذهنها المرهف الوقاد ، الثاقب السليم ! كان يحس وكأنه يطير كما لو أنّ أحداً يحمله في الغرفة .

ــ الى الأمام ، الى الأمام ! ــ تقول أولغا ، ــ حلّقْ عالياً ، عالياً لتصل الى تلك القمة ، التي تفقد فيها الرقة والانسجام حق الوجود ؛ لتصل الى تلك القمة التي تبتدىء عندها مملكة الرجل !

كم ترى الحياة بوضوح ! كم تقرأ بسهولة ويسر في كتاب الحياة ، فتعرف طريقها بالفطرة ، بالغريزة ، وتدلّه على طريقه ! يجب أنْ تتّحد حياته وحياتها كما يتّحد نهران ، في حياة واحدة تكون القيادة فيها من نصيبه !

انها تدرك قواه ، وامكاناته ، وتعرف مايستطيع أن يفعل ، وتنتظر

صاغرة سيطرته . كم هي رائعة أولغا ! انها رزينة جريئة بسيطة ؛ لكنها ثابتة العزم ، طبيعية ، كالحياة ذاتها !

– ياله من مكان كريه حقاً ! – قال أبلوموف وهو يلتفت حوله الى أركان الغرفة – لقد جاء هذا الملاك الرائع الى هذا المستنقع . فأناره بوجوده !

– أخذ ينظر بشغف الى الكرسي الذي كانت تجلس عليه ، وفجأة لمعت عيناه : فقد شاهد على الأرض بالقرب من الكرسي قفازاً صغيراً .

– وديعة ! قال ! آه ! . . . – أخذ يئنّ بلهفة وهو يضع القفاز على شفتيه .

أطلّت صاحبة البيت برأسها من الباب ، واقترحت عليه أن يلقي نظرة على القماش الكتاني ، ليرى إن كان يرغب بشراء شيء منه .

لكنه شكرها ببرود ، ولم يفكّر بأنْ ينظر الى مرفقيها ، واعتذر بحجّة أنه مشغول جداً . بعد ذلك غاص في ذكريات الصيف مسترجعاً في ذهنه كل التفاصيل ؛ تذكّر كل شجرة وغصن ومقعد ، تذكر كل كلمة قيلت ، فوجد ذلك كله أحبّ على نفسه وأكثر إمتاعاً له من الماضي الذي حدثت فيه هذه التفاصيل المحببة على قلبه .

– لم يستطع أن يتمالك نفسه من شدة الفرح ، فأخذ يغنيّ ويتحدث الى أنيسيا بلطف ، ويمازحها معاتباً بسبب عدم إنجابها حتى الآن ، واعداً إياها بأنْ يعمّد طفلها بمجرد أنْ يولد .

أثار بعض الضوضاء أثناء مداعبته لماشا ، مما اضطر صاحبة البيت

لأنّ تطرد ماشا الى غرفتها ، كي لا تمنع الساكن عن « العمل » .

أمّا بقية اليوم فقد أضافت بعض التصرفات الجنونية . فأولغا كانت مسرورة ، غنّت بعذوبة ، وقصدت دار الأوبرا بعد ذلك بصحبة أبلوموف ، أما إيليا إيلييتش فتناول الشاي في منزل أولغا ، حيث جرى أثناء الشاي حديث ودي صادق بينه وبين أولغا وعمتها والبارون ، لدرجة أنّ أبلوموف شعر تماماً ، بأنه اصبح عضواً حقيقياً في هذه الأسرة الصغيرة . كفى العيش وحيداً : فقد أصبح لديه الآن ركن يلجأ اليه بسرور ، أصبح يملك الدفء والضياء ـ ماأروع العيش في ظروف كهذه !

لم ينم في الليل إلا قليلاً : كان يكمل قراءة الكتب ، التي أرسلتها أولغا ، فقد قرأ مجلداً ونصف .

« يجب أن تصل الرسالة من القرية غداً » ، ـ تفكر أبلوموف ، وأصبح قلبه يخفق . . . ويخفق . . .

— ٨ —

في اليوم التالي ، عثر زاخار وهو يرتّب الغرفة على قفاز صغير وجده على طاولة الكتابة ، نظر إليه طويلاً ، ثم ضحك ، وأعطاه بعد ذلك لأبلوموف . ـ لابد أنْ تكون الآنسة إيلينسكايا قد نسته ، ـ قال زاخار .

ـ تباً لك من شيطان ! ـ انفجر إيليا إيلييتش وهو ينتزع القفاز من يدي زاخار . ـ أنت تكذب ! وماالذي يجيء بالآنسة إيلينسكايا الى هنا !

لقد جاءت الخيّاطة الى هنا لتقيس قميصاً لي . كيف تجرؤ على ابتكار ماتقول !

ـ شيطان ؟ أبتكر ؟ الحديث يدور حول ذلك في غرفة صاحبة الشقة . . .

ـ ماذا يقال ؟ ـ سأل آبلوموف

ـ يقال بأنّ الآنسة إيلينسكايا كانت هنا مع فتاة . . .

ـ (مذعوراً) ياإلهي ! ـ كيف عرفوا أنّ الآنسة إيلينسكايا كانت هنا ؟

لابد أنّ الثرثرة قد صدرت عنك أو عن أنيسيا . . .

أطلّت أنيسيا برأسها فجأة من غرفة الانتظار .

ـ زاخار تروفيميتش ، كيف تجرؤ على قول ترّهات كهذه ؟ لاتصغِ إليه ياسيدي ، ـ قالت أنيسيا ، ـ فلا أحد قال شيئاً ، ولايعرف شيئاً ، إنني أقسم على ذلك . . .

ـ كفى ، كفى ، كفى ! صاح زاخار بصوت أجش ، مهدّداً أنيسيا بحركة من مرفقه باتجاه صدرها . ـ لاتحشري نفسك .

اختفت أنيسيا . هدد أبلوموف بقبضتي يديه زاخار ، ثم فتح بسرعة الباب المفضي الى القسم الذي تسكنه صاحبة الشقة . كانت أغافيا ماتفييفنا جالسة على الارض ترتّب بعض الملابس القديمة وتفرزها في صندوق قديم ؛ بالقرب منها توجد أكوام من الخرق والفساتين القديمة والأزرار وقصاصات من الفراء .

ـ اسمعي ، ـ بدأ أبلوموف الكلام بلطف ، لكن باضطراب ، ـ خدمي يثرثرون ويتفوّهون بترّهات مختلفة ، أستحلفك بالله ألا تصدّقي مايقولونه .

ـ لم أسمع شيئاً ، ـ قالت صاحبة الشقة . ـ ماذا يثرثرون ؟

ـ إنهم يتحدثون عن زيارة البارحة ، ـ تابع أبلوموف ، ـ ويزعمون أنّ إحدى الآنسات قد جاءت الى هنا . . .

ـ وما علاقتي بمن يأتي لعند المستأجر ؟ ـ قالت صاحبة الشقة .

ـ أرجوك ، لاتصدقيهم : إنها لتهمة باطلة تماماً ! لم تحضر الى هنا أية آنسة : فقد قدمت الى هنا خيّاطة تخيط قميصاً لي . جاءت لتقيسه .

ـ أين تفصّل قمصانك ؟ من يخيطها لك ؟ ـ سألت صاحبة الشقة بحيوية .

ـ في المخزن الفرنسي . . .

ـ أرني كيف تبدو عليك : أعرف فتاتين تجيدا الخياطة : درزة القميص ، التي تقومان بها تعجز عن فعلها أية فرنسية . لقد رأيت كم هي رائعة ومتقنة خياطتهما ، فهما يخيطان للكونت متلينسكي قمصانه : مامن أحد يخيط مثلهما ، أين خياطة قمصانك من خياطتهما .

ـ حسن ، حسن جداً ، سأتذكر ذلك . كل ماأريده منك هو ألاّ تظني بأنّ الآنسة كانت هنا .

ـ ماعلاقتي بمن يأتي لعند المستأجر ؟ حتى ولو كانت الآنسة . . .

ـ كلا ، كلا ! ـ نفى أبلوموف . ـ عفوك ، فالآنسة التي يتحدث زاخار عنها ، فارعة القدّ ، تتكلم بصوت جهوري ، أما الخيّاطة هذه ، فتتكلم بصوت رقيق : رنة صوتها رائعة . أرجوك ، لاتظني بأن . . .

ـ ماعلاقتي بذلك كله ؟ ـ قالت صاحبة الشقة في اللحظة ، التي كان ينصرف فيها أبلوموف ـ لاتنسَ بأنْ تقول لي عندما تحتاج لخياطة قميص : أعرف فتاتين تقومان بدرزة لامثيل لها ـ . . . اسم إحداهما اليزابيت نيكولايفنا ، والأخرى ماريا نيكولايفنا .

ـ حسن ، حسن ، لن أنسى ؛ أرجوك ، لاتظني بأنّ . . .

ثم انصرف ، فارتدى ثيابه وبعد ذلك ذهب الى أولغا .

لدى عودته مساءً وجد على الطاولة رسالة من القرية ، أرسلها له جاره المكلف بالإشراف على أموره هناك . اندفع أبلوموف صوب المصباح ، فقرأ الرسالة واستسلم لليأس .

« أرجوك غاية الرجاء بأنْ تكلف شخصاً آخر غيري بالإشراف على شؤونك (كتب جاره) ، لأنّ الاعمال كثيرة عندي لدرجة أني أصارحك القول بعجزي عن متابعة الإشراف على أملاكك كما ينبغي . من المستحسن أنْ تأتي الى هنا بنفسك ومن الأفضل أيضاً أن تقيم في أملاكك . عقاراتك جيدة ، لكنها مهملة جداً . قبل كل شيء يتوجب عليك توزيع السخرة وتنظيمها ؛ بدونك يستحيل فعل ذلك : فالفلاحون مدّللون كثيراً ، ولايطيعون وكيلك الجديد ، أما وكيلك القديم فمحتال غشاش ، تجب مراقبته .

لايمكن تحديد مقدار دخلك . من المشكوك فيه أنْ يتجاوز دخلك في ظلّ الفوضى الراهنة أكثر من ثلاثة آلاف روبل، حتى في حال وجودك. المقصود هنا طبعاً ، هو دخلك من الحبوب ، أما الأمل المعقود على دخلك من الريع الإقطاعي فهو ضعيف : فالأمر يتطلب التعامل مع الفلاحين بحزم من أجل جباية الضرائب المستحقة عليهم — الأمر الذي يتطلب ثلاثة أشهر . أسعار الحبوب جيدة ويمكنك أنْ تحصل على النقود في آذار أونيسان ، اذا أشرفت بنفسك على عملية البيع . في الوقت الراهن لايوجد قرش واحد . بالنسبة للطريق ، فقد قررنا ، أنا ، وأدونتسيف وبيلا فودوف ، بعد أنْ انتظرناك وقتاً طويلاً جداً ، دون أن يأتي ردّ منك ، بأنْ تمرّ بنيلكي ، الأمر الذي يعني بأنّ أبلوموفكا ستكون بعيدة عنها. واخيراً أكرر رجائي بأنْ تشرّفنا بالمجيء الى هنا بأسرع مايمكن : إذ يمكنك خلال ثلاثة أشهر تحديد ماأنت بحاجة إليه في السنة المقبلة .

بالمناسبة ، الآن وقت الإنتخابات : ألا تريد أنْ ترشح نفسك الى منصب قاضٍ على مستوى المقاطعة ؟ أسْرِعْ وقرّرْ ، بيتك سيّء جداً (أضيف في آخر الرسالة) . لقد أمرتُ الحوذي العجوز وامرأتين أخريين بأنْ يتركا المنزل ويذهبا الى مكان آخر : لأنّ البقاء فيه ، غاية في الخطورة » .

هنالك ملحق بالرسالة يتضمّن كمية المحصول من الحبوب ،

والكميات المخزونة منها والكمية المخصّصة للبيع ، الى آخر ماهنالك من تفصيلات أخرى تتعلق بالمحصول .

« لايوجد قرش واحد ، ثلاثة أشهر ، أنْ تأتي بنفسك ، أنْ تنظم أمور الفلاحين ، أنْ تحدد مقدار الدخل ، أنْ ترشح نفسك للإنتخابات ، هذه الأمور كلها ، كانت تتجمّع حول أبلوموف كالأشباح . كان وضع أبلوموف يشبه حال من وجد نفسه ليلاً في غابة ، وهو يتخيّل أنّ في كل غصن وشجرة ، قاطع طريق ووحشاً مفترساً وأحد الأموات .

— إنّ هذا لمعيبٌ حقاً : لن أستسلم ! — أصرّ أبلوموف ، وهو يحاول التعرّف على هذه الأشباح ، تماماً كما يحاول الجبان أنْ يتشجّع بالنظر إلى الأشباح عبر جفنين مسدلين مغمضين ، فيشعر بالبرد في قلبه فقط ، وبالضعف في يديه وساقيه .

ماذا كان يأمل أبلوموف ؟ كان يعتقد بأنّ الرسالة ستتضمن بالتحديد مقدار الدخل ، الذي سيتلقّاه ، أي أكبر كمية ممكنة من النقود ، ولنقل ستة آلاف أو سبعة آلاف ؛ كان يعتقد بأنّ البيت لايزال جيداً صالحاً لسكناه ، حتى يبني آخر جديداً ؛ كان يعتقد بأنّ معتمده في القرية سيرسل له ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف روبل ، — باختصار ، كان أبلوموف يأمل بأنْ تكون الرسالة زاخرة بالمرح والحب واستجابة الحياة له ، أي كما كان يقرأ في رسائل أولغا تماماً .

لم يعد أبلوموف يتمشى في الغرفة مرحاً ، لم يعد يمازح أنيسيا ، لم يعد

يمنّي نفسه بأحلام السعادة الواعدة : فقد أصبح لزاماً عليه أنْ يؤجّل سعادته ثلاثة أشهر أخرى ، لابل أكثر ! فالأشهر الثلاثة لاتكفي إلا لتنظيم شؤونه وتدبير أملاكه ، أما العرس . . .

— يستحيل أنْ أفكّر بالعرس قبل سنة على أقلّ تقدير ، — قال أبلوموف بهلع ، — أجل ، أجل ، بعد سنة ، لاقبل ! يجب عليه أنْ يكمل مخطّطه ويقرر الأمور نهائياً مع المهندس المعماري ، وبعدها . . . بعدها . . . — ثم تنهّد .

« أستدين ! » — لمعت في ذهنه هذه الفكرة ، لكنه مالبث أنْ استبعدها .

« كيف يمكن ذلك ! وإذا لم أسدّد في الوقت المحدد ؟ فقد تسير الأمور بشكل سيء ، وعندئذ سيرفعون دعوى بحقي ، فتتلطخ سمعة أبلوموف التي مازالت حتى الآن ، نظيفة ، مصونة . . . » — اللهمّ احفظني من ذلك ! عندئذ ، وداعاً أيها الهدوء ، وداعاً أيتها العزة . . . لا ، لا ! الآخرون يستدينون ، لكنهم لايتوقّفون عن العمل بعد ذلك ، كأنّ مارداً قد انطلق في داخلهم . فالدَّيْن هو المارد ، هو العفريت الذي لايتخلّص الإنسان منه إلا بالنقود !

يوجد أناس يعيشون حياتهم كلها على حساب الغير ، يأخذون من هنا وهناك ، ولاتهتزّ لهم شعرة ! كيف يستطيعون النوم بهدوء ، كيف يتناولون طعام الغداء — فذلك أمر لايمكن فهمه ! الدَّين نتائجه مضنية : عمل دائم قاس ، أو فضيحة .

ماذا يعني تنظيم قريتي ؟ أليس ذلك هو الواجب المرهق ، الذي لايرحم ؟ أجل ، إنّ مايعنيه ذلك ، هو أنْ أنفق الأموال كل عام ، دون أنْ يتبقّى منها شيء لمواجهة أعباء الحياة .

لقد ابتعدت السعادة سنة أخرى ! بدأ أبلوموف يئنّ بألم ، ثم سقط على السرير ، لكنه مالبث أن ثاب الى رشده فجأة ثم نهض . لكن ماذا قالت أولغا ؟ ألمْ تناده كرجل ، ألم تبدِ ثقتها بقواه. انها تنتظر منهأنْ يسير الى الأمام ويحلّق عالياً ليصل الى تلك القمة المرتفعة ، فيمدّ لها يده ويقودها ويدلّها على الطريق !

أجل ، أجل ! لكن من أي شيء يبدأ ؟

أخذ يفكر ويفكر ، ثم ضرب جبينه فجأة ودخل الى القسم ، الذي تسكنه صاحبة الشقة .

– هل أخوك في البيت ! – سأل أبلوموف صاحبة البيت .

– نعم ، لكنه نائم .

– أرجوك أنْ تبلغيه ليأتي إليّ غداً ، فأنا بحاجة لأنْ أراه .

– ١٠ –

دخل أخوها الى الحجرة بأسلوبه المعهود ذاته ، وجلس على الكرسي بحذر ، ثم أخفى يديه في كمّه ، وراح ينتظر ماسيقوله إيليا إيليتش .

– استلمتُ رسالة مشؤومة من القرية ، ردّاً على وثيقة التوكيل ، التي أرسلتها– ألا تذكر ؟ – قال أبلوموف . – تفضّلْ واقرأها .

بدأ إيفان ماتفييتش يتصفح بعينيه سطور الرسالة ، التي كانت تهتزّ

بين أصابعه . وبعد أنْ أنهى قراءتها ، وضعها على الطاولة ثم أخفى يديه خلف ظهره .

– ماذا تقترح عليّ أنْ أفعل .

– ينصحونك بالسفر الى هناك ، – قال إيفان ماتفييتش . – المسألة ليست صعبة :

المسافة ألف ومئتا فرسخاً ، فبامكانك أنْ تسافر .

– لقد أقلعت عن السفر كلياً ، لم أعد معتاداً عليه ، خاصّة في فصل الشتاء . أعترف ، بأنّ الأمر في غاية الصعوبة فليست لديّ رغبة بالسفر . . . زِد على ذلك ، أنني سأشعر بالضجر كثيراً هناك لوحدي .

– كم عدد الفلاحين ، الذين تتقاضى منهم الريع الإقطاعي ؟ – سأل إيفان ماتفييتش .

– لاأعرف : لأنني لم أتواجد في القرية منذ زمن بعيد .

– يجب أن تعرف ياسيدي : كيف يمكن تدبير الأمور بدون معرفة ذلك ؟ فهذا ضروري من أجل أنْ تعرف مقدار دخلك .

– أجل ، يجب ذلك ، – ردّد أبلوموف ، – وجاري يتحدّث عن ذلك أيضاً في رسالته .

– ماهو مقدار الريع حسب تقديرك ؟

– الريع على مأعتقد . . . كنت أحتفظ بجدول ، أعدّه شتولتس ، لكنْ من الصعب العثور عليه : فلا بدّ أنْ يكون زاخار قد دسّه في مكان

ما ــ سأطلعك عليه فيما بعد . . . كنت أتقاضى حسب اعتقادي ، ثلاثين روبلاً عن كل نفس .

ــ كيف هي أحوال الفلاحين عندك ؟ كيف يعيشون ؟ ــ سأل إيفان ماتفييتش . ــ هل هم اغنياء أم معدمون فقراء ؟ كيف هو نظام السخرة عندك ؟

ــ اسمَعْ ، ــ قال أبلوموف وهو يقترب منه ، ثم أمسك بجانبي سترته الرسمية كعلامة على الثقة به . نهض إيفان ماتفييتش بسرعة ورشاقة ، لكن أبلوموف أجلسه من جديد .

ــ اسمَعْ ، كرّر أبلوموف بصوت يكاد يشبه الهمس وهو يتوقّف بين الكلمات ، ــ أنا لاأعرف ماذا تعني السخرة ولا العمل الزراعي ، لاأعرف من هو الفلاح الفقير ، ولا الغني ، لا أعرف ثمن الشعير ولا الشوفان ، لاأعرف في أي شهر يزرعون ، ولافي أي شهر يحصدون ، ولامتى يبيعون المحصول ؛ لاأعرف هل أنا فقير أم غني ؛ هل سأصبح بعد عام موسراً أم مُعدَماً ــ باختصار أنا لاأعرف شيئاً ! ــ

ختم أبلوموف كلامه بكآبة ، ثم أفلت جانبي سترة إيفان ماتفييتش الرسمية وابتعد عنه ، ــ وبالتالي ، فعليك أنْ تنصحني وتتحدث إليّ كما تتحدث إلى طفل . . .

ــ يجب أنْ تتعرّف ياسيدي : فبدون ذلك يستحيل تدبير أي شيء قال إيفان ماتفييتش وهو يبتسم ابتسامة إذعان وخضوع ، ثم نهض ووضع إحدى يديه خلف ظهره ، بينما دسّ اليد الاخرى في عبّه . ــ يجب أنْ

يعرف الإقطاعي أملاكه ، وكيفية إدارتها والتعامل معها . . . — قال واعظاً .

— لكنني لاأعرف ، علّمني اذا كنت تستطيع .

— لم أمارس من قبل مثل هذه الأمور فيجب أنْ أتبادل المشورة مع من لهم خبرة في هذا المجال .

— هاهم يكتبون لك في الرسالة ، — تابع إيفان ماتفييتش مشيراً باصبعه الوسطى ، والظفر الى الاسفل ، الى صفحة الرسالة ، — كي ترشّح نفسك الى الإنتخابات : إنه لعمل عظيم ! إذ يمكنك عندئذ أنْ تعيش هناك وتخدم في محكمة المقاطعة وتتعرف في تلك الأثناء على أملاكك.

— أنا لاأعرف ماذا تعني محكمة المقاطعة ، ولا طبيعة العمل فيها ولا أسلوبه ! — قال أبلوموف بصورة معبّرة ، لكنْ بصوت خافت أيضاً ، وهو يقترب من إيفان ماتفييتش ، حتّى أصبح أمامه .

— ستتعوّد ياسيدي . هاأنت قد خدمت هنا في إحدى الإدارات : العمل متشابه في كل مكان ، الاختلاف بسيط في الشكل فقط . فالإرشادات والعلاقات والبروتوكولات موجودة في كل مكان. يمكنك أنْ تصبح موظفاً مرموقاً ، كل ماتفعله هو التوقيع فقط . فما دمت تعرف كيف يجري العمل في الإدارات ، . . .

— أنا لاأعرف كيف يجري العمل في الإدارات — قال أبلوموف برتابة .

ألقى إيفان ماتفييتش نظرة مضاعفة على أبلوموف ثم صمت .

ـ لابدّ أنْ تكون قد قرأت كل الكتب ياسيدي ؟ ـ لاحظ إيفان ماتفييتش وهو يبتسم ابتسامة الإذعان تلك .

ـ الكتب ! ـ اعترض أبلوموف بمرارة ثم توقّف عن الكلام ،

لم يملك الجرأة الكافية لمتابعة كلامه ، إذ أنه وجد من غير الملائم أنْ يعرّي نفسه حتى الأعماق أمام موظف كايفان ماتفييتش . « والكتب لا أعرفها أيضاً » ، ـ تحركت الفكرة في أعماقه ، لكنه لم ينطقها بلسانه بل عبرّ عنها بتنهيدة كئيبة .

ـ لكن يجب أنْ تمارس عملاً ما ، ـ أضاف إيفان ماتفييتش باستكانة وكأنه قد قرأ مادار في ذهن أبلوموف منأفكار تتعلق بالكتب ـ إذ يستحيل أنْ . . . .

ـ ممكن ياإيفان ماتفييتش : فأمامك مثال حي ـ أنا ! من أنا ؟ من أكون ؟ ـ هذه أسئلة يجب أنْ توجهها لزاخار ، لكنه سيجيبك : « انه السيد النبيل ! » أجل ، فأنا سيد نبيل ، لاأعرف أنْ أفعل شيئاً ! ساعدْني إنْ كنت تستطيع ، وسأعطيك لقاء عملك ماتريد .

بدأ أبلوموف يتمشىّ في الغرفة ، بينما ظل إيفان ماتفييتش متسمراً مكانه ، لكنه كان يستدير في كل مرة باتجاه الزاوية ، التي كان يقترب منها أبلوموف . ظل الإثنان صامتين بعض الوقت .

ـ أين تعلمت ؟ ـ سأل أبلوموف وهو يتوقف أمامه من جديد ،

ـ دخلت المدرسة الثانوية ، لكنّ والدي أخرجني من الصف السادس ، وأرسلني للعمل في إحدى الإدارات . لم أتعلّم إلا القليل !

تعلمت القراءة والكتابة والقواعد والحساب ، ثم توقفت . لقد تكيفت مع العمل وإنْ كنت لاأزال أعاني بعض المشقة . أما عملك ياسيدي فمختلف ــ فأنت تلقّيت علوماً حقيقية .

ــ أجل ، أكد أبلوموف متأوّهاً ، ــ صحيح أنني تعلمت الجبر العالي والإقتصاد السياسي والقانون ، لكنني لم أتكيّف مع العمل . فكما ترى لم يفدني علم الجبر بشيء ، فأنا لاأعرف مقدار دخلي . ذهبت الى القرية ، سمعت وشاهدت مايجري عندنا في البيت وفي أملاكنا ، وما حولنا ــ لكنني لم أجد أية علاقة بين ذلك ، وبين القانون ، الذي تعلمت. سافرت الى هنا وأنا أفترض ، بأنّ الإقتصاد السياسي سيفيدني بطريقة من الطرق . . . لكنه قيل لي ، بأنّ العلوم التي تلقيتها ستفيدني مع مرور الزمن ، أي عندما أصبح على عتبة الشيخوخة ، فكل ما أنا بحاجة إليه الآن ، هو أنْ أحصل على الرتب والترقيات . ومن أجل ذلك يلزمني علم واحد فقط ــ هو نسخ الوثائق ومذكرات التبليغ . لكنني لم أتكيف مع هذا العمل واكتفيت بأنْ أكون مجرّد نبيل ، لا أكثر ، أما أنت فتكيفت مع العمل : هيّا ؛ قل لي : ماالعمل ؟

وقف أبلوموف أمامه ، وهو ينتظر ماسيقوله إيفان ماتفييتش

ــ يمكن أنْ نكلف إنساناً خبيراً بهذه الامور ، ــ قال إيفان ماتفييتش .

ــ أين سنحصل على مثل هذا الإنسان ؟ .

ــ يوجد لديّ زميل في العمل ، اسمه إيساي فوميتش زاتيرتي :

صحيح أنه يتلعثم في الكلام قليلاً ، لكنه شخص عمليّ خبير بهذه الأمور . ظلّ ثلاث سنوات يدير أملاكاً واسعة ، لكنّ الإقطاعي صرفه من العمل لسبب واحد فقط ، هو تلعثمه في الكلام . إنّه يعمل في إدارتنا منذ زمن طويل .

ــ هل يمكن الإعتماد عليه ؟

ــ إنه إنسان طيب ، نظيف القلب ، فلا تقلق من ناحيته ! سينظم الأمور وسيجد الحلول المناسبة . إنني أثق به كثيراً ، فهو يعمل عندنا منذ اثني عشر عاماً .

ــ كيف يمكنه السفر مادام موظفاً ؟

ــ يستطيع أنْ يأخذ إجازة لمدة أربعة أشهر . عندما تتخذ قراراً بشأنه ، سأجيء به الى هنا فوراً ، فهو لن يذهب الى القرية مجاناً بالطبع .

ــ طبعاً لا ، ــ أكد أبلوموف .

ــ يمكنك أنْ تحدّد له ياسيدي مبلغاً معيناً يكفيه لمعيشته خلال الفترة ، التي سيمضيها في القرية ؛ وبانتهاء العمل تمنحه مكافأة يجري الإتفاق بشأنها مسبقاً . سأقنعه بالذهاب !

ــ أنا شاكر لك جداً : فقد أعفيتني من مشاغل وهموم كثيرة ، ــ قال أبلوموف وهو يمدّ يده الى إيفان ماتفييتش . ــ ماهو اسمه ؟

ــ إيساي فوميتش زاتيرتي ، ــ كرّر إيفان ماتفييتش ، وهو يمسح بسرعة يده بطرف كمه الآخر ، ثم صافح أبلوموف وأخفى يده بعد ذلك في كمه فوراً . ــ سأتحدّث غداً إليه ، وسأجيء به الى هنا .

ـ أدعوكما لتناول الغداء ، فسيكون لدينا متسع للحديث . ـ أشكرك جداً ، جداً !

قال أبلوموف وهو برافق إيفان ماتفييتش الى الباب .

ـ ١٠ ـ

مساء نفس اليوم ، كان إيفان ماتفييتش وتارانتييف يجلسان معاً في إحدى غرف الطابق العلوي من المنزل ، ذي الطابقين ، الذي كان يسكن فيه أبلوموف ، والذي يطلّ جانب منه على الشارع ، بينما يطلّ الجانب الآخر على النهر .

كان هذا البيت قد تحوّل الى حانة يقف أمام ابوابها دائماً ثلاث أو أربع عربات فارغة ، يجلس سائقوها في الطابق السفلي وأطباق الطعام في أيديهم . أما الطابق العلوي فكان مخصصاً « لسادة » ناحية فيبورغ .

أمام إيفان ماتفييتش وتارانتييف ، كان يوجد شاي وزجاجة من الروم .

ـ إنه مشروب جامايكي صرف ، ـ قال إيفان ماتفييتش وهو يصبّ لنفسه بيد مرتجفة كأساً من الروم ، ـ لاتبدّد منه قطرة واحدة .

ـ اعترفْ ، بأنها مناسبة تستحق أن يحتفل المرء بها ، ـ قال تارانتييف ، ـ فلن تعثر على مستأجر يدرُّ عليك نفعاً مثله .

ـ هذا صحيح حقاً ، ـ قال إيفان ماتفييتش . ـ وإذا ماتمّت قضيتنا وسافر زاتيرتي الى القرية ـ فسأعطيك بقشيشاً !

ــ لكنك بخيل ياايفان ماتفييتش : فمعك تنبغي المساومه ، ــ قال تارانتييف ، ــ فخمسون روبلاً لاتكفي مقابل تأمين مستأجر كهذا ! يجب أنْ تكون معي كريماً ، فأنا الذي أتيت به إليك .

ــ أخاف أن ينتقل من عندنا ، ــ لاحظ إيفان ماتفييتش .

ــ آه منك : كيف تقول ذلك أيها العارف ! الى أين سينتقل ؟ فهو الآن لن ينتقل حتى ولو طردته .

ــ والعرس ؟ يقولون انه سيتزوج .

بدأ تارانتييف يقهقه .

ــ يتزوج ! لا ، لن يتزوج ، أتراهن على ذلك ؟ ــ قال تارانتييف معترضاً ، ــ زاخار يساعده حتى في النوم ، فكيف له أنْ يتزوج ! حتى الآن ، كنت أنا الذي يساعده ويحسن عليه : فلولاي ياأخ إيفان ، لكان قد مات جوعاً ، أو لدخل السجن .

فأنا الذي يصرّف أعماله ويدّبر شؤونه ! إنه لايفقه شيئاً . . .

ــ حقاً إنه لايفقه شيئاً : فهو يقول بأنه لايعرف أي عمل يقومون به في محكمة المقاطعة ، وكذلك في أية دائرة رسمية ؛ إنه لايعرف من هم فلاحوه وكيف أوضاعهم . أي إنسان هذا ! لقد استبد بي الضحك بسبب جهله . . .

ــ والعقد ، العقد الذي أبرمه ؟ ــ قال تارانتييف متباهياً ــ . إنك لماهر حقاً ، في كتابة الوثائق والعقود ياأخ إيفان ماتفييتش ، أقسم أنك غاية في المهارة ! وأنا كنت حاذقاً أيضاً ، لكنني لم أعد كذلك . فعلاً

لم أعد كذلك ! ماانأجلس ، حتى تطرف عيناي فتذرفان دموعاً . لقد يئست ! كما أنّ هناك مشاغلي الأخرى ، التي منعتني عن متابعة ذلك أيضاً .

ــ أجل ، فنحن سنعيش ياصديقي ، مادام البلهاء ، الذين يوقّعون على الوثائق دون أن يكلّفوا أنفسهم عناء قراءتها ، لم ينقرضوا بعد في روسيا . لكن ما إنْ يزولوا حتى تسوء أحوال أمثالنا ! ماهو المبلغ الذي جمعته خلال خمسة وعشرين عاماً من الخدمة الوظيفية ؟ ماجمعته من مال يُمكّنني أن أعيش في ناحية فيبورغ حياةً في الحدود الدنيا ! أما أنْ أشتري شقة في شارع ليتيني ، وسجاجيد ، وأتزوج بامرأة غنية ، وأرزق بأطفال ــ فذلك ضرب من المستحيل ! فسحنتي لاتليق لذلك ، وأصابعي شديدة الحمرة كما ترى . يأتي أحدهم ويقول : لماذا تشرب الفودكا ... وهل يمكن أن أمتنع عن شربها ؟ يقولون ان حياتي أسوأ من حياة الخدم : فالخادم الآن ينتعل حذاءً أفضل من حذائي ، ويبدّل قميصه يومياً . أما تربية أولئك الذين يسكنون في شارع ليتيني فمختلفة : فهم متصنعون ، يقرأون ويتحدثون بالفرنسية .

ــ لكنهم لايفقهون شيئاً ، ــ قال تارانتييف مقاطعاً .

ــ كلا ، ياأخي ، انهم يفقهون : لكنهم يسيئون إلينا . . . أجل ، يسيئون !

ــ لكن توقيع العقد قد تم ! ــ قال تارانتييف .

ــ أجل ، انه لعمل رائع بالنسبة لنا . فلنشرب نخب نجاحنا !

سيذهب زاتيرني الى ابلوموفكا ، فيستفيد بعض الشيء كما نستفيد نحن بدورنا أيضاً .

ـ أجل ، فلنشرب نخب نجاحنا ! ـ قال تارانتييف .

ـ لكن ماأخشاه فقط هو العرس ! ـ قال إيفان ماتفييتش .

ـ لاتخش ذلك . تذكر ماأقوله .

ـ نسيت أن أقول لك ، بأنه يحملق بأختي . . . ـ أضاف إيفان ماتفييتش بصوت هامس .

ـ ماذا تقول ؟ ـ قال تارانتييف بدهشة .

ـ أقسم ، ان ماأقوله صحيح . لكن لاتقل ذلك لأحد !

ـ لم يكن يخطر ذلك ببالي قط ، حتى ولا في الحلم ! ـ قال تارانتييف بعد أن تمالك نفسه بعض الشيء ـ . وأختك ، ماذا تقول ؟

ـ ماذا تقول ؟ إنك تعرفها .

ضرب تارانتييف بقبضته على الطاولة .

ـ ألاتعرف بأن تستغل الأمور لمصلحتها ؟ يالها من بقرة ، بقرة حقيقية . امرأة أخرى مكانها كانت ستستغل ذلك لمصلحتها حتماً الى أبعد حد !

ـ ١١ ـ

« أربعة أشهر ! أربعة أشهر أخرى من القسر واللقاءات السرية ، والنظرات والابتسامات المريبة ! ـ كان أبلوموف يفكر وهو يصعد درج منزل آل إيلينسكايا . ـ ياإلهي ! متى سينتهي ذلك كله ؟ أولغا ستستعجلني

وتقول : اليوم ، غداً . فهي كثيرة الإلحاح ، ثابتة العزم ! يصعب إقناعها . . . » .

كاد أبلوموف أن يصل الى غرفة أولغا ، دون أنْ يصادف أحداً . كانت أولغا جالسة في غرفة استقبالها الصغيرة ، الكائنة أمام غرفة نومها ، وهي مستغرقة في قراءة أحد الكتب .

ظهر أمامها فجأة ، لدرجة أنها ارتعشت ، مدّت اليه بعد ذلك يدها بابتسامة ولطف ، لكن عينيها كانتا تبدوان وكأنهما تتابعان قراءة الكتاب فقد كانت تنظر بشرود .

ـــ هل أنت لوحدك ؟ ـــ سأل أبلوموف .

ـــ أجل : فعمّتي ذهبت الى تسارسكوي‌سيلو . ودعتني لأذهب معها . سنتناول الغداء لوحدنا تقريباً : ستأتي ماريا سيميونوفنا فقط . فلولاها لتعذر عليّ استقبالك . لن تستطيع أن تتحدث اليوم بصراحة . كم سيكون ذلك مضجراً ! لكنك غداً بالمقابل ـــ . . . ـــ أضافت أولغا وابتسمت . ـــ كيف كنت ستنظر للأمر ، لو أنني ذهبت اليوم الى تسارسكوي سيلو ؟ ـــ سألت مازحة .

ظل أبلوموف صامتاً .

ـــ هل أنت مهموم ؟ ـــ تابعت أولغا .

ـــ استلمت رسالة من القرية ، ـــ قال أبلوموف برتابة .

ـــ أين هي الرسالة ؟ معك ؟

ـــ ناولها الرسالة .

ـ إنني لاأفهم شيئاً، فالخط غير مقروء بتاتاً ، ـ قالت أولغا وهي تنظر الى الرسالة .

أخذ أبلوموف الرسالة منها وبدأ يقرأ بصوت مسموع . استغرقت أولغا في التفكير .

ـ ماالعمل الآن ؟ ـ سألت أولغا .

ـ استشرت اليوم أخ صاحبة الشقة . فاقترح عليّ وكيلاً اسمه إيساي فوميتش زاتيرتي : سأكلفه بإنجاز ذلك كله . . .

ـ تُكلّف شخصاً غريباً لاتعرفه ! ـ اعترضت أولغا بدهشة ـ . كيف يمكن ذلك ! شخص غريب يجمع لك النقود من الفلاحين ، وينظم شؤونهم ، ويشرف على بيع المحصول . . .

ـ يقول بأنه إنسان طيب ، نظيف اليد ، يعمل معه منذ إثني عشر عاماً . . . لكنه يتلعثم بالكلام قليلاً .

ـ وأخ صاحبة الشقة هذا ، مارأيك به ؟ هل تعرفه ؟

ـ كلا ، يبدو إنه شخص إيجابي ، عمليّ ، زد على ذلك أنني أعيش عنده في البيت : فسيخجل من خداعي !

كانت أولغا تجلس صامتة وهي تخفض بصرها .

ـ وإلا فانني سأضطر لأنّ أسافر بنفسي ، ـ قال أبلوموف ، ـ فأنا أعترف بأنني لاأريد ذلك . فقد أقلعت عن السفر منذ زمن بعيد ، خاصة في الشتاء . . .

حتى إنني لم أسافر أبداً في يوم من الأيام .

كانت أولغا تنظر الى الأسفل وهي تحرّك رأس حذائها .

— وحتّى لو سافرت ، — تابع أبلوموف ، — فلن أحصل على أية نتيجة :

فسيخدعني الفلاحون ، وسيقول وكيلي مايشاء ، — وأنا يجب أنْ أصدّقه ، لأنني لاأعرف شيئاً في هذه الامور ، وسيعطيني من النقود كما يخطر في باله . آه ، لو كان أندريي هنا : لتدبّر كل شيء ! — أضاف أبلوموف بأسى .

ابتسمت أولغا ابتسامة فيها الكثير من المرارة ، أي أنّ شفتيها ابتسمتا دون أنْ يبتسم قلبها : فقد كان مليئاً بالمرارة والأسى . بدأت تنظر عبر النافذة وتراقب بعين نصف مغمضة كل عربة كانت تمر .

— بالمناسبة ، كان الوكيل المقترح يدير أملاكاً كبيرة ، — تابع أبلوموف ، لكن الإقطاعي طرده لسبب واحد فقط ، لأنه كان يتلعثم في الكلام .

سأعطيه وثيقة التوكيل ، والمخططات ؛ أما هو فيتولى شراء المواد اللازمة لبناء البيت ، ويقوم بتحصيل الأموال المترتبة على الفلاحين ، وببيع المحصول ، ويجلب النقود ، وعندئذ . . . سأكون في غاية السعادة ياعزيزتي أولغا ، — قال أبلوموف وهو يقبّل يدها — . فأنا لا أستطيع أن أذهب الى القرية وأتركك ! فلن أتحمّل فراقك ؛ أنْ أذهب الى القرية لوحدي ، ضرب من المستحيل ! لكن يجب أنْ نكون الآن في غاية الحذر .

نظرت إليه بعينين واسعتين وهي تنتظر ماسيقوله .

ـ أجل ، ـ بدأ أبلوموف يتكلم ببطء ، وهو يكاد أن يتعلثم ، ـ يجب أنْ تكون لقاءاتنا نادرة ؛ البارحة كانوا يتحدثون عن لقائنا الأخير . . . وأنا لاأريد ذلك . . .

فعندما سينهي الوكيل المقترح بناء المنزل ، وينظم شؤون القرية ويجلب النقود . . . وهذا كله لابد أنه سينتهي في سنةٍ ما قادمة . . . سيتوحّد شملنا ، ونقول لعمتك كل شيء ، و ... و ... و ...

نظر الى أولغا : فرآها فاقدة الوعي . رأسها مائل الى الجانب ، وشفتاها الزرقاوان المنفرجتان قليلاً ، تكشفان عن أسنانها . لم يلاحظ أبلوموف ، في غمرة الفرح وفرط الأحلام ، كيف امتقعت أولغا ولم تعد تسمع تتمة عبارته وهو يقول : « عندما تنتظم الأمور ، ويتدبر وكيل القرية المقترح كل شيء » .

ـ أولغا ! . . . ياإلهي ، لقد غشي عليها ! ـ قال أبلوموف ، ثم رنّ الجرس .

ـ لقد أغمي عليها ، ـ قال أبلوموف مخاطباً كاتيا ، التي كانت تسرع راكضة ـ . أسرعي ، واجلبي الماء ! . . . والكحول النقي المنشّط .

ـ ياإلهي ! كانت الصباح كله فرحة سعيدة .. . ماذا جرى لها ؟ ـ همست كاتيا وهي تجلب من على طاولة عمتها الكحول النقي المنشّط وكأساً من الماء .

صحت أولغا من غيبوبتها ، ونهضت بمساعدة من كاتيا وأبلوموف من على كرسيها ومضت وهي تترنح الى غرفة نومها .

ــ سيمرّ ذلك كله بسلام ، ــ قالت أولغا بصوت خافت ضعيف ، فما حدث ، لم يكن إلا نتيجة تعب الأعصاب ، فلم أنم البارحة جيداً . كاتيا ، أغلقي الباب ، أما أنتَ ، فأرجو أن تنتظرني : سأستريح قليلاً ثم أخرج بعد ذلك .

بقي أبلوموف وحيداً ، ينصت الى الباب ، وينظر عبر شق القفل ، لكنه لم ير ويسمع شيئاً .

بعد نصف ساعة ، سار في الممشى حتى وصل غرفة الخادمات وسأل كاتيا : « كيف حال الآنسة » ؟ .

ــ لابأس ، ــ قالت كاتيا ، ــ استلقَتْ وطلبت مني أن أخرجَ ، دخلت بعد ذلك ، فوجدتها جالسة على الكرسي .

ذهب أبلوموف من جديد الى غرفة الاستقبال ، ونظر عبر شق الباب ، لكنه لم ير أو يسمع شيئاً . أخذ يقرع الباب باصبعه برفق ، لكنه لم يسمع جواباً .

جلس واستغرق في التفكير . كم غيرّ أفكاره في هذه الساعة والنصف ، وكم من قرارات جديدة توصل إليها . ثم استقر رأيه أخيراً على قرار ، يقضي بأنْ يذهب الى القرية بنفسه مع وكيله المقترح ، بعد أن يكون قد نال موافقة عمة أولغا على الخطوبة قبيل سفره ، وبعد أن يكلّف إيفان

غير اسيمو فيتش بالبحث عن شقة ، حتى أنه قرّر أنْ يستدين نقوداً . . . من أجل العرس .

يمكن تسديد الدين هذا من ثمن المحصول . لكن ، لماذا اكتأب فجأة؟ آه ، يا إلهي ، كيف تتغير الأمور بلحظة واحدة ! وهناك في القرية ، سيتمكن بمساعدة وكيله المقترح من جباية الأموال من الفلاحين ؛ وأخيراً سيتلقى رسالة من شتولتس الذي سيرسل له أيضاً مبلغاً من المال ثم يأتي بعد ذلك وينظم له أبلوموفكا ، ويشقّ الطرق في كل مكان ، ويبني الجسور والمدارس . . . ثم يذهب الى هنا بصحبة أولغا ! . . .

يا إلهي ! تلك هي السعادة ! . . . كيف لم يخطر ذلك كله بباله !

أحس فجأة بالسرور والإرتياح ؛ أخذ يتنقّل من زاوية لأخرى . حتى أنه فرقع أصابعه فرحاً ، وكاد أنْ يصرخ من فرط السعادة ، واقترب من باب غرفة أولغا وناداها بصوت خافت ، لكن بهيج :

ــ أولغا ، أولغا ! لن تتوقعي مطلقاً ، ما سأقوله لك ! ــ قال أبلوموف وهو يلصق وجهه بالباب . حتى أنه قررّ أنْ يبقى اليوم عندها ، وينتظر صمتها . « سنخبرها اليوم بكل شيء وسأذهب من هنا بعد أن أكون قد أصبحت عريساً » .

انفتح الباب بهدوء ، وظهرت أولغا : نظر إليها فخارت عزيمته فجأة ؛ غار فرحه كما يغور الماء : فقد بدت أولغا وكأنها قد تقدّمت في السن قليلاً . كانت شاحبة ، لكن عينيها تبرقان ؛ وفي شفتيها المُطْبَقَتَيْن ، وفي كل قسمة وملمح من ملامح وجهها كانت تكمن

حياة داخلية متوترة ، لكنها مقيّدة قسراً بهدوء وسكون ٍ متصنّعين .

قرأ في عينيها قراراً لم يعرف كنهه بعد ، لكنّ قلبه كان يخفق بطريقة ٍ لم يعهدها من قبل أبداً . فهو لم يعش طيلة حياته كلها لحظات كهذه .

ـ اسمعي ياأولغا ، لاتنظري إليّ بهذه الطريقة : فأنا خائف ! ـ قال أبلوموف . ـ لقد غيّرت رأيي : يجب أن أتصرّف بطريقة مغايرة تماماً لما قلت . . . ـ تابع بعد ذلك ، وهو يخفض تدريجياً نبرة صوته ، ويتوقّف محاولاً أنْ يقف بدقة على حقيقة الفكرة الجديدة ، التي تلتمع في عينيها وشفتيها وحاجبيها الناطقين ، ـ يجب أن أسافر بنفسي الى القرية مع وكيلي المقترح . . . كي أقوم هناك . . . ـ أكمل أبلوموف بصوت لايكاد يسمع .

ظلت أولغا صامتة وهي تنظر إليه بامعان ، كما لو أنها تنظر الى شبح .

كان يخمّن بارتباك الحكم الذي ينتظره ، فأخذ قبعته لكنه تباطأ في السؤال : كان يخشى أن يسمع القرار الحاسم ، غير القابل للإستئناف . بيد أنه تغلب على نفسه في نهاية المطاف .

ـ هل فهمت ؟ . . . سألها أبلوموف بصوت متهدّج .

أحنت رأسها بهدوء ووداعة ، مبدية علامة الموافقة . ومع أنه قد خمّن فكرتها من قبل ، إلا أنه ظلّ واقفاً أمامها وقد أصبح وجهه ممتقعاً .

كانت فاترة الهمة بعض الشيء ، لكنها بدت هادئة ، جامدة

كتمثال من حجر . كان ذلك نوعاً من الهدوء غير العادي ، الذي يسيطر على المرء عندما تمنحه فجأة ، فكرة مركزة أو شعور بالهزيمة ، كل القوة ليتمالك نفسه ، لكن للحظة واحدة فقط .

كانت تشبه الجريح ، الذي يضع يده على جرحه ، كي يكمل قول ماهو ضروري ، ثم يموت بعدها .

ــ إنك تكرهينني ، أليس كذلك ؟ ــ سأل أبلوموف .

ــ لماذا ؟

ــ بسبب كل ما فعلته بك . . .

ــ وماذا فعلت ؟

ــ أحببتك : وهذا إهانة لك !

ابتسمت أولغا بشيء من الشفقة .

ــ لانك أخطأت . . . ــ قال أبلوموف وهو ينكّس راسه ، ــ لكنك ربما تغفرين لي ذنبي ، عندما تتذكرين بأنني قد حذّرتك وقلت لك ، بأنك ستخجلين من ذلك وتندمين . . .

ــ لست نادمة . فأنا متألمة ، متألمة جداً . . . ــ قالت أولغا ، ثم توقفت كي تلتقط أنفاسها .

ــ حالتي أسوأ ، ــ أجاب أبلوموف ، ــ لكنني أستحق ذلك : أما أنت فلماذا تتعذبين ؟

ــ إنه الكبرياء ، ــ قالت أولغا ، ــ فلقد علّقت الآمال كثيراً على قواي ــ تلك هي خطيئتي ، لا تلك التي ذكرت أنت . لم أكن أحلم

بذلك بسبب حداثة سنّي أو جمالي : كنت أعتقد بأنني أستطيع أنْ أبعث الحياة فيك ، فتعيش من أجلي ، ـ لكنك متّ منذ زمن بعيد ، لم أكن أتوقع بأنني على خطأ .

بل كنت أعلق الآمال وأنتظر صحوتك . . . وهاهي النتيجة ! . . . أكملت اولغا بصعوبة وهي تتأوه .

صمتت ثم جلست بعد ذلك .

ـ لاأستطيع أن أقف : فساقاي ترتجفان . مافعلته كان يمكن أن يبعث الحياة في الحجر ، ـ تابعت أولغا بصوت متعب فاتر . ـ لن أفعل بعد الآن شيئاً ، ولن أخطو خطوة واحدة في هذا الاتجاه ، حتى أنني لن أذهب الى حديقة ليتيني : فذلك كله بلا جدوى ـ لأنك ميت ! ألست موافقاً ياإيليا ؟ ـ أضافت بعد ذلك وصمتت ـ . هل ستلومني يوماً لأنني قد تركتك بدافع من كبريائي ؟

هزّ برأسه مجيباً بالنفي .

ـ ألست مقتنعاً بأنه لم يبق لدينا أي أمل ، أو أي شيء يمكن أنْ نفعله ؟

ـ أجل ، ـ قال أبلوموف ، ـ تلك هي الحقيقة . . . لكن ، ربما . . . ـ أضاف بعد ذلك بتردّد ، ـ بعد سنة . . . ـ كانت تنقصه العزيمة لأنْ يوجه الضربة القاضية الى سعادته .

ـ هل تعتقد حقاً بأنك ستستطيع خلال عام أنْ تنظّم حياتك وأمورك ؟ ـ سألت أولغا .

— فكّرْ ! تأوّه واستغرق في التفكير وهو يصارعُ نفسه . قرأت أولغا هذا الصراع على وجهه .

— اسمَعْ ، — قالت أولغا ، — كنت أنظر منذ قليل الى صورة أمي فمنحتني القوة وراحة الضمير .

تذكّرْ ياإيليا ، بأننا لسنا أطفالاً نمزح : المسألة تتعلق بحياتنا كلها ! سل نفسك بصراحة وقل ، وأنا سأصدقك ، لاني أعرفك : هل ستصبح كما أنا راغبة بأن تكون ؟ إنك تعرفني وبالتالي فانك تدرك جيداً ماأريد أنْ أقول . فاذا قلت بجرأة وتبصر نعم — فاني سأتراجع عن قراري : وهاهي يدي أمدّها لك لنذهب حيث تشاء ، الى الخارج ، الى القرية ، وحتى الى ناحية فيبورغ !

ظلّ أبلوموف صامتاً .

— ليتك تعرفين كم أحبك . . .

— ماأنتظره ليس تأكيدات في الحب ، أنتظر جواباً مختصراً ، — قاطعته أولغا بلهجة جافة تقريباً .

— لاتعذبيني ياأولغا ! — توسّل أبلوموف بكآبة .

— ماذا تقول ياإيليا ، هل أنا على حق أم لا ؟

— أجل ، — قال أبلوموف بجلاء وحسم ، — إنك لعلى حق !

— آنَ أنْ نفترق ، — قررت أولغا ، — قبل أنْ يدركونا ويروا كم أنا مضطربة !

بقي أبلوموف دون أنْ يغادر مكانه .

— لو تزوجت ، ماذا ستفعل بعد ذلك ؟ — سألت أولغا .

ظل أبلوموف صامتاً .

— ستستغرق في النوم أكثر فأكثر مع كل يوم يمرّ — أليس هذا صحيحاً ؟ وأنا ؟

أنت ترى من أنا ؟ لن أكلّ ، ولن أتعب من الحياة أبداً ، لكن حياتي معك ، وأنت على هذا النحو ستقتصر فيما لو تزوجنا على أن نعيش ونحن ننتظر عيد الميلاد ، وبعد ذلك عيد الصوم الكبير ، وزيارة أحدٍ ما ، دون أنْ نفكر أو نأبه بشيء آخر ، ثم نهجع الى النوم ونشكر الله ، لأنّ اليوم انقضى بسرعة ، ثم نتوسل الى الباري بأنْ نستيقظ صباحاً لتتحقق رغبتنا في آن يكون اليوم مثل البارحة ... ذلك هو مستقبلنا أليس كذلك ؟ هل هذه حياة ؟ سأذبل ، سأموت . . . من أجل أي شيء ياإيليا ؟ هل ستكون سعيداً . . .

أخذ أبلوموف يطوف السقف بعينيه بألم ؛ كان يريد أنْ يغادر المكان ، ويهرب — لكن ساقيه لم تدتثلاله. كان يريد أنْ يقول شيئاً ما ، لكن فمه كان جافاً ، ولسانه لايتحرك ، وصوته حبيساً . مدّ لها يده .

— لم يبق إذن . . . — بدأ أبلوموف بصوتٍ خافتٍ متهدج ، لكنه لم يستطع أن يتابع بالكلام ، فتابع بالنظرة ، إلا أنْ أقول : « اغفري لي ! » .

كانت أولغا تريد أن تقول شيئاً ما ، لكنها لم تقل شيئاً ، فمدّت له يدها ، لكن يدها سقطت قبل أنْ تلامس يده ؛ كانت تريد أن تقول

أيضاً : « وداعاً » ، لكنّ صوتها انقطع في منتصف الكلمة واتخذ لهجة متكلفة حزينة ، أما وجهها فقد تغيّرت ملامحه بفعل التشنّجات ، ثم وضعت يدها ورأسها على كتفه وأجهشت في البكاء . كأنّ أسلحتها قد أفلتت من يدها . فالذكية هلكت ــ إذ ظهرت عوضاً عنها المرأة ، عديمة الحماية أمام المصيبة .

ــ وداعاً ، وداعاً . . . ــ أفلتت منها وسط البكاء والدموع .

صمت أبلوموف ، وهو يستمع بخوف الى دموعها ، دون أنْ يجرؤ على أنْ يحول دونها . لم يشعر بالشفقة عليها ولا على نفسه ، لأنّ وضعه بالذات كان يبعث على الشفقة . تهاوت على الكرسي ، فوضعت المنديل على وجهها ، الذيأسندته على الطاولة،وراحت تبكي بمرارة . لم تكن دموعها تسيل كتيار ساخن انبجس فجأة بسبب ألم وقتي عارض كما كان يحصل معها في الحديقة ، بل كانت تفيض باردة بكآبة وغزارة كمطر الخريف الذي يروي الحقول بلا رحمة .

ــ أولغا ، ــ قال أبلوموف أخيراً ، ــ لماذا تعذّبين نفسك ؟ أنت تحبينني ، ولن تتحملي فراقنا ! اقبليني كما أنا ، أحبيّ كل ماهو جيد إيجابي في نفسي .

هزّت أولغا رأسها ، دون أن ترفعه ، مجيبة بالرفض .

ــ كلا . . . كلا . . . ــ حاولت جاهدة أنْ تتكلم بعد ذلك ، لاتخشَ عليّ ، ولا على مصيبتي . فأنا أعرف نفسي : سأفرّج عن نفسي بالبكاء ، وبعدها لن أعود إليه .

أما الآن فدعني أبكي . . . اذهبْ . . . آه ، كلا ، تمهلْ ! .
فالله يعاقبني ! ... فأنا أتألم ، آه كم أشعر بالألم . . . هنا ، في قلبي ...
تجدّد النحيب والبكاء .

— وإذا مابقي الألم ، — قال أبلوموف ، — وساءت صحتك ؟
فهذه الدموع تضرّك . أولغا ، ياملاكي الطاهر ، لاتبكِ . . . انسِ
كل شيء . . .

— كلا ، دعني أبكي ! فأنا لاأبكي على المستقبل ، بل على الماضي
قالت بصعوبة ، — « فقد شحب وانقضى » . . . لست أنا الذي يبكي ،
بل الذكريات ! الصيف . . . الحديقة . . . هل تذكر ؟ كم ينتابني
الحزن عندما أتذكر ممرات الحديقة ، وغصن الليلاك . . . لقد نبت ذلك
كله في قلبي : فكم يؤلمني اقتلاعه ! . . .

أخذت تهز رأسها بقنوط وهي تنتحب وتردّد :

— آه ، كم يؤلمني ، كم يؤلمني ذلك !

— واذا مامُتِّ ؟ — قال أبلوموف فجأة بذعر — فكّري ياأولغا . .

— كلا ، قالت مقاطعة ، وهي ترفع رأسها محاولةً أنْ تنظر إليه
عبر الدموع :

لقد عرفت منذ أمد غير بعيد فقط ، بأنني أحببت فيك ماكنت أريد
أنْ يكون ؛ أحببت فيك مادلّني عليه شتولتس ، وما كنا نحاول أنْ
نبعثه فيك .

أحببت أبلوموف المستقبل ! إنك وديع ، نقيّ ياإيليا ، إنك لطيف رقيق . . . إنك كالحمامة تخفي رأسك تحت جناحك ــ ولاتريد شيئاً آخر ؛ إنك على استعداد لأن تمضي حياتك كلها وأنت تهدل تحت السطح... أما أنا فلست هكذا : ذلك قليل جداً بالنسبة لي ، أريد شيئاً ماآخر أيضاً ، لكنني لم أعرفه بعد ! أتستطيع أن تقول لي ماهو هذا الشيء ، الذي أنا بحاجة اليه ، وتمنحني كل مايؤهلني لأن أصبح . . . أما الرقة .

ارتخت ركبتا أبلوموف ، فجلس على الكرسي ثم مسح بمنديله يديه وجبينه .

كان الكلام قاسياً ؛ جرحت أبلوموف في الأعماق : كأنها قد حرقته في الداخل ، بينما أحس ببرودتها من الخارج .

ابتسم رداً على ذلك ، بطريقة تبعث على الرثاء والشفقة ، ابتسم بحياء وألم ، كما يبتسم المتسوّل الذي يُلام على عُريه . جلس خائر القوى وابتسامة الوهن والعجز ترتسم على وجهه ، تحت وطأة الإضطراب والإهانة ، التي لحقت به . كانت نظرته الهامدة تقول بوضوح : « أجل إنني فقير ، مسكين ، معدم . . . اضربيني ، اضربيني ! . . . »

أدركت أولغا فجأة ، كم من السمّ في كلامها ، فارتمت عليه بلهفة .

ــ اغفر لي ، ياصديقي ! ــ قالت برقة ، كما لو أنّ الدموع هي التي كانت تتكلم ــ فأنا لاأعي ماأقول : إنني مجنونة ! انسَ كل ماقلت ، فلنعد كما كنا سابقاً ، وليبق كل شيء على ماكان عليه . . .

ـ كلا ! ـ قال أبلوموف وقد نهض فجأة ، وهو يبعدها عنه بحركة منه ـ لن يبقى ! لاتنزعجي ، لأنك قلت الحقيقة : فأنا أستحق ... ـ أضاف بكآبة .

ـ إنني حالمة ، متوهمة ! ـ قالت أولغا ـ فأنا بائسة . ماالسبب الذي يجعل الآخرين سعداء ، ماالسبب الذي يجعل سونيتشكا سعيدة . . .
بدأت تبكي .

ـ اذهب ، ـ قالت أولغا باصرار ، وهي تحاول أنْ تمزّق منديلها المبلل بيديها . ـ لن أتحمل ذلك ، فما زال الماضي عزيزاً على قلبي . . .

حجبت وجهها من جديد بالمنديل ، وهي تحاول أنْ تكتّم بكاءها .

ـ لماذا أتلِف كل شيء ؟ ـ سألت أولغا فجأة ، وهي ترفع رأسها فجأة . ـ من دعا عليك ياإيليا ؟ ماذا فعلت ؟ فأنت طيب ، ذكي رقيق ، نبيل . . . ومع ذلك . . . تهلك ! ماالذي أهلكك ؟ أما من تسميةٍ لهذا الشر . . .

ـ يوجد ، ـ قال بصوت لايكاد يسمع .

نظرت إليه متسائلة بعينين مليئتين بالدموع .

ـ الأبلوموفية ! ـ همس أبلوموف ثم أخذ يدها ، وأراد أنْ يقبّلها ، لكنه لم يستطع ، فاكتفى بأنْ ضغطها على شفتيه، وسالت دموعه السخية الحارة على أصابعها .

ثم استدار وانصرف ، دون أن يرفع رأسه أو يريها وجهه .

— ١٢ —

الله وحده يعلم الى أين ساقته قدماه ، وماذا فعل طيلة ذلك اليوم ، لكنه عاد الى البيت في ساعة متأخرة من الليل . كانت صاحبة الشقة أول من سمع قرع البوّابة ونباح الكلب ، فأيقظت أنيسيا وزاخار من نومهما وقالت بأنّ سيدهما قد عاد .

لم يلاحظ إيليا إيليتش تقريباً كيف نزع عنه زاخار ثيابه وحذاءه ووضع عليه — الرداء !

— ماهذا ؟ — سأل أبلوموف بمجرّد أنْ رأى الرداء .

— جلبته صاحبة الشقة اليوم : فقد غسلته وأصلحته ، — قال زاخار .

بقي أبلوموف بنفس الوضعية ، التي جلس بها على الكرسي . كان الظلام يلف كل ما حوله . لكن أبلوموف ظل جالساً وهو يستند على يده ، دون أن يلحظ الظلام أو يسمع دقات الساعة الجدارية . كان ذهنه غارقاً في لجة أفكار مبهمة مرعبة تتدافع بفوضى ، كما تتدافع الغيوم في السماء ، بدون هدف أو ارتباط ، — دون أنْ يمسك بتلابيب أي منها .

كان قلبه محطماً : فقد همدت الحياة فيه مدة من الزمن . أما العودة الى الحياة والمجرى الطبيعي للأمور ، واستعادة القوى ، وزوال الضغط النفسي المتوتر فكان يتمّ ببطء .

كانت الصدمة قاسية جداً ، فلم يكن أبلوموف يشعر بجسده ، ولا بالتعب ، أو بأية حاجة . كان يستطيع أن يستلقي أياماً بكاملها بلا حراك

كالحجر ، أو يسير أياماً بكاملها وهو يتحرك ويسافر دونما توقف ، كالآلة تماماً .

يتكوّن في الإنسان تدريجياً ، عبر مسار صعب معقد ، إما نوع من الخضوع والإذعان للقدر والمصير — وعندئذ يدخل الجسم رويداً رويداً وببطء في مرحلة يستعيد فيها نشاطه وانطلاقه ، — وإما نوع من الانهيار الناجم عن صدمة حطمت كيانه ، لايستطيع بعدها أن ينهض ويقف على قدميه بثبات ، وذلك تبعاً للمصيبة ، وللإنسان أيضاً .

لم يكن أبلوموف يعي أين يجلس ، حتى انه لم يكن يعرف إنْ كان جالساً ، أم لا :

كان ينظر غريزياً ، دون أن يلاحظ انبلاج الصبح ؛ كان يسمع دون أن يميّز سعال العجوز وتقطيع البوّاب للحطب ، والجلبة والأصوات في البيت ؛ كان ينظر دون أن يرى كيف كانت صاحبة البيت وأكولينا تذهبان إلى السوق ، وكيف كانت تلوح الصرة عبر السياج .

لم تستطع الديكة ، ولا نباح الكلب ، أو صرير البوابة أن يخرجه من ذهوله ، كما لم يستطع أن يفعل ذلك أيضاً أزيز السماوار ، ولا قرقعة الفناجين .

أخيراً ، وفي الساعة العاشرة صباحاً فتح زاخار باب حجرة أبلوموف بالصينية ، وركله ، كالعادة ، بساقه الى الخلف كي يغلقه ، فأخطأه كالعادة ، لكن الصينية على الرغم من ذلك لم تسقط من يده : فقد اكتسب مهارة بفعل الممارسة الطويلة ، زد على ذلك ، أنه كان يعرف بأنّ أنيسيا

تنظر من الخلف إليه ، فما إن يسقط شيئاً ما ، حتى تندفع على الفور ، لتلتقطه ، فتزيد من إرباكه بتصرفها هذا .

وصل بسلام الى السرير ، وهو يدفن لحيته في الصينية ويخضنها بقوة وعندما نوى أنْ يضع الفناجين على الطاولة بالقرب من السرير ليوقظ سيده ، ألقى نظرة على الفراش فوجده غير مدعوك إطلاقاً ، لأنّ سيّده لم يكن موجوداً فيه .

ارتعش زاخار ، فسقط فنجان على الأرض ثم تبعته علبة السكر . أصبح يتلقّف الأشياء في الجوّ ، فمالت الصينية وسقطت بقية الأغراض لكنه تمكّن أن يبقي على الصينية ملعقة صغيرة فقط .

ــ ماهذه الورطة ؟ ــ قال زاخار وهو ينظر كيف كانت أنيسيا تلتقط قطع السكر ، وشقف الفنجان والخبز ــ أين سيدي ؟

أما سيده فكان جالساً على الكرسي ، وقد تغيرت ملامح وجهه تماماً. نظر زاخار إليه وهو فاغر الفم .

ــ إيليا إيلييتش ، لماذا أمضيت الليل كله جالساً على الكرسي ، ولم تتمدّد ؟ ــ سأل زاخار . أدار أبلوموف رأسه ببطء ، ونظر بشرود الى زاخار ، والى القهوة المسكوبة على الأرض ، والى قطع السكر المتناثرة على السجادة .

ــ وأنت لماذا كسرت الفنجان ؟ ــ قال أبلوموف ، ثم اقترب بعد ذلك من النافذة . كان الثلج يندف فيغطّي الأرض بكثافة .

ــ الثلج ، الثلج ، الثلج ! ــ كان أبلوموف يردّد بإلحاح وبلا

معنى ، وهو ينظر الى الثلج ، الذي يغطي السياج والأشجار والأحواض في الحديقة بطبقة سميكة . . .

إنه يغطي كل شيء ! ـ همس أبلوموف بعد ذلك ، ثم تمدد في الفراش ونام نوماً حزيناً ثقيلاً . كان النهار قد تجاوز منتصفه ، عندما أيقظه في اليوم التالي صرير الباب المفضي الى القسم ، الذي تشغله صاحبة الشقة ، فقد امتدت من الباب يد عارية تحمل صحناً ؛ وفي الصحن كانت توجد فطيرة يتصاعد منها البخار .

ـ اليوم هو الأحد ، ـ قال الصوت بلطف ، ـ وهو اليوم الذي نعدّ فيه الفطائر عادةً ، هلاّ تذوقتها ؟

لكنه لم يجب بشيء ؛ فقد كان مصاباً بالحمّى .

* * *

الجـــزء الرابع



— ١ —

مضى عام من الزمن على مرض إيليا إيلييتش . فقد أحدث هذا العام كثيراً من التغيرات في مناطق مختلفة من هذا العالم : فهناك منطقة غدت مضطربة ، وهناك أخرى غدت هادئة ؛ هناك نجم قد أفل ، وهناك آخر قد سطع ، هناك اكتشاف جديد لأسرار الحياة والكون ، وهناك منازل وأجيال قد ذهبت هباء منثوراً . هنا يمحي ويزول نمط حياة قديم ، وهنا يضاف نمط جديد ؛ هناك تزول نفس بشرية أدركتها الشيخوخة ، وهنا تنبت كالحشيش الأخضر ، حياة أخرى جديدة فتية . . .

ومع أنّ الأيام والليالي في منزل الأرملة بشينيتسينا ، الكائن في ناحية فيبورغ تجري بسكون وهدوء ، وفق نمط رتيب من الحياة ، دون أن تحدث أية تغييرات مفاجئة عاصفة ، ومع أنّ فصول السنة الأربعة تكرر دورتها على نفس الوتيرة ، التي سارت عليها في السنة الفائتة ، فإن الحياة على الرغم من ذلك كله لم تتوقف ، بل ظلت تتبدّى وتتغير في ظواهر وأشكال مختلفة ، لكنها كانت تتغير تدريجياً وببطء شديد ، بطريقة تشبه التغيرات التدريجية الجيولوجية البطيئة ، التي تطرأ على الكرة الأرضية.

فهناك جبال قد تكونت تدريجياً على امتداد قرون وقرون ،بينما يُرسّب البحر هنا منذ قرون عديدة ، الطمي ، أو يتراجع عن الشاطىء محدثاً زيادة في التربة .

استرد إيليا إيلييتش عافيته . أما وكيل أعماله زاتيرتي فقد سافر الى القرية وأرسل الى أبلوموف ثمن محصول القمح ، بعد أن اقتصّ لنفسه نصيبه ومكافأته .

وفيما يتعلق بجباية الأموال المترتبة على الفلاحين ، فقد كتب زاتيرتي بأنّ تحصيلها الآن أمر مستحيل ، لأنّ قسماً من الفلاحين قد أفلس تماماً ، بينما غادر القسم الآخر الى مناطق مختلفة لايعرفها . لكنه الآن بصدد جمع معلومات عنهم وعن أماكن تواجدهم .

وعن الطريق والجسور ، فقد كتب زاتيرتي ، بأنّ الفلاحين يعتبرون أنّ صعود الجبل وعبور الوادي على أقدامهم وصولاً الى البلدة ذات المركز التجاري ، لأفضل بألف مرة من أنْ يعملوا في شق الطريق وبناء الجسور .

باختصار ، فان المعلومات والنقود ، التي تلقاها إيليا إيلييتش ، كانت مرضية بالنسبة له تماماً ، لذا فانه لم يعد يشعر بأية حاجة للسفر ، وأصبح من هذه الناحية مرتاح البال ، حتى مثل هذا الوقت من العام المقبل .

اتخذ زاتيرتي قراراً أيضاً بشأن بناء البيت الجديد : فبعد أنْ حدّد مع المهندس المعماري كمية المواد الضرورية ، أصدر أمراً الى وكيل

القرية بأنْ ينقل الخشب مع بداية الربيع ، كما أمره ببناء عنبر للآجر ، وهكذا لم يبق على أبلوموف إلا أنْ يسافر الى القرية في الربيع ، فيبارك المشروع ويبدأ العمل تحت إشرافه .

من المفترض ، حتّى ذلك الوقت أن تكون الأموال المترتبة على الفلاحين قد جبيت ومخطط إعادة تنظيم القرية قد انتهى ، وبالتالي فان تغطية النفقات يصبح أمراً ممكناً .

بعد المرض ، ظلّ إيليا إيليتش جهماً مدة طويلة من الزمن ؛ كان يبقى ساعات طويلة مستغرقاً في شروده وتأمله ، حتّى أنه لم يكن يجيب أحياناً على أسئلة زاخار ؛ لم يكن يلاحظ كيف كان زاخار يُسقِط الفناجين على الأرض ، ولا كيف كان يترك الغبار على الطاولة ؛ لم يكن أبلوموف يلاحظ كيف كانت الأرملة بشينتسينا ، صاحبة الشقة تحمل إليه الفطائر في أوقات الأعياد ، فتراه غارقاً في الدموع .

لكنّ نوعاً من عدم المبالاة المفرطة والخمول الشديد أخذا يملآن تدريجياً مكان المصيبة التي ألّمت به . كان إيليا إيليتش ينظر ساعات عديدة الى الثلج المتساقط ، فيتأمل الكثبان الثلجية المتراكمة في فناء المنزل والشارع ؛ كان يتأمل الأشجار والحديقة وخمّ الدجاج وبيت الكلب والأحواض ، وقد كساها الثلج بطبقة سميكة بيضاء ؛ كان يتأمّل الأهرامات العالية من الثلج التي تكونت فوق السياج ، فقد بدا له أنّ كل شيء قد مات وتكفّن بكفن أبيض ناصع .

كان يصغي طويلاً الى قرقعة طاحونة القهوة ، والى صرير سلسلة

الكلب ونباحه ، والى الدقات المنتظمة للساعة الجدارية ، والى الصوت المنبعث من زاخار وهو ينظف حذاء سيده .

كانت صاحبة الشقة تدخل اليه كالعادة ، لتقترح عليه شراء شيء ما ، أو تذوّق بعض الأطعمة ، كما كان طفلاها يتردّدان إليه أيضاً : فيتحدّث الى الطفلة بلطف ، بينما كان يعطي دروساً للطفل ، ويصغي إليهما وهما يقرآن ويبتسم رغماً عنه ، وهو يستمع الى ثرثرتهما الطفولية .

أصبح أبلوموف يعود الى حياته الطبيعية السابقة تدريجياً .

انقضى الخريف والصيف والشتاء بفتور وملل . لكنّ أبلوموف كان ينتظر من جديد الربيع ويحلم بالسفر الى القرية .

أصبح يسمع تغريد القبّرات في آذار ، وفي نيسان فتحت نوافذ حجرته بعد أنْ أُعلن بأنّ الجليد قد ذاب في نهر النيفا ، وأنّ الربيع قد أقبل .

أصبح أبلوموف يتجوّل في الحديقة ، ثم صاروا يزرعون الخضراوات في الحاكورة ؛ ومرّت أعياد مختلفة كانوا يحتفلون بها باقامة التزيينات ، وشرب الشاي في الغابة .

ومنذ مطلع الصيف ، بدأ الحديث في البيت يدور حول عيدين كبيرين مقبلين :

يوم إيفانوف وهو عيد تسمية أخ صاحبة الشقة ، ويوم القديس إيليا وهو عيد تسمية أبلوموف . كان الحدثان موضع اهتمام كبير لسكان البيت جميعاً . وعندما كانت صاحبة الشقة تعثر في السوق على قطعة

رائعة من لحم العجل أو تنجح في إعداد الفطائر ، فانها كانت تقول : « كم سيكون رائعاً أنْ أعثر على قطعة رائعة كهذه من لحم العجل ، وأنْ أنجح في إعداد فطائر شهية كتلك في يوم إيفانوف أو إيليا ! » .

كان الحديث يدور أيضاً عن النزهة التي يقومون بها سنوياً سيراً على الأقدام الى مصانع بوروخف ، وعن العيد الذي يحتفل به في كولبينا عند مقبرة سمولني .

وتحت النوافذ أصبح يُسْمَع من جديد قرق الدجاجة المفرخة ، وصأصأة فوج جديد من الصيصان ؛ وصارت تُعَدُّ الفطائر وأنواع الفطر الطازجة والخيار المملح ؛ وسرعان ماظهر توت الأرض .

ــ أحشاء الطيور جيدة الآن ، ــ قالت صاحبة الشقة لأبلوموف ، لكن لحم السلمون الطازج متوفر : إذ يمكن تحضير حساء بارد من الخضراوات والسمك يومياً .

كان قسم تدبير الشؤون المنزلية يتم بنجاح في منزل بشينيتسينا ، ولم يكن سبب ذلك عائداً فقط لكون أغافيا ماتفييفنا ربة بيت نموذجية ، أو لأنّ هذا هوميدان مواهبها وإبداعاتها فحسب ، بل لأنّ إيفان ماتفييتش موخوياريف كان خبيراً أيضاً في شؤون الطعام والمأكولات . كان عديم الاكتراث فيما يتعلق بملبسه :

إذ كان يرتدي البزة سنوات طويلة ، وعندما كان يذهب ليشتري بزّة أخرى جديدة ، فانه كان يدفع ثمنها بكثير من الأسى والأسف ؛ لم نعلّق بدلته يوماً على مشجب ، بل كان يرميها كيفما اتفق في ركن من

أركان غرفته . لم يكن يغيّر ملابسه الداخلية إلا يوم السبت فقط ، على الرغم من أنه كان عاملاً ؛ لكن فيما يتعلق بشؤون المائدة ، فانه كان مبذّراً لايأبه بالنفقات والمصاريف .

كان ينطلق في هذا المجال من منطق كَوْنِهِ لنفسه منذ أنْ دخل الخدمة : « مافي البطن ، لايراه الناس ، — وبالتالي فلن يثرثر أحد عمّا في أحشائك ، لكن ماإنْ يرتدي المرء بزة جميلة جديدة ، وينتعل حذاءً لمّاعاً ، ويحمل سلسلة ثمينة — حتى يثير ذلك كله أحاديث الناس وفضولهم » .

بسبب ذلك كله ، كانت مائدة بشينيتسينا عامرة بأشهى المأكولات . إذ كان يوجد عليها لحم عجل من الصنف الاول ، وأشهى أنواع لحم الطيور . كان إيفان ماتفييتش يطوف السوق كله في بعض الأحيان ، ويشمشم ككلب الصيد بحثاً عن أطيب المأكولات ، فينبش من تحت الارض أفضل فرخة ، دون أنْ يأبه بالثمن مهما كان .

كان ينتقي أجود الخمور ، يخبئها بنفسه ، ويخرجها بنفسه ، لكن أحداً لم ير يوماً على الطاولة إلا دورق الفودكا فقط ، المنقوعة بورق عنب الثعلب ، أما النبيذ فكان يرشفه في حجرته فقط .

عندما كان يتوجه بصحبة تارانتييف الى مكان بيع السمك ، كان يخبىء في جيب معطفه دائماً ، زجاجة من نبيذ الماديرا ، عالي الجودة ، وعندما كانا يشربان الشاي في « الحانة » ، فانه كان يحمل معه مشروب الروم .

كان التبدل التدريجي البسيط يطال الجميع ، وبالمناسبة ، فانه كان

يطال أنيسيا أيضاً : فالميل المتبادل بينها وبين صاحبة الشقة ، تحوّل الى علاقة وثيقة لاتنفصم ، والى كيان واحد .

ماإنْ لاحظ أبلوموف مساهمة صاحبة الشقة في تدبير شؤونه المنزلية واهتمامها الواضح بها ، حتى اقترح عليها ، ذات مرة بأنْ تأخذ على عاتقها مهمة المؤونة والمأكل . وتريحه من كافة الهموم والمشاغل .

غمر الفرح وجهها ، حتى أنها ضحكت عن وعي . لقد اتسع سلطانها ونفوذها : فأصبحت تسيطر على مطبخين جمعتهما في مطبخ واحد كبير ! زد على ذلك أنّ أنيسيا أصبحت خاضعة لإدارتها .

تحدثت صاحبة الشقة الى أخيها بشأن الموضوع وفي اليوم التالي تم نقل كل موجودات مطبخ أبلوموف الى مطبخ بشينيتسينا ، فقد انتقلت فضيات المائدة والآنية العائدة لمطبخ أبلوموف الى خزانتها ، أما أكولينا فجُرِّدَتْ من رتبة طباخة ونُقِلتْ لتقوم بدور المشرفة على شؤون الطيور والبستنة .

أخذت الأمور تتّخذ أبعاداً كبيرة ، فشراء السكر والشاي والمؤونة والخيار المملّح ومنقوع التفاح والمربيات — صار يتّخذ أحجاماً كبيرة .

تطورت أحوال أغافيا ماتفييفنا ، أما أنيسيا فكانت تبسط جناحيها كأنثى العقاب وأصبحت الحياة تجيش وتسير كالنهر .

أصبح أبلوموف يتناول طعام الغداء في الساعة الثالثة مع الأسرة ، أما أخ صاحبة الشقة فكان يتغدّى أكثر الأوقات لوحده في المطبخ ، لانه كان يأتي من عمله الوظيفي في وقت متأخر جداً .

أصبحت صاحبة الشقة نفسها ، هي التي تحمل الشاي والقهوة الى أبلوموف وليس زاخار . أما الاخير فكان يزيل الغبار إنْ أرادذلك، وإنْ لم يرد فانّ أنيسيا كانت تندفع كالإعصار ، وهي تلبس مئزرها في بعض الأحيان ، فتنظّف غرضاً هنا وآخر هناك ، وتمسح كل شيء بسرعة وترتّب وتنظم الأشياء وتختفي ؛ أما صاحبة الشقة فكانت تذهب بنفسها الى حجرة أبلوموف عندما يخرج الى الحديقة ليتمشّى ، لتلقي نظرة فترى الفوضى تعمّ أرجاء الغرفة ، فتهز برأسها وتغمغم شيئاً ما ، ثم ترتّب الوسادة وتنظر الى غطائها وتهمس من جديد قائلة بوجوب تبديله ، بعدها تنظف النوافذ وتتفحّص ظهر الأريكة وتنصرف .

كان الإنزلاق التدريجي لقاع البحر ، وتآكل الجبل ، وتراب الرواسب ، مع إضافة بعض الإنفجارات البركانية الخفيفة ـ يحدث أكثر مايحدث في حياة ومصير أغافيا ماتفييفنا ، مع أنها كانت أقلّ من لاحظ ذلك . أصبح ذلك ملحوظاً فقط ، بفضل النتائج العديدة ، غير المتوقعة ، التي لاتنتهي .

لماذا تغيّرت منذ بعض الوقت ؟

فاذا ماحرقت أكولينا اللحم بعض الشيء عندما تقليه ، واذا ما سلقت السمك حتى الإهتراء ، واذا مانسيت أن تضع الخضراوات في الحساء ، فانّ أغافيا ماتفييفنا كانت تكتفي سابقاً بأنْ توجّه لهابصرامة، لكن بهدوء وكبرياء، ملاحظة ثم تنسى الأمر، أما إذا حدث الشيء ذاته الآن ، فإنها تنتفض من خلف الطاولة وتهرع الى المطبخ ، وتمطر أكولينا بوابل من الشتائم المُرّة ، حتى أنها تبدي انزعاجها من

أنيسيا ، وفي اليوم التالي تشرف بنفسها لتتأكد من وضع الخضار في الحساء ، ومن عدم اهتراء السمك .

ربمّا يقال بأنها تفعل ذلك كله لأنها تستحي أنْ تبدو في عيني شخص غريب مهملة في تدبير المنزل ، الذي يتركّز نشاطها كله عليه ، وتبرز أنفتها وإحساسها بالكرامة من خلاله .

حسناً . لماذا كانت عيناها سابقاً تتغامضان منذ الساعة الثامنة مساء ، ثم تنام في التاسعة ، بعد أن تنوّم طفليها وتتأكد من إطفاء النور في المطبخ ومن سلامة وترتيب كل شيء — ، فلا يستطيع أي مدفع إيقاظها بعد ذلك قبل السادسة صباحاً ؟

أما الآن فعندما يذهب أبلوموف الى المسرح أو لزيارة إيفان غيراسيمو فيتش ، ويتأخر في العودة ،فانه لايغمض لها جفن وتتقلّب من جنب الى آخر وترسم علامة الصليب ، وتتنهّد وتغمض عينيها — لكنّ النوم لايأتيها !

ماإن تسمع صوتاً أو وقع أقدام في الشارع حتى ترفع رأسها ، لابل تنقضّ من فراشها في بعض الأحيان ، فتفتح الكوة الصغيرة وتصغي وهي تقول لنفسها : أليس هو ؟

وإذا ماسمعت طرقاً على البوابة فانها تنخطف بسرعة الى المطبخ وتوقظ زاخار وأنيسيا وترسلهما ليفتحاها .

ربّما يقال ، بأنّ تصرفها هذا يعكس وجدانها النامي كربة بيت ، لاتريد أنْ تحلّ الفوضى في منزلها ، لاتريد أنْ ينتظر المستأجر في الشارع

ليلاً الى أنْ يسمع البوّاب السكّير الطرق على البوابة ليفتحها ، وأخيراً لاتريد أنْ يستمرّ الطرق خشيةَ أنْ يوقظ طفليها . . .

حسناً . لماذا لم تكن تسمح لأحد ، إبّان مرض أبلوموف ، بالدخول الى حجرته ، التي فرشتها بالسجاد واللبابيد ، وأسدلت الستائر على النوافذ ؛ لماذا كانت ، وهي المرأة الوديعة الطيبة تستشيط غضباً إذا ماصرخ فانيا وماشا أو ضحكا بصوتٍ عالٍ ؟

لماذا كانت تجلس الليالي بالقرب من سريره ، دون أن تعتمد على زاخار وأنيسيا ، فلا ترفع بصرها عنه حتى الصباح ، وبعدها ترمي معطفها على كتفيها وتكتب بأحرف كبيرة على ورقة : « إيليا » ، ثم تهرع الى الكنيسة ، فتضع الورقة في المحراب ، كي يتذكره ويحمي صحته ؛ ثم تنزوي في ركن وتجثو على ركبتيها وتخر ساجدةمدّةطويلة ، ثم تركض بعدها الى السوق ومنه الى البيت وهي قلقة ملهوفة ، وما إنْ تصل حتى تفتح باب حجرته وتسأل أنيسيا بصوت خافت :

ــ كيف حاله ؟

قد يقال ، بأنّ ذلك كله لايعدو كونه مجرّد نوع من الشفقة والعطف وهما صفتان بارزتان ملازمتان للمرأة .

حسناً . لماذا غدت نحيلة عندما أصبح أبلوموف إبّان تماثله للشفاء ، جهماً لايتحدث إليها إلاّ نادراً ، ولا يتطلّع الى غرفتها ولايهتم بما تفعله ولا يمازحها أو يضحك معها ، ــ لماذا غدت بعد ذلك كله واجمة لاترغب بشيء ولاتعي شيئاً : تطحن القهوة لكنها لاتتذكر ماتفعل ،

فتضع فيها كميات كبيرة من الهيل تتجاوز الحدّ المعقول وتمزجها ، فيفسد طعم القهوة ، ويصبح شربها مستحيلاً . لماذا غدت ساهمة لاتسمع أحداً ولاتهتم بشيء .

فلم تعد تأبه أو تلاحظ إن كانت أكولينا قد سلقت السمك جيداً ؛ لم تعد تهتم بوصول أخيها من عمله ، فتظل صامتة جالسة بلا حراك كالحجر دون أنْ تتحدث إليه .

لم يصدف أنْ رآها أحدٌ ما سابقاً واجمة ، ساهمة ، فذلك ليس من سماتها : كانت تمضي الوقت كله بالحركة والنشاط والعمل ، تراقب بحيوية كل شيء ، أما الآن فقد أصبحت فجأة هامدة لاتميّز شيئاً فتخلط بين نباح الكلب والطّرْق على البّوابة .

لكنْ ، ما إن استعاد أبلوموف حيويته وعادت البسمة على وجهه ، ما إن بدأ ينظر إليها بلطف ويمازحها ويضحك معها — كما كان يفعل سابقاً ، — حتى استعادت عافيتها وحيويتها ، فأصبحت نشيطة تتابع شؤون المنزل بحيوية ومرح ، دون أن تكلّ : فتمضي اليوم كله بنشاط ودقة وانتظام وهي تسير برشاقة وانسجام ، تتكلم بصوت ليس منخفضاً ولا عاليا ، تطحن القهوة وتضع السكر الضروري المناسب فيها ، تقوم بأعمال الخياطة والتطريز بسهولة ويسر فتسير الإبرة في يدها بانتظام واتزان كعقرب الساعة تماماً ، تنهض برشاقة وهي تعرف وجهتها ، فتذهب الى المطبخ وتفتح الخزانة فتُخْرِج شيئاً ما ثم تعود — ، إنها تفعل

ذلك كله بدقة وانتظام بسهولة ، دونما كلل أو ملل ، فهي أشبه ماتكون بالآلة الدقيقة المضبوطة التي تمّ اختبارها بنجاح .

أما الآن وبعد أن صار إيليا إيلييتش فرداً من العائلة ، فقد أصبحت تتصرّف بطريقة أخرى . تراها جالسة بهدوء تخيط شيئاً ما ، فينادي أبلوموف زاخار فجأة ، كي يجلب له القهوة — فتصبح أغافيا ماتفييفنا في المطبخ بسرعة البرق لتحضّر القهوة بنفسها على أحسن وجه .

وعندما يتم تحضير وجبة أبلوموف المفضّلة تراها تشرف بنفسها على كل شيء ، فترفع غطاء الطنجرة وتشمّ رائحة الطعام وتتذوقه ، ثم تضعها بنفسها على النار . وعندما تُعِدّ شيئاً ما له ، فانها تفعل ذلك بأقصى مايمكن من الإهتمام والنشاط لدرجة أنّ العرق يتصبب منها .

لقد اكتسبت أعمالها المنزلية كلها من كوي وغسيل وخياطة وتحضير طعام معنى جديداً وهدفاً محدداً : تأمين أقصى مايمكن من الراحة لإيليا إيلييتش . كانت تجد في ذلك سابقاً ، نوعاً من الواجب ، أما الآن فقد أصبح الأمر بالنسبة لها متعةً مابعدها متعة .

فقد أصبحت تعيش الآن على طريقتها بسعادة وارتياح .

لكنها لم تكن تعرف معنى ذلك كله ولم تطرح السؤال على نفسها يوماً ، بل اجتازت ذلك كله بلا ريب ، بسرور ومتعة ، دونما مقاومة أو هلع ، دونما متاعب أو تنبؤات مخيفة ، دونما لعب على الأعصاب .

كانت أشبه بمن يعتنق فجأة ديناً آخر ، فأصبحت تبشّر به دون أنْ

تتبيّن ماهيّة هذا الدّين وشرائعه ، دون أنْ تحاكم الأمر ، فسلّمت به تسليما .

أحبّت أبلوموف ببساطة وعفوية فاستولى عليها هذا الحب ، كما تستولي الحمىّ على من يصاب بنزلة صدرية أو زكام قوي .

لم تكن تفترض شيئاً أو ترتاب بشيء : فاذا ما صارحها أحدٌ بذلك فانها ستعتبر ذلك خبراً تردّ عليه بالخجل والإبتسامة .

كانت تؤدي واجباتها تجاه أبلوموف بصمت ، فقد حفظت بدقة حالة كل قميص من قمصانه ، وكل جورب من جواربه ، أصبحت تعرف أيّ قدم يضع على الأرض أولاً عندما ينهض، ومتى سيظهر شحاذ العين ؛ أصبحت تعرف وجبات طعامه المفضلة والكميات التي يتناولها ، هل هو مسرور أم كئيب ، هل نام جيداً أم لا ، كأنّها تعرفه منذ زمن بعيد ، لكنها لم تسأل نفسها يوماً ماذا يمثل أبلوموف بالنسبة لها ولماذا تهتم به كل هذا الإهتمام .

وإذا سألها سائل هل تحبينه ، فانها ستبتسم من جديد وتردّ بالإيجاب ، لكنها كانت ستردّ بنفس الطريقة على السؤال ذاته فيما لو وُجّه إليها بعد أسبوع واحد فقط من معرفتها به .

لماذا أحبته بوجه خاص ، لماذا تزوجت دون أنْ تحبّ ، لماذا بقيت حتى سن الثلاثين دون أن تحبّ أحداً ، لماذا هبط عليها حب أبلوموف فجأة ؟

ومع أنّ الحب يعتبر شعوراً عارماً غريزياً ، يظهر ويتولّد كالمرض

إلا أنه كسائر الظواهر الأخرى يملك قوانينه وأسبابه . واذا كانت قوانينه لم تدرس حتى الآن بما فيه الكفاية ، بسبب أنّ الإنسان الغارق في الحب لايسمح له وضعه بأنْ يتابع ويدرس بعين متفحّصة ثاقبة ، كيف يتغلغل الحب في أعماق النفس البشرية ويستولي على الروح والأحاسيس ، وكيف يأسر المشاعر ويقيدها ، كيف تعمى العيون أولاً وكيف يبدأ القلب بالخفقان أكثر فأكثر ومتى ، كيف يظهر الإخلاص فجأة ويتبدّى الإستعداد للتضحية بالنفس ، كيف يختفي رويداً رويداً الإحساس بالأنا ليتحوّل الى الإحساس به أو بها ، كيف يخدر الذهن ويصبح مرهفاً الى أبعد الحدود ، كيف تستسلم الإرادة لأخرى غيرها ، كيف يميل الرأس وترتجف الركبتان وتظهر الدموع والحمىّ . . .

لم تر أغافيا ماتفييفنا من قبل ، إلاّ نادراً أناساً مثل أبلوموف واذا ماسبق أن رأتهم ، فان ذلك كان يحدث عن بُعْد ، ولربما تكون قد أُعْجِبَتْ بهم ، لكنهم لم يعيشوا في وسطها وبيئتها ، بل في وسط آخر ولم تقدها الصدفة أبداً للاقتراب منهم والعيش معهم .

لم يكن إيليا إيليتش يمشي كما كان زوجها المرحوم بشيتسين يمشي بسرعة وبخطوات صغيرة ، لم يكن يكتب المذكرات والمعاملات لرسمية بلا انقطاع ، ولا يرتعد خوفاً من التأخر عن عمله ، ولاينظر الى الجميع بخنوع ، بل ينظر الى الجميع ، والى كل شيء بجرأة وبحرّية كأنه يطالبهم بالخضوع والإمتثال له .

لم يكن وجهه فظاً ولا أحمر ، بل أبيض ناعماً رقيقاً ، يداه ليستا

حمراوين كيدي أخيها ، بل كانتا بيضاوين صغيرتين ، يجلس ويضع ساقاً فوق أخرى ويسند رأسه بيده - إنه يفعل ذلك كله بهدوء وكياسة وبلا تكلّف بطريقة لاتشبه الطريقة التي يتكلم بها أخوها وتارانتيف وزوجها ، حتى أنها لاتفهم الكثير مما يقوله ، لكنها تحسّ بأن كلامه ذكي ، رائع غير عادي ، أما الجزء الذي تفهمه من كلامه ، فتحسّ بأنه يختلف عما يقوله الآخرون .

ملابسه الداخلية رقيقة ناعمة ، يبدلها كل يوم ، يغتسل بصابون تنفث منه رائحة عطرة ، يقلّم أظافره - فهو نظيف ، رائع ، ليس بحاجة لأن يفعل شيئاً ، وهو لايفعل ، فالآخرون ينفّذون كل مايريد : فلديه زاخار وثلاثمائة نفساً على شاكلته أيضاً . . .

إنه سيد نبيل ، متألق ساطع ! زد على ذلك ، أنه طيب . يسير بليونة وبرفق ، يداه تلامسان جبينه برفق وبنعومة عندما يسير ، أما زوجها فكانت يداه ترتطمان بجنبيه عندما يمشي ، محدثة صوتاً قوياً . ينظر ويتكلم برقة وبطيب منقطع النظير . . .

إنها لم تفكر بذلك كله ولم تدرك شيئاً منه ، لكن إذا ماحاول المرء أنْ يغوص بعمق ليكتشف التأثير الذي أحدثه أبلوموف في حياتها ، فانه لابدّ له أن يتّضح بأن الإنطباع المتكوّن في أعماقها هو على النحو الذي سبق ذكره .

كان إيليا إيليتش يدرك أهمية الأثر الذي أحدثه وجوده في هذا المنزل ، بدءاً من أخ صاحبة الشقة وانتهاءً بالكلب المربوط بالسلسلة ،

الذي أصبح يحصل بعد ظهور أبلوموف ، على ثلاثة أمثال ماكان يحصل عليه سابقاً من العظام ، لكنّ أبلوموف لم يكن يدرك كم كان تأثيره عميق الجذور ، ولم يعرف أهمية النصر الذي أحرزه عندما استحوذ على قلب صاحبة الشقة .

كان يعتبر اهتمامها الزائد بطعامه وثيابه وحجرته نوعاً من إبداء الموهبة كربة بيت ، وهي السمة التي لاحظها منذ أول زيارة قام بها الى هذا المنزل ، عندما دخلت أكولينا الى الغرفة وهي تحمل ديكاً بيديها ، وعندما قالت لها صاحبة الشقة على الرغم من ارتباكها وحرجها ، بأنّ الدّيك الذي يجب أن تعطيه للبائع ، هو الديك الرمادي ، لاهذا .

لم يكن في مقدور أغافيا ماتفييفنا أن تتدلّل وتغازل أبلوموف ، ولا أن تلمح إليه عما يعتمل في داخلها ، لأنها لم تدرك أبداً شيئاً من ذلك ، ولم تفكر به مطلقاً ، كل مافي الأمر هو أنّ حبها كان يتجلّى باخلاص دائم أبداً .

لم تكن عينا أبلوموف مفتوحتين يقظتين إزاء علاقتها به ، فقد استمرّ يفهم الأمر على أنه نوع من السمة الفطرية الملازمة لها كربة بيت . وظلّ شعور بشينيتسينا خفياً على أبلوموف والآخرين ، وعليها بالذات .

كان شعورها خال من أي غرض أو طمع ، فقد وضعت الشمعة في الكنيسة من أجل أنّ يشفى أبلوموف من مرضه ، لكنه لم يعرف بذلك أبداً . كانت تجلس في الليل عند طرف سريره من ناحية الرأس وتنصرف عند الفجر ، لكن الحديث لم يتطرق مطلقاً لهذا الأمر فيما بعد .

كانت علاقاته بها غاية في البساطة : كان يجد فيها وفي مرفقيها المتحركين أبداً ، وفي عينيها اليقظتين النشيطتين ، وفي حركتها الدائمة من الخزانة الى المطبخ ، ومن المطبخ الى المستودع ، ومنه الى القبو ، وفي خبرتها الواسعة بالشؤون المنزلية ، تجسيداً ومثالاً للحياة الهادئة التي ينشدها ، والتي ظلّت راسخة في ذهنه منذ الطفولة ، عندما كان يعيش في كنف والديه .

تذكر كيف كان أبوه وجدّه ، والأبناء ، والأحفاد والضيوف يجلسون أو يتمدّدون بهدوء كسول ، وهم يعرفون بأنّ عيناً يقظة ساهرة تحرسهم وأناساً يعملون في البيت من أجل راحتهم يطعمونهم ، يسقونهم ، يلبسونهم ، ينزعون لهم ثيابهم عند النوم ، يخيطون ملابسهم ويغمضون لهم أعينهم بعد الموت.هكذا كان حال أبلوموف هنا ، فهو يجلس على الأريكة ويرى بأنّ هناك من يتحرّك بنشاط في خدمته ؛ لم يكن يهمّ إن كانت الشمس ستسطع غداً ، أو إذا كانت الأعاصير ستهبّ في أرجاء المعمورة ؛ كلّ ماكان يهمّه هو أنْ يُقَدَّمَ الحساء واللحم المشوي له ، وأنْ تكون ثيابه نظيفة ، وأن تُزَال خيوط العنكبوت من على الجدران . لكنه لم يكن يعرف كيف كان يتمّ تنفيذ ذلك كله ، حتى انه لم يكلف نفسه عناء التفكير بتحديد مايرغب ويريد ، فكل شيء سيأتي إليه على طبق تحمله يدان عاريتان بيضاوان نظيفتان ، ثم يُقَدَّم له بنظرة وديعة تشعّ حيوية ، وبابتسامة تنمّ عن إخلاص عميق ، فقد استراح من رؤية يدي زاخار الوسختين ومن فظاظته وكسله .

كانت علاقته بصاحبة الشقة تزداد وثوقاً : لكنه لم يفكر بالحب أبداً حتى أنه لم يخطر في ذهنه ، أي أنه لم يفكر بذاك النوع من الحب الذي عاني منه منذ مدة غير بعيدة ، كما يعاني المرء من مرض الجدري والحصبة والحمى ، لدرجة أنه كان يرتعش عندما يتذكّره .

كان أبلوموف يقترب من أغافيا ماتفييفنا ، كما لو أنه يقترب من نار تمنحه الدفء أكثر فأكثر ، لكنه كان يتعذّر عليه أن يحبّها .

بعد الغداء ، كان أبلوموف يبقى في غرفتها عن طيب خاطر ويدخّن غليوناً ويراقب كيف كانت ترتب فضيات المائدة والآنية في الدولاب كيف كانت تُخْرج الفناجين وتصب القهوة ، كيف كانت تفضّله بوجه خاص على الآخرين ، فتغسل وتنشّف بكثير من العناية والإهتمام أحد الفناجين فتملأه أولاً ، وتقدّمه له وتنظر لتتأكد إن كان راضياً .

كان يركّز بصره بسرور على عنقها الممتلىء ومرفقيها المسبوكين ، عندما تفتح باب حجرتها ، حتى أنه كان يفتح لها الباب بحركة من ساقه عندما يتعذّر عليها ذلك ، ثم يمازحها ويداعب طفليها .

بيد أنه لم يكن يشعر بالضجر اذا ما انقضى الصباح دون أن يراها ، وبعد الغداء كان غالباً ماينصرف الى غرفته لينام ساعتين ، بدلاً من أن يبقى معها ، لكنه كان يدرك بأنّ الشاي سيكون جاهزاً في الغرفة نفسها عندما يستيقظ .

أهم مافي الامر ، أنّ ذلك كله كان يتم بهدوء : فلم يشعر بألم في قلبه ، ولم يضطرب يوماً أو يفكر بما ستقوله صاحبة الشقة ، ولاا

سيقوله لها ولا بجوابه على سؤالها ، ولا كيف ستنظر إليه . — فهو لم يشعر بشيء من هذا أبداً

لم يعرف الضجر والأرق ، ولا الدموع الحلوة أو المُرّة . فهو يجلس ويدخّن وينظر كيف تخيط وتطرّز ؛ أحياناً يقول شيئاً ما أو لا يقول ، لكنه كان يشعر بالهدوء والسكون فلا يحس بالحاجة لأي شيء ، ولايريد الذهاب الى أي مكان ، كأنّ كلّ ماهو ضروري موجود ومتوفر هنا .

لم تكن أغافيا ماتفييفنا تطالبه بشيء أو تحثّه على فعل أي شيء . لم تتولّد لديه أية رغبات أو ميول أو مطامح أو تضحيات أو آلام ، لأنّ الزمن يمضي وهو لايفعل شيئاً . لم يشعر بالألم لأنّ قواه قد وهنت ، أو بسبب أنه لم يفعل شيئاً ، لاخيراً ، ولا شراً ، أو لأنّه يعيش بكسل وخمول . . .

كأنّ يداً خفيّةً قد غرسته كما يُغْرَس نبات نفيس ، غالي الثمن بعيداً عن القيظ في الظل ، وفي منجى من المطر ، وهي تداعبه وتدلّله .

— ماأرشق أنا ملك وأنت تدسّين الإبرة ياأغافيا ماتفييفنا ! — قال أبلوموف . إنك تخفضين رأسك الى الأسفل كثيراً ، لدرجة أنني أخشى أن تخيطي أنفك مع التنورة .

ضحكت أغافيا ماتفييفنا .

— سأقطب هذه التقطيبة فقط ، ثم نتناول بعدها طعام العشاء ، — قالت بصوت خافت وكأنها تسرّ لنفسها .

ـ ماذا عندنا على العشاء ؟ ـ سأل أبلوموف .

ـ كرنب مخمّر مع لحم سمك السلمون . ـ فلم نعثر على لحم الزجر : إذ بحثت عنه في كل مكان ، لكنني لم أجده وكذلك أخي . عندنا أيضاً لحم عجل وعصيدة من الارز على النار .

ـ هذا رائع ! كم أنت لطيفة ياأغافيا ماتفييفنا !

ـ ماذا فعلت حتى أستحق هذا الثناء ؟ ألا تسمع جيشاناً على النار ؟ ـ أجابت ، وهي تفتح باب المطبخ .

ثم أكملت خياطتها بعد ذلك وقطعت الخيط بأسنانها وطوت ماكان بيديها وحملته الى غرفة النوم .

إذن ، ها هوذا قد اقترب منها كما يقترب من النار الدافئة ؛ ذات مرة اقترب منها كثيراً جداً لدرجة أنه كاد أنْ يصل إلى الحريق تقريباً ، أو الى اللهب على أقل تقدير .

كان يتمشى في غرفته ثم التفت الى باب غرفة صاحبة الشقة ، فرأى مرفقيها يتحركان بسرعة غير عادية .

ـ أراك تعملين دائماً ! ـ قال أبلوموف وهو يدخل حجرتها . ـ ماهذا ؟

ـ إني أدق القرفة ، ـ أجابت صاحبة الشقة وهي تنظر الى الجرن ، كما لو أنها تنظر الى الهاوية ، وهي تدق الهاون بلا رحمة .

ـ وإذا أعقتك عن العمل ؟ ـ سأل أبلوموف وهو يمسك مرفقيها ويمنعها عن الدق .

ــ اتركني ! يجب أن أجرش السكر أيضاً .

ظل ممسكاً بمرفقيها ، وقد أصبح وجهه عند قفا رأسها .

ــ ماذا تقولين ، فيما لو . . . أحببتك ؟

ضحكت .

ــ هل كنت ستحبينني ! ــ سأل من جديد .

ــ ولماذا لاأحبك ؟ فالله أمر بأن نحبّ الجميع .

ــ واذا ماقبّلتك ؟ همس أبلوموف وهو ينحني فوق عنقها فأصبح نَفَسُهُ يلفح رقبتها .

ــ ليس هو موعد الأسبوع المقدس الآن ، ــ قالت ضاحكة .

ــ هيّا ، قبّليني !

ــ ليمنحنا الله طول العمر ، سيأتي عيد الفصح ونقبّل بعضنا ، ــ قالت دون أن تندهش أو ترتبك أو تخجل ، وهي تقف أمامه بلا حراك كالفرس التي تُكْدن . لامست شفتاه رقبتها برفق .

ــ اسمع ، سأكمل دقّ القرفة وإلاّ لن يبقى لديك شيء نضعه في الكعك ، ــ لاحظت أغافيا ماتفييفنا .

ــ ليست مصيبة ! ــ أجاب أبلوموف .

ــ ماهذه البقعة التي ظهرت على ردائك من جديد ؟ ــ سألت باهتمام وهي تمسك طرف الرداء . ــ يبدو أنها بقعة زيت . ــ ثم شمّت البقعة . ــ من أين هذه البقعة ؟

ــ لاأعرف من أين جاءتني .

ـ لعلك تكون قد اصطدمت بالباب ؟ ـ خمّنت أغافيا ماتفييفنا فجأة . ـ البارحة قمنا بدهن مفاصل الأبواب بالزيت . كانت تصدر صريراً طوال الوقت .

ـ انزعه واعطني إياه بسرعة ، سآخذه وأغسله .

ـ كم أنت طيبة ياأغافيا ماتفييفنا ! ـ قال أبلوموف وهو يرمي بتكاسل الرداء من على كتفه . ـ اسمعي ما سأقول : لنذهب إلى القرية ونعيش فيها : فهنالك أعمال منزلية أيضاً ! هناك كل شيء : الفطر ، حب التوت المربيات ، بيت الطيور ، وزريبة مواشي . . .

ـ كلا ، لماذا ؟ اختتمت كلامها وهي تتنهد . ـ هنا وُلِدْت ، وعشت ، وهنا يجب أنْ أموت .

نظر إليها وقد انتابه شيء من الإضطراب ، لكن البريق كان غائباً من عينيه ، فلم تكونا مليئتين بالدموع ، ولم تحلق روحه عالياً طلباً للتضحية . كل ماكان يريده هو أنْ يجلس على الأريكة دونْ أنْ يحوّل نظره عن مرفقيها .

ـ ٢ ـ

انقضى يوم إيفان باحتفال مهيب . وفي اليوم السابق للعيد لم يذهب إيفان ماتفييتش الى عمله ، بل أمضاه متنقلاً من البيت الى المدينةوبالعكس، وفي كلّ مرة كان يحمل معه إلى البيت تارةً كيساً وأخرى سلة .

عاشت أغافيا ماتفييفنا ثلاثة أيام على القهوة فقط ، فوجبات الطعام لم تكن تُحضَّر إلاّ لإيليا فقط أما الآخرون فكانوا يكتفون بتناول أي شيء .

عشية العيد ، لم تنم أنيسيا مطلقاً . لكنّ زاخار عوّض الفرق ، فنام بالنيابة عنها وعن نفسه ، وكان ينظر الى هذه التحضيرات والإستعدادات باستخفاف وبشيء من الإزدراء .

ـ هكذا كانوا عندنا في أبلوموفكا يُحَضّرون لكل عيد ، ـ قال زاخار مخاطباً طبّاخيْن كانا قد استُدعيا من مطبخ الكونت . ـ كانت الأطعمة متوفرة بكثرة ، بحيث لايمكن إحصاء كمياتها !

كان السادة يأكلون طيلة يوم العيد ، واليوم الذي يليه . أما نحن فكنا نمضي خمسة أيام ونحن نأكل ماتبقى من الطعام . ماإنْ ينتهي كل شيء ، حتى يأتينا الضيوف ، ـ فنبدأ من جديد ، بتحضير المأكولات ، أما هنا فالتحضيرات تجري مرة واحدة في العام فقط !

على المائدة ، قدّم زاخار الطعام لأبلوموف قبل الجميع ، ولم يكن ليقبل بحالٍ من الأحوال ، بأنْ يقدّمه أولاً الى أيّ سيد آخر ، كائناً من كان .

ـ سيدي عظيم ، ـ كان يقول متباهياً ، ـ أما هؤلاء فمن يكونون بالنسبة له !

أما تارانتييف الجالس في الطرف ، فلم يكن زاخار يقبل بأنْ يقدّم له الطعام بوجه عام ، لكنْ في بعض الأحيان كان يضع له في الصحن كمية من الطعام يحدّدها هو ، أي زاخار .

كان زملاء إيفان ماتفييتش في العمل البالغ عددهم ثلاثين شخصاً موجودين جميعاً . على الطاولة كانت توجد كميات كبيرة من السمك

النهري المقلي والفراريج المحشوة والبوظة والنبيذ الجيد ـ كان ذلك كله يرمز بمهابة الى الإحتفال السنوي بالعيد .

قبيل الانتهاء أخذ الضيوف يتعانقون ويثنون على المضيف ،ثم بدأوا بعد ذلك يلعبون الورق . أخذ موخياريف ينحني ويردّ على ثنائهم شاكراً ، وهو يقول بأنه على أتمّ الإستعداد لانْ ينفق ثلث مرتبه من أجل إكرام الضيوف وإسعادهم .

عند الصباح ، أخذ الضيوف ينصرفون الى بيوتهم وعاد الهدوء من جديد يخيمّ في المنزل ، واستمر الأمر على هذه الحال الى أنْ أقبل يوم عيد إيليا .

في هذا اليوم لم يتواجد عند أبلوموف من الضيوف القادمين من خارج المنزل إلاّ إيفان غير اسيموفيتش وألكسييف الوديع الصامت ، الذي وجه الدعوة في بداية هذه الرواية الى إيليا إيليتش لحضور احتفالات الأول من أيار . لم يكتفِ أبلوموف بأنْ لاتكون وليمته أقلّ شأناً من وليمة إيفان ماتفييتش فحسب ، بل إنه بذل كل جهده أيضاً من أجل أنْ تكون الأكثر أهميةّ وذوقاً في هذه المنطقة كلها . فبدلاً من الفطائر السميكة الدهنية ظهرت فطائر بدون حشوة ، خالية من الشحم والدهن، كما قُدّم المحار قبل الحساء ، ظهرت الفراريج الشهية مع الفطر ، وشرائح طرية من اللحم ، وخضراوات شهية وحساء انكليزي .

كان يُزيّن وسط الطاولة أناناس كبير يحيط به المشمش والكرز والدراق . وفي الأواني كانت توجد أزهار رائعة .

ماإن بدأ الحضور بتناول الحساء ، وما إن لعن تارانتييف الطباخ لابتكاره هذه الفطائر الخالية من الحشوة ، حتى سُمع نباح الكلب وقرقعة السلسلة المربوط بها .

دخلت عربة فناء الدار وأخذ أحدٌ ما يسأل عن أبلوموف . فغَرَ الجميع أفواههم — لابد أنْ يكون أحد معارفي السابقين قد تذكر عيد تسميتي — قال أبلوموف ، — .

قل إنني لست موجوداً في البيت ! — قال أبلوموف مخاطباً زاخار بهمس .

أراد زاخار أن يدخل في نقاش مع أبلوموف ، لكنه وجد نفسه فجأة أمام شتولتس :

— أندريي إيفانيتش ، — صاح زاخار بسرور ، لكن بصوت أجش.

— أندريي ! صرخ أبلوموف بصوتٍ عالٍ ثم ارتمى عليه معانقاً .

— أتيت في الوقت المناسب في وقت الغداء ! — قال شتولتس ، — أطعمني ، إنني جائع . لم أهتد إليك إلا بشقّ النفس !

— هيّا ، هيّا ، اجلس ! — قال أبلوموف بكثير من الحركة وهو يُجلِسه بالقرب منه .

كان تارانتييف أول من ذهب واختفى في الحديقة ، لدى ظهور شتولتس ، ثم تبعه إيفان ماتفييتش . أما صاحبة الشقة فقد تحركت من مكانها أيضاً .

— لقد أزعجتكم ، — قال شتولتس وهو ينهض .

ـــ لماذا ذهبتما ؟ إيفان ماتفييتش ! ميخا أندرييتش ! ـــ صاح أبلوموف .

أجلس صاحبة الشقة مكانها ، لكنه لم يقدر على إعادة إيفان ماتفييتش وتارانتييف الى الطاولة .

ـــ من أين أنت آتٍ ؟ كم سيطول بقاؤك ؟ ـــ أخذت الإسئلةتنهال.

عاد شتولتس الى بطرسبورغ لمدة أسبوعين فقط ، لقضاء بعض الأشغال ، ثم يتوجه بعدها إلى القرية . ومن ثم الى كييف ، ومنها لايدري الا الله الى أين .

لم يتحدث شتولتس إلا القليل حول الطاولة ، لكنه أكل كثيراً : فقد اتضح أنه كان جائعاً حقاً . أما الآخرون فكانوا يأكلون بصمت منذ وقت طويل .

بعد الغداء ، عندما رُفع كل شيء عن الطاولة أمر أبلوموف أنْ يبقوا الشمبانيا وزجاجة من المياه المعدنية ، ثم بقي مع شتولتس علىانفراد.

صمتا بعض الوقت . ظل شتولتس ينظر إليه طويلاً وبإمعان .

ـــ إيليا ، ماذا ستحكي لي ؟ ـــ قال شتولتس أخيراً ، لكن اللهجة كانت تنمّ عن كثير من التساؤل واللوم لدرجةأنّ أبلوموف اضطر أنْ ينظر الى الأسفل ويصمت .

ـــ هكذا إذن ، « أبداً » ؟

ـــ ماذا تعني بـ « أبداً » ؟ ـــ سأل أبلوموف ، وكأنه لايتذكر شيئاً .

ـــ نسيت : « إما الآن أو أبداً ! »

ـــ لم أعد الآن . . . كما كنت آنئذ ياأندريي ، ـــ قال أبلوموف

أخيراً ، ـ فقد أصبحت أحوالي والحمد لله بخير : لم أعد أنام بخمول ، وخطتي انتهت تقريباً ، كما اشتركت في مجلّتين ، قرأت تقريباً كل الكتب التي تركتها لي . . .

ـ لماذا لم تسافر الى الخارج ؟ ـ سأل شتولتس .

ـ السبب الذي منعني عن السفر الى الخارج ، هو . . .

ارتبك أبلوموف .

ـ أولغا ؟ ـ قال شتولتس وهو ينظر إليه بوضوح .

احمرّ أبلوموف .

ـ هل سمعت . . . أين هي الآن ؟ ـ سأل أبلوموف بسرعة ، وهو ينظر الى شتولتس. ظلّ شتولتس ينظر إليه وهو يسبر أعماقه دون أن يجيب .

ـ سمعت بأنها سافرت الى الخارج مع عمتها ، ـ قال أبلوموف ، بعد أن . . .

ـ بعد أن اكتشفت خطأها ـ أكمل شتولتس .

ـ هل عرفت . . . ـ قال أبلوموف ، دون أن يستطيع إخفاء ارتباكه .

ـ أعرف كل شيء ، ـ قال شتولتس ، ـ حتى غصن الليلاك ، ألست قاسياً ، خجلاً من نفسك ياإيليا ؟ ألا تشعر بالندم والأسف ؟

ـ لاتذكّرني ! ـ قاطعه أبلوموف بسرعة ، ـ كم عانيت عندما رأيت الهوّة ، التي تفصل بيني وبينها ، وعندما اقتنعت بأنني لست جديراً

. بها . . . آه ياأندريي ! اذا كنت تحبني حقاً ، فأرجوك ألاّ تذكّرني بما مضى وتعذبني : لقد حذّرتها منذ زمن بعيد من الخطأ ، الذي ارتكبته ، لكنها لم تكن تريد أن تصدقني . . . حقاً ، إنني لست مذنباً كثيراً . . .

— إنني لاأتهمك ياإيليا ، — تابع شتولتس بودّ وليونة ، — لقد قرأت رسالتك ، فأنا المذنب أولاً ، وأولغا ثانياً ، وأنت أخيراً ، مع أنك لاتتحمّل إلاّ القليل ، القليل من المسؤولية .

— كيف حالها الآن ؟ — سأل أبلوموف بحياء .

— حزينة ، تبكي دائماً وتلعنك . . .

مع كل كلمة كان الخوف ، والألم ، والرعب والندم يظهر على وجه أبلوموف .

— ماذا تقول ياأندريي ! — قال أبلوموف وهو ينتفض من مكانه — ناشدتك الله ، أنْ نذهب الآن في هذه اللحظة : كي أخرّ على قدميها ساجداً وأطلب الصفح منها . . .

— اجلس بهدوء ! — قاطع شتولتس وهو يضحك ، — إنها مسرورة لابل سعيدة ، فهي تسلّم عليك . حتى أنها كانت تريد أنْ تكتب إليك لكنني أقنعتها ألاّ تفعل ذلك ، لأنّ هذا سيزيد من اضطرابك .

— الحمد لله ! — قال أبلوموف والدموع تكاد أنْ تطفر من عينيه ، كم أنا مسرور لذلك ! اسمحْ لي ياأندريي أن أقبّلك ، ولنشرب نخبها .

شرب كل منهما كأساً من الشمبانيا .

— أين هي الآن ؟

— في سويسرا . في الخريف ، ستذهب مع عمتها الى القرية . فقد أتيت الى بطرسبورغ من أجل إنجاز بعض الأوراق الرسمية المتعلقة بأملاكها . فالبارون لم ينجز كل مايتعلق بأملاكها ، كان يريد أنْ يخطبها .

— كيف يعقل ذلك ؟ أصحيح ماتقول ؟ ماذا كان رأيها ؟

— رفضت طبعاً ، فحزن وسافر ، وها أنا ذا الآن أكمل مالم ينجزه !

خلال أسبوع سأنجز كل شيء . قل لي : ماهي أخبارك ؟ لماذا أتيت الى هذه المنطقة النائية ؟

— أشعر بالهدوء والراحة هنا ياأندريي ، مامن أحد يزعجني عن ...

— عن أي شيء ؟

— عن العمل . . .

— لكنك لست في أبلوموفكا ، مع أن المكان أسوأ هنا ، — قال شتولتس وهو يلتفت الى ماحوله . — فلنذهب الى القرية ياإيليا .

— الى القرية . . . حسناً ، وربما ستبتدىء أعمال البناء هناك قريباً ، لكنْ لاتستعجلني كثيراً ، اعطني فرصة لأفكرّ . . .

— عدنا إلى التفكير ! أعرف أفكارك ، أعرف كيف كنت تفكر منذ سنتين بالسفر الى الخارج . لنذهب في الأسبوع المقبل الى القرية . . .

— كيف يمكن أنْ أذهب فجأة في الأسبوع المقبل ؟ — قال أبلوموف مدافعاً عن نفسه ، — يجب أن أستعد لذلك . . .

— لاحاجة للإستعداد . ماذا ستفعل ؟

صمت أبلوموف .

ــ صحتي سيئة ياأندريي ، ــ ضيق النفس يتعبني . شحاذ العين بدأ يظهر من جديد في عيني اليمنى تارة وفي اليسرى تارة أخرى ، كما اني احس بالألم في ساقي . أكون نائماً في بعض الأحيان ليلاً ، فأشعر وكأنّ أحداً يضربني على رأسي أو ظهري فأنتفض مستيقظاً .

ــ اسمعْ ياإيليا ، أقول لك بمنتهى الجد بأنه يتوجب عليك أنْ تغيّر نمط حياتك وإلا ، فإنك ستتخيل العفاريت في نومك . يبدو أنّ النجاح المتوقّع سابقاً قد تلاشى : فلن أستطيع أن أفعل شيئاً من أجلك ، مادامت أولغا ، ذلك الملاك الطاهر قد عجزت عن أنْ تنشلك من المستنقع وتحملك على جناحيها وتحلق بك عالياً . لكنّ اختيار مجالٍ محدد صغير للنشاط ، وإعادة تنظيم أملاكك ، والتعامل مع الفلاحين ، والتعرف على شؤونهم وأحوالهم وترتيبها وحلها ، ــ فتلك أمور تستطيع إنجازها ، وينبغي أنْ تفعلها . لن أدعك تفلت منّي . فأنا لاأنطلق الآن من رغبتي فحسب ، بل أعمل أيضاً طبقاً لمشيئة أولغا : إنها تريدك أنْ تفعل ذلك كله ــ هل تسمعني ؟ ــ تريدك أنْ تنجز ذلك ، كي لاتموت كلياً ، كي لاتُدْفنَ حياً ، ولقد وعدتها بأنْ أنبشك من القبر . . .

ــ لم تنسني بعد ! هل أستحق ذلك ! ــ قال أبلوموف بشيء من الإنفعال .

ــ كلا ، لم تنسَ ، ويبدو أنها لن تنساك أبداً : فهي تنتمي الى

ذاك الطراز الوفيّ من النساء . يتوجب عليك أنْ تزورها في القرية مستقبلاً .

— ليس الآن ياأندريي ، ليس الآن ! فأنا أريد أن أنسى . آه مازال يوجد هنا . . . ثم أشار الى قلبه .

— ماذا يوجد هنا ؟ أليس هو الحب ؟ — سأل شتولتس .

— (متنهداً) كلا ، الخجل والحسرة ! .

— حسناً لنذهب الى قريتك : إذ يجب أنْ ترتّب أمورك ، فالآن هو صل الصيف ، والوقت الثمين يمضي .

— كلا ، يوجد عنديَ وكيل يقوم بترتيب أموري . إنه الآن في القرية ، لكنني سأسافر فيما بعد ، بعد أنْ أكون قد حزمت أمري وفكّرت ملياً .

أخذ يتباهى أمام شتولتس ويقول ، بأنه رتّب أموره كما ينبغي ، دون أنْ يبرح مكانه .

فوكيله يقوم بجمع الأوراق والمستندات المتعلقة بالفلاحين الهاربين وبيبع محصول القمح بأسعار ملائمة . فقد أرسل ألفاً وخمسمائة روبلاً ، وعلى الأرجح سيجني هذا العام الأموال المترتبة على الفلاحين .

أخذ شتولتس يضرب كفاً على كف لدى سماعه هذا الكلام .

— إنك تُنْهَبُ من كل جانب ! — قال شتولتس . — ألف وخمسمائة روبلاً من ثلاثمائة نفساً ! من هو معتمدك هذا ؟

ـ أكثر من ألف وخمسمائة . ـ صَحَّحَ أبلوموف ، ـ لقد استلم مكافأة لقاء بيعه محصول القمح . . .

ـ كم هو المبلغ الذي تقاضاه كمكافأة ؟

ـ لاأذكر ، لكنني سأريك ورقة الحسابات : إنها موجودة في مكان ما .

ـ إيليا ! لقد متّ وهلكت حقاً ! ـ ختم شتولتس الكلام ـ البس ثيابك ولنذهب لعندي !

حاول أبلوموف أنْ يبدي بعض الإعتراض ، لكنّ شتولتس أرغمه على الذهاب ، فكتب وثيقة توكيل باسمه ، وأجبر أبلوموف على توقيعها ، ثم أعلن بأنه سيستأجر أبلوموفكا وتبقى تحت تصرفه الى انْ يذهب إليها أبلوموف بنفسه ويعتاد على تصريف شؤونه الزراعية .

ـ ستتقاضى منيّ ثلاثة أضعاف ماتتقاضاه الآن ، ـ قال شتولتس ، لكنني لن أبقى مستأجراً عندك لمدة طويلة ، ـ فلديّ مشاغلي وأعمالي ، فلنذهب الى القرية الآن ، أو فلتتبعني قريباً . سأكون في قرية أولغا على مسافة ثلاثمائة فرسخاً عنك ، ثم أسافر الى عندك ، فأطرد وكيلك هذا وأنظمّ لك كل شيء ، ثم تتابع أنت الأمور . لن أدعك تفلت منّي .

تنهّد أبلوموف .

ـ آه من الحياة !

ـ الحياة ، مالها ؟

ـ إنها تعطب ولاتمنح الهدوء ! ليتني أنام . . . الى الأبد . . .

ــ أي ، ليتك تطفىء النور وتبقى في الظلام ! الحياة جميلة ياصديقي ! آه ياإيليا ! كم أتمنى لو كان تفلسفك مصيباً ! الحياة تمرّ بسرعة ، كلمح البصر ، وتأتي رغم ذلك لتطلب النوم وتتمناه ! فلتسطع الحياة أبداً ! آه ليت المرء يستطيع أنْ يعمّر مئتي أو ثلاثمائة سنة ! ــ ختم شتولتس كلامه ، ــ كم من الأمور كنّا نستطيع صنعهامنجديد !

ــ أنت مختلف عني ياأندريي ، ــ اعترض أبلوموف ، فلديك أجنحة للطيران : فأنت لاتعيش بل تطير ؛ لديك مواهب وإرادة ؛ لست بديناً ولا يظهر شحاذ العين عندك ، كما لايحكّك قفاأسك . فتكوينك مختلف عنيّ . . .

ــ كفى ! الإنسان خُلق ليتدبرّ أموره وحتى ليغيّر طبيعته ، أما أنت فقد أطلقت لبطنك العنان فأصبح كبيراً ، ثم تأتي لتقول بأنّ الطبيعة قد أرسلت لك هذا العبء ! كانت لديك أجنحة أيضاً ، لكنك رميتها .

ــ (بكآبة) أين هي أجنحتي ؟ــ فأنا لاأعرف أنْ أفعل شيئاً . . .

ــ تقصد بأنك لاتريد أنْ تفعل شيئاً ــ قاطعه شتولتس . ــ فلا يوجد إنسان لايستطيع أنْ يفعل شيئاً ؛ أقسم أنه لايوجد !

ــ أنا لاأعرف شيئاً ! ــ قال أبلوموف .

ــ كيف لاتعرف أن تكتب عريضة إلى البلدية ، أو رسالة الى صاحب الشقة ، التي كنت تسكنها سابقاً ، في الوقت الذي كتبت فيه رسالة مطولة الى أولغا ؟ زد على ذلك ، أنّ الورقة التي خُطّتْ عليها

رسالتك ، كانت ملساء ناعمة والحبر الذي كتبت به ، من المخزن الإنكليزي ، والخطّ كان رشيقاً جميلاً .

كيف استطعت أنْ تفعل ذلك كله ؟

احمرّ أبلوموف خجلاً .

ـ ماإنْ شعرت بالحاجة ، حتى تجلت الأفكار واللغة الجميلة ؛ فرسالتك تصلح لأنْ تُنشَرَ في إحدى الروايات . تختفي الحاجة ، فتقول بأنك لاتعرف ثم تتذرّع بعينيك وبالضعف في يديك ! فمعرفتك فقدتّها منذ الطفولة ، في أباوموفكا ، وسط العمّات والمربيّات والجدات .

ابتدأ ذلك بعدم معرفتك لبس الجوارب ، وانتهى بعدم معرفتك العيش .

ـ قد يكون ذلك كله صحيحاً ياأندريي ، لكن لم تعد هنالك فائدة ؛ فذلك لايمكن إصلاحه ! ـ قال إيليا وهو يتنهّد بيأس .

ـ كيف لايمكن إصلاحه ! ـ اعترض شتولتس بغضب . ـ ياله من هراء ! اسمع وافعل ماأقول ، وسترى كيف تصلح كل شيء !

لكن شتولتس سافر إلى القرية لوحده بينما بقي أبلوموف ، بعد أنْ قطع وعداً ، بأنّه سيسافر الى أبلوموفكا في الخريف .

ـ ماذا أقول لأولغا ؟ ـ سأل شتولتس أبلوموف قبيل سفره .

أطرق أبلوموف برأسه وصمت بكآبة ، ثم تنهّد بعد ذلك .

ـ لاتُذكّرْها بي ! ـ قال أخيراً بارتباك ، ـ قل لها بأنك لم ترني ، ولم تسمع عن أخباري شيئاً .

— لن تصدقني ، — قال شنولتس معترضاً .

— قل لها ، بأنني قد هلكت ومتّ ، وضِعْتُ نهائياً . . .

— ستبكي وستظل طويلاً دون أنْ تجد السلوان .

تفكر أبلوموف بكثير من الحنان ، وأصبحت عيناه نديتين مخضلتين بالدموع .

— حسناً ، سأختلق لها شيئاً ، كأنْ أقول بأنك تعيش على ذكراها ، ختم شتولتس كلامه ، — وانك تبحث عن هدف جدّي صارم . سأقول لها : تذكّري بأنّ الحياة نفسها والعمل ، هما هدف الحياة ، لا المرأة : تلك هي خطيئتكما معاً . كم ستكون راضية !

ثم تودعا .

في مساء اليوم الذي أعقب عيد إيليا ، اجتمع تارانتييف وإيفان ماتفييتش من جديد في الحانة .

— شاي ! — طلب إيفان ماتفييتش بكآبة ، ثم أعاد زجاجة الروم بغضب الى النادل ، عندما أحضرها له هذا الأخير بالإضافة الى الشاي . — ليس هذا هو مشروب الروم الحقيقي ! — قال تارانتييف وهو يخرج من جيب معطفه زجاجة ، كان يحملها ، ففتحها وناوله إياها ليشمّها :

— هذا روم حقيقي ! لاحظ إيفان ماتفييتش .

— لقد ساءت أمورنا ! — قال ماتفييش مخاطباً تارانتييف .

— أي شيطان جاء به الى هنا ! — قال تارانتييف بغضب . — كم

هو ماكر هذا الألماني ! أفسد علينا خطتنا واستأجر أبلوموفكا ! هل سمع أحد عندنا بمثل هذا .

ــ أخشى أن يعرفَ حقيقة الأمر . فاذا ماعرف بأنّ الأموال قد جُبيت من الفلاحين ، واستلمناها نحن ، فانّ أمورنا ستسوء . . .

ــ أراك قد جبنت ياإشيني ! فليست هذه هي المرة الأولى ، التي يغرز فيها زاتيرتي مخالبه بأموال الإقطاعيين ، فهو يعرف كيف يخلص نفسه . فالمستندات والوصولات التي يعطيها للفلاحين : يعطيها على انفراد ماإن يعرف الألماني ذلك ، حتى يحزن ويصرخ . فالمسألة قد نُفّذتْ بإتقان !

ــ هكذا ؟ ــ قال موخاياريف وقد انفرجت أساريره . لنشرب إذن .

صبّ الروم لنفسه ولتارانيتيف .

ــ تنظر من حولك ، فيُخيّل بأنّ الحياة مستحيلة في هذا العالم ، لكن ماإنْ تشرب حتى تحلو العيش ! ــ قال محللاً نفسه .

ــ أما أنت ، فيجب أنْ تتصرّف على النحو التالي ، ــ تابع تارانتييف ، ــ قم باجراء بعض الحسابات ، على هواك ، كأنْ تسجّل ديوناً على أبلوموف مقابل مصروفات وهمية كالحطب والملفوف وأيّ شيء آخر .

وعندما يأتي زاتيرتي نقول ، بأنّ النقود التي جمعها من الفلاحين قد ذهبت لتغطية الديون التي يتوجب على أبلوموف أنْ يسدّدها لك .

ــ لكنه قد يأخذ الحسابات ويعطيها للألماني فيكتشف الأخير، بأن ...

ــ كن مطمئناً ! سيضع أبلوموف كشف المصاريف في مكانٍ ما ، لن تعثر عليه حتى الشياطين . كما أنه سينسى الموضوع تماماً قبل أنْ يأتي الألماني . . .

ــ حسن ، لنشرب إذن ، ــ قال إيفان ماتفييتش وهو يملأالكأس. كم هو رائع هذا المشروب : فثمن الزجاجة ثلاثة روبلات . مارأيك بأن نطلب حساءً من اللحم والتوابل ؟

ــ ممكن .

ــ أيها النادل ، تعال !

ــ ياله من ماكر ! « دعني أتحدث عن موضوع الإستئجار » ، ــ بدأ تارانتييف من جديد حديثه بغيظ ، فنحن الروس لايخطر ببالنا مطلقاً شيء كهذا ! ففكرة الإستئجار هذه تفوح منها رائحة الألمان . فهناك المزارع وعقود الإيجار ، وهناك أيضاً موضوع الأسهم . انتظر ، فلا بد أنْ يجرّه للمشاركة في مسألة الأسهم .

ــ ماذا تقصد بالأسهم ؟ ــ سأل إيفان ماتفييتش ــ . إنني لاأفهم جيداً مدلول هذه الكلمة .

إنها بدعة ألمانية ! ــ قال تارانتييف بغضب . ــ يأتي أحد المحتالين على سبيل المثال ،فيطرح مشروعاً لبناء منازل،غير قابلةللإحتراق،ويبدأ ببناء مدينة سكنية.لكنه يحتاج من أجل تنفيذ ذلك الى مبالغ كبيرة،فيطرح

أوراقاً مصرفية للبيع على شكل أسهم ، ولنقل بقيمة خمسمائة روبل للسهم الواحد ، فتأتي حشود البلهاء وتشتري . تُروّجُ الشائعات ، بأنّ المشروع يسير بنجاح ، فترتفع أسعار الأسهم ، وفجأة يفلس المشروع .

فلا يبقى لدى المساهمين إلا المستندات الورقية فقط ، دون النقود ، يسألون :

أين المدينة ؟ فيجابون بأنها احترقت ولم يكتمل بناؤها ، وأنّ المهندس المصمّم قد سرق النقود وهرب . تلك هي لعبة الأسهم ! سيورّطه هذا الألماني في تلك اللعبة ! حتى انني أستغرب كيف لم يورّطه حتى الآن ! لكنني كنت أعيق ذلك ، وأساعد مواطني !

ـ هذه الفقرة منتهية : فالمسألة تقررت وحُفِظَتْ في الأرشيف ؛ لن نستفيد بعد الآن من أبلوموفكا ، ولن نحصل على المزيد من المال . . . ـ قال موخايا ريف وقد سكر قليلا .

ـ الى الشيطان ! ـ اعترض تارانتييف وقد سكر أيضاً . ـ يوجد مصدر دائم للحصول على الأموال ، اغرِفْ ولا تتعب . لنشرب !

ـ عن أي مصدر تتكلم ؟ فأنا أجمع طيلة حياتي بالروبل ، أو بالثلاثة روبلات ، على أبعد تقدير . . .

ـ لكنك تجمع منذ عشرين عاماً ياإشبيني : فلا ترتكب إثماً !

ـ منذ عشرين عاماً ! ـ قال إيفان ماتفييتش بلسان متلعثم ، ـ لكنك نسيت بأنه لم تمض إلا عشر سنوات فقط ، منذ أن عملت سكرتيراً. سابقاً لم يكن يتواجد في جيبي إلا قطعة من فئة العشرة كوبيكات ، أو

العشرين كوبيكاً ، كما أنني كنت أحياناً ، وهذا أمر يصعب عليّ قوله أجمع النقود النحاسية . أية حياة هذه ! آه ياصديقي ! كم يوجد في هذا العالم أناس سعداء ، تمتلىء جيوبهم بالأموال بمجرّد أنْ يهمسوا ، أويضعوا توقيعهم على ورقة صغيرة ، أو يملوا سطراً واحد على أحد . ليتني أحتلّ منصباً كمنصبهم ، ـ أخذ يحلم بعد أن استولى عليه السُّكر أكثر فأكثر ، لأستقلّ العربة .وأذهب الى « النادي ! » ـ وهناك أتناول طعاماً فاخراً وأشرب المشروبات . فلا أعود أتذكّر المأكولات التي نلتهمها الآن ، بل أطلب عندها الفراريج وغيرها من الأطعمة ، التي لاتخطر على بال ! وفي البيت ، تستقبلني زوجتي وقد ارتدت أبهى حلة ، أما الأولاد فتراهم في أحسن حال ، لديهم مربيتهم ، التي تعتني بنظافتهم وملبسهم وتسريحة شعرهم . آه ياصديقي ، متى يتحقق ذلك كله ! الجنةموجودة ، لكن الذنوب تمنعنا من الدخول إليها ! لنشرب ! هاهم يجلبون لنا الحساء !

ـ لاتشتكِ ولاترتكب إثماً : فرأس المال موجود وجيّد . . ـ

قال تارانتييف وقد أصبحت عيناه حمراوين كالدم من شدة السّكر ـ فخمسة وثلاثون ألفاً من النقود الفضية ليست مزحة !

ـ اخفِضْ صوتك ، اخفِضْ صوتك ! ـ قال إيفان ماتفييتش مقاطعاً . ـ

وماذا تفعل الخمسة والثلاثون ألفاً ! فحتى الخمسون ألفاً لا تُدْخِل الجنة .

مالإن يتزوّج المرء ، حتى يحسب حساباً للروبل الواحد ، فلا يعود يجرؤ على التفكير بمشروب الروم الجامايكي الفاخر – أية حياة هذه ! .

– لكنك بالمقابل تجمع هذه النقود بهدوء وراحة بال : فلا مشقات ولا مماحكات ، ولا أعباء ولا دخان . لا ياأخي ليس من حقك أن تشتكي !

لم يكن إيفان ماتفييتش يسمعه أو يصغ إليه ، لأنه كان يفكّر بأمرٍ ما منذ بعض الوقت .

– اسمَعْ ، – بدأ فجأة وهو يحملق بعينيه ، وقد بدا على وجهه السرور ، لدرجة أنّ السُكْر قد زال تقريباً ، – لكنني خائف ، فلن أقول ، ولن أبوح بفكرتي لأحد .

فلنشرب ، فلنشرب !

– لن أشرب حتى تقول ، – قال تارانتييف وهو يبعد الكأس .

– المسألة في غاية الأهمية يالإشبيني ، – همس موخاياريف وهو ينظر الى الباب .

– ماهي ؟ . . . – سأل تارانتييف بنفاذ صبر .

– إنها كنز ثمين . فهي تدرّ من الأموال مثلما يدرّ توقيع موظف كبير على قضية هامة .

مابلك ؟ ألن تقول ؟

– والبقشيش ؟ والمنفعة التي سنحصل عليها ؟

– لماذا لاتقول ؟ – حثّه تارانتييف .

ـ انتظر ، دعني أفكر أيضاً . سأقول لك كل شيء . فأنت ضروري جداً من أجل إنجاح المسألة : فبدونك لايمكن تحقيقها . لكن المسألة في غاية الأهمية ، فأرجو ألا تبوح بها لأحد .

ـ وهل أنا شخص غريب عنك ؟ فلقد خدمتك كثيراً ، وكنت مؤتمناً على أسرارك . . . ألا تذكر ؟ يالك من خنزير !

ـ إشبيني ، اشبيني ! امسك لسانك . إنك تقصف كالمدفع تماماً !

ـ أي شيطان يمكن أن يسمع هنا ؟ فأنا من يحافظ على الأسرار ، ويدرك أهمية الأمور ، ـ قال تارانتييف بأسى ـ . لماذا تعذبني ؟ هيا ، قل . . .

اسمع : أنت تعرف بأن إيليا إيلييتش جبان ، لايعرف أي شيء عن القوانين : إنه لايفقه شيئاً ، فقد وقع العقد ، دون أن يقرأه ، ووافق على إرسال زاتيرتي ، حتى أنه لايعرف مقدار المبالغ التي يستلمها . فهو يقول : « أنا لاأعرف شيئاً . . . » .

ـ وماذا أيضاً ؟ ـ سأل تارانتييف بنفاذ صبر .

ـ إنه الآن يتردد غالباً الى أختي . يجلس عندها ساعات طويلة ، ومنذ مدة قريبة ، صادفني في الممشى ، وكأنه لم يرني . لذا فانه من الضروري أن نراقب ما سيحصل . . . تحدث إليه على انفراد ، وقل له بأنه من غير اللائق أن يتصرف تصرفاً شائناً مع أرملة . قل له ، بأننا نعرف كل شيء وأن تصرفه هذا يؤثر على مستقبلها وزواجها ؛ قل له أيضاً ، بأن تاجراً غنياً جاء ليخطبها ، لكنه سمع الآن بأنك تجلس عندها في الليالي ، فصرف النظر عن المخطوبة .

— وما الفائدة من ذلك كله ؟ سيخاف ويتهاوى على الفراش ثم يتقلّب من جنب الى جنب ، وهو يتنهد ويتأوه ، —هذا كل مافي الأمر— قال تارانتييف . — ماهي المنفعة التي سنجنيها ؟ أين البقشيش والنعمة؟

— مهلاً ، فأنا لم أكمل بعد ! قل له بأنني أريد أنْ أشتكي ، وأنّ هناك شهوداً موجودون . .

— وماذا ؟

— واذا لاحظت بأنّ الخوف قد استولى عليه تماماً ، فقل له بأنّ المصالحة ممكنة إذا ماضحيت بمبلغ من المال .

— ومن أين يأتي بالنقود ؟ — سأل تارانتييف . — فالمسألة ليست مسألة وعود ، فلو كانت كذلك لهانت الأمور ، لأني متأكد بأنه سيَتَعِدُ بدفع عشرة آلاف روبل ، بسبب الخوف .

لكنْ من أين سيحصل على النقود ؟

— اعطني إشارةً عندئذ لأعِدّ على الفور سند دين عليه . . . باسم أختي كأنْ أكتب :

« أنا المدعو أبلوموف أقر وأعترف بأنني اقترضت من الأرملة . . . عشرة آلاف روبل أدفعها خلال فترة . . . الخ » .

— وما النفع الذي سنجنيه من ذلك ؟ لاأفهم : فالنقود ستكون من نصيب أختك وأولادها . أين النعمة والبقشيش ؟

— أختي ستكتب على نفسها سند دين بنفس المبلغ ، وستوقّعه .

— وإذا لم توقّع ؟ واذا ماعاندت ؟

ـ أختي ؟

بدأ إيفان ماتفييتش يضحك .

ـ ستوقّع ياإشبيني ، ستوقّع ، حتى بدون أن تسأل أو تعرف على أي شيء وضعت توقيعها . المسألة ستصبح على النحو التالي : بشينيتسينا تدّعي على أبلوموف ، ونحن بدورنا ندّعي عليها . فليفعل الألماني عندئذ مايريد !

المسألة قانونية ! ـ قال ماتفييتش وهو يرفع يديه المرتجفتين الى الأعلى . ـ فلنشرب نخب فكرتنا هذه !

ـ وبعد أنْ تمرّ المسألة بنجاح ، يمكننا أنْ نعيد الكرّة أيضاً بعد سنتين ، فالمسألة قانونية !

ـ حسناً !

ثم شربا .

ـ لكنني أخشى أنْ يعاند مواطنك ويكتب مقدماً الى الألماني حول الموضوع ، ـ لاحظ موخاياريف بهلع ، ـ عندها ستسوء الأمور ! ويصبح تدبير الأمر صعباً ، فهي أرملة ، لافتاة صغيرة !

ـ كلا ، لن يكتب ! ـ قال تارانتييف ـ وإذا عاند فسأوبخه . . .

ـ كلا ، كلا ، فالأمر خطير ! قد يقول ، بأننا ضربناه وأرغمناه على ذلك ، وعندها تصبح المسألة جنائية . كلا فهذا الأسلوب لاينفع . من الأفضل أن ندعوه أولاً الى غداء أو عشاء ، فنأكل ونشرب ؛ فهو يحب الشراب الروحي المنقوع بعنب الثعلب . وعندما يظهر تأثير المشروب عليه

نقدّم له الورقة ، فيوقّعها دون أنْ يعرف مقدار المبلغ ، كما فعل لدى توقيعه عقد الإيجار . وسيكون من العار بالنسبة له كسيد نبيل أن يعترف فيما بعد ، بأنه وضع توقيعه وهو فاقد الوعي ، فالمسألة قانونية !

ــ أجل ، المسألة قانونية ! ــ كرر تارانتييف .

ــ فلتكن أبلوموفكا عندئذ من نصيبنا كورثة .

ــ فلتكن ! لنشرب نخب ذلك .

ــ في صحة البلهاء ! ــ قال إيفان ماتفييتش .

ثم شربا .

ــ ٣ ــ

يجب أن نعود الى الوراء قليلاً ، الى ماقبل مجيء شتولتس في يوم عيد تسمية أبلوموف ، الى مكانٍ بعيد جداً عن ناحية فيبورغ . هناك ستلتقي وجوهاً معروفة للقارىء ، لم يقل شتولتس عنها كل شيء يعرفه لأبلوموف ، بفعل أسباب وتصورات خاصة ، ولربما كان سبب ذلك لأنّ أبلوموف لم يستفسر عنها بما فيه الكفاية لأسباب وتصورات خاصة أيضاً .

ذات مرة كان شتولتس يسير في أحد شوارع باريس ، وهو ينظر بشرود الى المارة ولافتات المخازن ، دون أن يوقف بصره على شيء . فمنذ زمن طويل ، لم يستلم أية رسالة من روسيا ، أو كييف أو أوديسا أو بطرسبورغ . كان الضجر بادياً عليه ، وهو عائد من البريد الى البيت بعد أن أرسل ثلاث رسائل أخرى .

توقفت عيناه فجأة على أحدٍ ما بكثير من الدهشة ، لكنهما استعادتا من جديد وضعهما الطبيعي المألوف . شاهد سيدتين تدخلان الى أحد المخازن .

«كلا ، لايمكن ، – تفكّر شتولتس ، – ياللغرابة ! لايُعْقَل ذلك إذ كنت سأعرفهما » .

لكنه على الرغم من ذلك ، اقترب من واجهة هذا المخزن وأخذ ينظر الى السيدتين عبر الزجاج :

« لم يستطع أنْ يتبيّن حقيقة شخصيتهما ، لأنهما كانتا تقفان وقد أدارتا ظهرهما صوب الواجهة » .

دخل شتولتس الى المخزن وأخذ يشتري شيئاً ما . استدارت إحدى السيدتين تجاه الضوء ، فكانت أولغا إيلينسكايا ! أراد أن يندفع نحوها ، لكنه توقف وصار ينظر إليها بإمعان .

ياإلهي ! أي تبدّل طرأ عليها ! هي وليست هي . الملامح نفسها ، لكنها شاحبة مهمومة ، عيناها غائرتان ، لاأثر للبسمة على شفتيها ، فوق حاجبيها ترقد فكرة كئيبة رزينة ، وعيناها تحكيان الكثير مما لم تعرفاه من قبل . لم تعد نظرتها حيوية متلألئة هادئة كما كانت سابقاً ، تغطي وجهها كله سحابة من الحزن والاسى .

اقترب منها . تحرك حاجباها قليلاً ؛ نظرت إليه بارتباك للحظة ، لكنها عرفته بعد ذلك : ارتفع حاجباها ثم استقرا بشكلٍ متماثل ، التمعت عيناها بشعاعٍ من السرور ، الهادىء ، غير الجامح ، لكن

العميق . لكنّ أيّ أخٍ سيكون سعيداً بلا ريب ، إذا مافرحت أخته الغالية بلقائه ، كما فرحت أولغا بلقاء شتولتس .

— يالهي هذا أنت ؟ قالت بصوت عارم بالبهجة والفرح . التفتت عمتها بسرعة ، وبدأ الجميع بالتكلّم دفعةً واحدة .

عاتبهما ، لأنهما لم يكتبا إليه . بينما أخذتا تبرّران سبب ذلك . فها هما تبحثان عنه لليوم الثالث بلا انقطاع ، أي منذ وصولهما . قيل لهما بأنّه سافر الى لندن فأصبحا في حيرة من أمرهما ، لايعرفان ماالعمل .

— (مغاتباً) كيف خطرت لكما فكرة السفر ؟ تأتيان الى هنا دون أن تكتبا كلمة واحدة !

— قررنا السفر بسرعة ، لذا لم نكتب إليك ، — قالت العمة — فأولغا أرادت أن تجعلها مفاجأة . نظر الى اولغا : لم يكن وجهها يؤكدّ كلمات عمتها . أخذ ينظر إليها بمزيد من الإمعان ، لكنها كانت منيعة ، عصيّةً على الرصد والمراقبة .

« ماذا جرى لها ؟ — تفكر شتولتس . — سابقاً كنت أخمّن مابداخلها ، أما الآن . . . فقد تغيرت كثيراً ! » .

— كم تطورتِ ونَضجت ياأولغا سيرغييفنا — قال شتولتس بصوت مسموع ، — كدت ألا أعرفك ! مع أنه لم يمض على فراقنا أكثر من سنة . لم نتقابل فيها . ماذا كنت تفعلين ؟ ماذا حدث لك ؟ تكلّمي ، تكلّمي !

— لاشيء ... ، قالت أولغا وهي تنظر الى قطعة قماش .

ـ كيف أصبح غناؤك ؟ ـ قال شتولتس ، وهو يتابع تفحص أولغا الجديدة بالنسبة له ، ويحاول أن يقرأ التغيّرات الجديدة ، غير المألوفة ، البادية على وجهها ؛ لكنّ هذه التغيّرات كانت تتبدّد وتختفي كالبرق .

ـ لم أغنّ منذ زمن بعيد ، منذ شهرين ، ـ قالت بعدم اكتراث .

ـ وأبلوموف ، كيف أحواله ؟ ـ سأل فجأة ـ هل مازال حياً ؟ لماذا لايكتب ؟

ـ ربما كانت أولغا ستكشف عن سرها في هذه اللحظة ، لو لم تسرع عمتها لنجدتها .

ـ تصور ، ـ قالت العمة ، وهي تخرج من المخزن . ـ أنه كان يأتي إلينا يومياً ، ثم اختفى بعد ذلك فجأة وعندما عزمنا على السفر الى الخارج ، أرسلت أستفسر عنه ، فقيل بأنه مريض لايستقبل أحداً : وهكذا لم نتقابل .

ـ وأنتِ . ألا تعرفين ؟ ـ سأل شتولتس أولغا باهتمام . كانت أولغا تتابع بنظرها عربة ، كانت تمر بالقرب .

ـ لقد ساءت صحته حقاً ، ـ قالت أولغا ، وهي تنظر باهتمام متصنّع الى العربة ـ . انظري ياعمتي ، يبدو لي أنّ رفاقنا في السفر ، هم الذين كانوا في هذه المركبة .

ـ كلا أريدك أن تخبريني عن أحوال عزيزي إيليا ، ـ قال شتولتس باصرار ، ـ ماذا فعلت له ؟ لماذا لم تجلبيه معك ؟

— لكن عمتي قد أخبرتك منذ برهة ، — قالت أولغا .

— إنه كسول جداً ، — لاحظت العمة ، — ومتوحش لايعرف أصول اللياقة ، فما ان يأتي لعندنا بعض الناس ، حتى يغادر فوراً . تصوّر ، انه اشترك في حضور حفلات الأوبرا ، لكنه لم يحضر إلا نصف الحفلات فقط .

— كما انه لم يسمع روبيني ، — أضافت أولغا .

هز شتولتس برأسه وتنهّد .

— كيف قررتما السفر فجأة ؟ هل ستمكثان طويلاً ؟ .

— لقد أتت بناء على نصيحة الطبيب ، — قالت العمة وهي تشير الى أولغا — فمناخ بطرسبورغ قد ألحق الضرر بصحتها ، بشكل ملحوظ ، لذا قررنا أن نسافر ونمضي الشتاء في الخارج ، لكنّنا لم نقرّر بعد أين سنمضيه : في نيس أم في سويسرا .

— أجل لقد تغيّرت كثيراً ، — قال شتولتس متأملاً وهو ينظر الى أولغا بإمعان ويتفحّص كل عِرقٍ من عروقها .

أمضت أولغا وعمتها نصف عام في باريس : وكان شتولتس طيلة هذه المدّة دليلهما وجليسهما الوحيد الدائم .

بدأت صحة أولغا تتحسّن بشكل ملحوظ : فقد تحوّلت من حالة الشرود الى الهدوء وعدم المبالاة ، هكذا كانت تبدو على الأقل من الخارج . لكن الله وحده ، هو الذي كان يعرف مايعتمل في داخلها ، لكنها صارت تعود رويداً رويداً الى وضعها السابق المألوف بالنسبة

لشتولتس ، على الرغم من أنّ ضحكتها الطفولية الرنانة العذبة قد اختفت فأصبحت تبتسم ابتسامة متحفظة فقط ، عندما كان شتولتس يضحكها . حتى أنّ الأسى والحزن كان يبدوان عليها أحياناً، لأنها لم تكن تستطيع أن تضحك كما كانت تضحك سابقاً .

سرعان ماأدرك شتولتس عجزه عن إضحاكها : غالباً ماكان ردّ فعلها على نكتة قالها شتولتس ، مقتصراً على حركة غير متماثلة لحاجبيها ، فتكتفي بأنْ ترفع أحدهما أكثر من الآخر قليلاً مع ثنية على الجبين ، دون أنْ تبتسم ، ثم تتابع النظر إليه بطريقة تبدو لمن يراها، وكأنّها تلومه على خفة عقله واستهتاره . وفي بعض الأحيان كانت تردّ على نكتته بسؤال جدّي مفاجىء ، مصحوب بنظرة ملحاحة . الأمر الذي كان يشعره بنوعٍ من الإرتباك والخجل بسبب حديثه الفارغ المستهتر .

أحياناً ، كان يبدو عليها تعب داخلي ، ناجم عن ثرثرة الناس اليومية وركضهم المستمر وجلبتهم ، الأمر الذي كان يضطر شتولتس لأنْ يتحوّل فجأة الى أسلوب آخر ، لم يكن يستخدمه مع الناس إلاّ نادراً ومضطراً ، وبغير رغبة منه .

كم أنفق من الجهد الذهني والحيل ، من أجل أنْ تصبح نظرة أولغا واضحة صافية هادئة ، لاتبحث عن شيء آخر يتجاوز وجوده ويتجاهله!

كم كان يتعذّب عندما كانت تصبح نظرتها صارمة مليئة بالجفاء، وهي تقطّب حاجبيها فترتسم على وجهها ظلال صامتة ، لكن عميقة من عدم الإرتياح ، بسبب توضيح متهاونٍ صدر عنه .

كان عليه بعد ذلك أنْ ينفق يومين أو ثلاثة أيام من الجهد الذهني المتواصل وحتى من الحيلة ، وأنْ يستخدم كل خبرته في التعامل مع النساء ، كي يعيد رويداً رويداً ، وهذا ما كان يتم بصعوبة فائقة ، الإشراقة الى وجه أولغا ، وأشعة الضياء الى قلبها والوداعة والتسامح الى نظرتها وابتسامتها .

وفي نهاية اليوم كان يعود إلى البيت وقد أنهكه هذا الجهد المضني ، لكنه كان يشعر بفيض من السعادة عندما كان يخرج منتصراً .

« يا إلهي كم نضجت ! كم تطورت هذه الفتاة ! من كان معلمها ؟ أين تلقت دروس الحياة الغنية هذه ؟ هل من البارون ؟ لكن المرء لايستطيع أن يستفيد من عباراته المصقولة شيئاً ! أمن إيليا تلقت دروسها ! . . . »

لم يكن يستطيع أن يفهم أولغا ، وفي اليوم التالي كان يذهب إليها من جديد ، ويدرس بحذر وخوف وبكثير من الصعوبة ، من خلال الإستعانة بذهنه وخبرته الحياتية ، التساؤلات والشكوك والمطالب ، أي كل ما كان يرتسم على محياها من تعبيرات وأمارات .

كان يغوص في متاهات ذهنها ، وهو يمسك ضوء خبرته بيديه ، فيكتشف ويدرس كل يوم ، السمات والحقائق الجديدة الكامنة في أعماقها ، دون أن يتمكن من الوصول إلى أعماق روحها ، بل يكتفي بأنْ يتابع فقط ماينشره ذهنها من أهداف ومثل ، وما تطلبه روحها المتأججة أبداً ، من خبرة وحياة .

وبالاضافة الى نشاط شتولتس كله ، وحياته الزاخرة كلها ، كانت تتأصّل عنده حياة أخرى ، ونشاط آخر : فبعد أنْ أحاط أولغا بجو جديد مريح ، وبكتب وألبومات ودفاتر نوتات جديدة ، اطمأنّ شتولتس ، لأنه قد ملأ أوقات فراغ صديقته بأمور مفيدة هامة ، لذا فانه أصبح يعمل ويتنقل بحثاً عن مخطوطات جديدة هامة ، ويخالط الناس ويتعرف عليهم ويتقابل مع شخصيات جديدة رائعة ، ثم يعود بعد ذلك الى صديقته أولغا منهكاً متعباً ، فيجلس بالقرب من البيانو ويستمتع بنغمات صوتها العذب ويستريح من الجهد والتعب . لكنه كان يقرأ على وجهها ، وفي نظرتها أسئلة جاهزة ومطالب ملحة تتعلق بما قام به من نشاطات وأعمال . ثم يبدأ دون أنْ يشعر بتقديم تقرير شفوي إليها عما شاهد وعمل .

أحياناً كانت أولغا تبدي رغبتها برؤية ومعرفة ماشاهده وعرفه شتولتس . فكان يكرر عمله : فيذهب ليشاهد مبنى ، أو مكاناً ، أو آلة ويقرأ الأحداث التاريخية على الجدران والأحجار .

أخذ يعتاد تدريجياً على أنْ يفكر ويفضي بأحاسيسه بحضورها بصوت مسموع ، فقد كشف السرّ ذات مرة ، وبشكل مفاجىء ، بأنه لم يعد يحس بالوحدة منذ مجيء أولغا الى باريس ، وأن حياته أصبحت مرتبطة بحياتها .

كان يجُري بوجودها عن غير عمد تقريباً ، نوعاً من التقويم لما أحرزه واكتسبه ، ثم يدقق بعد ذلك باهتمام ، ليرى إن كان قد بقي في

نظرتها شيء من التساؤل ، وليتأكد من ارتسام شعاع الإرتياح والسرور على محياها ، وليتفحص إنْ كانت نظرتها تشيّعه كمنتصر .

فاذا ماتأكد من ذلك كله ، فانه كان يعود الى البيت بكثير من الفخار والإعتزاز المصحوبَيْن بشيء من الاضطراب الخافت المحبب ، ويحضّر نفسه سراً ، طوال الليل تقريباً ، ليوم الغد . فأكثر الأعمال مللاً وإلزاماً لم تكن تبدو جافة مضجرة بالنسبة له ، بل ضرورية فقط :

لأنها كانت تندرج في أساس الحياة ونسيجها ، أما الأفكار ، والملاحظات والظواهر فلم تكن تتكوّن بصمت وتهاون ، بل كانت تضفي على الأيام رونقاً وبهجة .

أي بريق قد غمر وجه أولغا الشاحب عندما أسرع شتولتس ليضع أمامها بكثير من الحيوية والعاطفة دون أن ينتظر نظرتها المتسائلة الثاقبة ، ذخيرة جديدة ، ومعلومات جديدة !

وكم كان شتولتس سعيداً أيضاً ، عندما سارع ذهنها بكثير من الاهتمام والامتثال العذب ، ليتلقّف كل مافي نظراته وكلماته من معانٍ ومدلولات ، فأصبح كل منهما ينظر إلى الآخر : صار ينظر إليها ليرى إن كان قد بقي في عينيها شيء من التساؤل ، بينما راحت تنظر إليه بدورها لترى إن كان قد بقي شيء لم يكشف عنه أوإن كان قد نسي شيئاً لم يقله ! هل أهمل شيئاً يساعدها على فهم واكتشاف كل ماهو عصيّ عليها ، متعذّرٍ على إدراكها ؟

وكلما ازدادت المسألة أهمية وتعقيداً ، وكلما أصبح التوضيح من

جانبه أكثر اهتماماً وتوكيداً ، فانّ نظرتها الشاكرة المعترفة بالجميل ، كانت تزداد وضوحاً ودفئاً وعمقاً وعاطفةً .

« أولغا ، أيتها الطفلة ! — كان يسرّ الى نفسه بدهشة . — أصبحت تتفوّقين عليّ ! »

أصبح يفكر بها ، كما لم يفكّر بأحد أو بشيء من قبل . في الربيع ، يسافر الجميع الى سويسرا . كان شتولتس قد قرر منذ أن كان في باريس ، بأنّه لايستطيع أن يعيش بعد الآن بدون أولغا . وبعد أن حسم شتولتس الأمر واتخذ قراراً نهائياً بهذا الصدد ، بدأ يفكّر إن كانت أولغا تستطيع أن تعيش بدونه ، لكنّ حلّ هذه المسألة ، لم يتيسر له بسهولة .

كان يقترب من هذه المسألة ببطء وبحذر ، يتلمس الأمور تارةً ، ويفكر بجرأة تارةً أخرى ، وهو يقول ها هو ذا قد أصبح قريباً من الهدف وسيحصل بالتأكيد على أمارة أو نظرة أو كلمة ، على بادرة سارّة أو محزنة : إذ لايلزم إلاّ حركة صغيرة ، او إشارة بسيطة من حاجبي أولغا ، أو تنهيدة منها ، حتى ينكشف السر ويتضح بأنه : محبوب !

كان يقرأ على وجهها ثقة واضحة به ، كانت تنظر إليه أحياناً ، كما لم تنظر إلى أحد أبداً ، كانت تنظر إليه كما كان يمكن أن تنظر الى أمها فقط . لو كانت على قيد الحياة .

لم تكن اولغا تعتبر مجيئه إليها ، وأوقات الفراغ ، التي يمضيها معها ،

معروفاً أو مجاملة أو إطراءً لها ، بل كانت تعتبر ذلك كله ببساطة واجباً يؤديه كأخٍ وأبٍ وحتى كزوج . كانت تتصرّف معه في كل خطوة تخطوها ، وفي كل كلمة تقولها بحرّية وبصدق ، كما لو أنه كان يتمتّع عندها بتأثير كبير وبنفوذ لاجدال فيه .

كان يعرف منزلته عندها ؛ كانت تؤكد له ذلك في كل لحظة ، وتقول بأنّها لاتثق إلاّ به ، ولا تستطيع أنْ تعتمد على أحد في هذا العالم ، مثل ماتعتمد عليه .

كان فخوراً بذلك طبعاً ، لكنّ ذلك كان يمكن أنْ يكون مدعاةً للفخر أيضاً بالنسبة لأيّ شخص كهل ذكي مجرّب ، حتى بالنسبة للبارون شريطة أنْ يتمتّع بذهنٍ ثاقبٍ وطبيعة حيوية .

لكنْ ، هل كان ذلك هو نفوذ الحب وهيبته ؟ — تلك هي المسألة. هل يمكن أنْ يكون هذا النفوذ مغلّفاً بدرجةٍ أو بأخرى ، بخداعها الساحر ، وغرورها الفتّان ، اللذين يخلقان لدى المرأة استعداداً للخطأ ، وقدرةً على أنْ تعيش سعيدةً بخطئها ؟ . . .

كلا ، فهي تمتثل له عن وعي . صحيح ، أنّ عينيها تتلألآن عندما يطوّر فكرة أو يكشف أمامها عما يعتمل بداخله ؛ صحيح أيضاً أنها تغمره بأشعة نظرتها ، لكن السبب واضح دائماً ؛ حتى أنها تكشف بنفسها أحياناً عن السبب . لكنّ المأثرة في الحب تتمّ بلا وعي وبدون تفكير ؛ وفي عدم التفكير والوعي ، تكمن السعادة .

وعندما تكون مستاءةً من شيء ، يتضّح على الفور سبب استيائها .

لم يكن يتربّص أبداً احمرار خجل مفاجيء ولاسزوراً قبل الملع ، ولا نظرة مشبوبة بالوجد ، وإذا ما حدث شيء شبيه بذلك ، فانه كان يتراءى له ، وكأن وجهها قد تشوّه من الألم ؛ وعندما كان يقول بأنه سيسافر الى إيطاليا خلال فترة قريبة ، وقلبه يتفطرّ ويتضرّج دماً بفعل تأثير هذه اللحظات الثمينة النادرة ، فانّها كانت تضيف قائلة بصراحة وببساطة : « كم أنا آسفة ، لأنني لاأستطيع أنْ أسافر معك الى هناك ؛ أتمنى لو أستطيع أنْ أفعل ذلك ! لكنك ستحكي لي كل ما ستشاهده ، فتضعني بالصورة الكاملة كما لو أنني كنت هناك » .

هكذا يذهب السحر والإفتتان ضحيّة الإطراء بمقدرته الفائقة على سرد ما سيشاهده بصورة حيّة .

ثم تصبح فجأة هادئة متزنة بسيطة وحتّى باردة في بعض الأحيان . تراها جالسة وهي تطرّز وتصغي إليه بصمت ، فترفع رأسها أحياناً وتلقي عليه نظرات مستطلعة متسائلة ، للدرجة أنه حدث أنْ رمى الكتاب وقطع الحديث أكثر من مرة بأسى وكآبة ، ثم نهض وانصرف . يلتفت إليها فترمقه بنظرة مليئة بالدهشة فيخجل ، ثم يعود ليبتدع شيئاً ما ليبرّر تصرّفه .

تصغي إليه ببساطة متناهية وتصدّق بمايقول . حتّى أنْ الشك والإبتسامة الماكرة ، لم يعد لهما وجود عندها .

« تحبني أولا تحبني ؟ » — كان هذان السؤالان يدوران في رأسه دائماً .

لإنْ كانت تحبني حقاً ، فانني أتساءل : لماذا هي حذرة متحفظة إلى هذا الحد ؟

وإنْ كانت لاتحبني ، فانني أتساءل أيضاً : لماذا هي مجاملة مطيعة ؟ سيسافر من باريس الى لندن وسيمضي هنالك أسبوعاً ، لكنه لم يخبرها بذلك مقدماً ، بل فعل ذلك في يوم السفر ذاته .

فاذا ماتغير وجهها فجأةً وبدا الخوف عليها — فهذا يعني أنّ سرها سينكشف بالطبع ، وسيكون سعيداً ! صافحته بحرارة وبأسي : فخارت قواه .

كم سأشعر بالملل لغيابك ، — قالت أولغا ، — الرغبة بالبكاء تتملكني ، فأنا الآن كاليتيمة . عمّي !— أندريي إيفانيتش مسافر ! — أضافت بصوت يميل الى البكاء .

لكنها قطعته .

« تُكاشِفُ عمتها أيضاً ! — فكر شتولتس ، — أما كفاني ! أرى الأسى بادياً على وجهها ، فهي تحبني على الأرجح . . . أجل ، فالحب يمكن شراؤه بشيء من الإهتمام والإسترضاء ، كما تُشْتَرى البضاعة في السوق ، لكن الأمر يتطلب بعض الوقت . . . لن أعود ، — فكّر شتولتس بتجهّم . — . أ أتوسل إليها ! لكنها كانت مطيعة جداً فيما مضى . ماذا جرى لها ؟ » .

ثم استغرق في تفكير عميق .

ماذا جرى لها ؟ لم يكن يعرف بأنها قد أحبّت ذات مرة ، وأنها قد

اجتازت مرحلة المراهقة ، التي لاتستطيع فيها المرأة أنْ تسيطر على نفسها المرحلة التي تبرز فيها اندفاعات الحب المفاجئة ويرتعش فيها القلب ، وتظهر فيها أعراض الحمى .

لو كان على دراية من الأمر ، لساعده ذلك على الأقل في كشف السبب الذي يدفعها لأنْ تنظر الى الأمور بروّية وحكمة ، وكلفهم تصرفها وسلوكها الراهن .

في سويسرا شاهدوا كل الأماكن التي يشاهدها السياح عادة ، لكن شتولتس وأولغا كانا يتردّدان أكثر مايتردّدان الى الاماكن الهادئة البعيدة التي قلما يزورها السياح ، ويتوقفان عندها بمزيد من المتعة والإرتياح . فأكثر ماكان يثير اهتمامهما ، أو على الأقل اهتمام شتولتس وشغفه ، هو « علاقتهما الخاصة » ، بينما كانت مسألة التنقل والإستمتاع برؤية المشاهد الأثرية السياحية وغيرها ، تحتل عندهما المركز الثاني .

كان يسير وراءها في الجبل ويستمتعان برؤيةالمنحدرات والشلالات، لكنّ أولغا كانت تسير في المقدمة دائماً . كان يسير وراءها عندما يسلكان درباً ضيقة ، بينما كانت عمتها تجلس في العربة ، في الأسفل دون أن تغادرها إلاّ نادراً ؛ كان شتولتس يراقب أولغا خلسةً وبانتباه ، كيف ستتوقف وهي تصعد الجبل لتلتقط انفاسها ، ثم تلقي عليه نظرة بالتأكيد ، قبل أنْ يجذب اهتمامها أي شيء آخر : فلقد ترسخت هذه القناعة لديه .

كان ذلك يروي ظمأه ويحسّن مزاجه : إذ كان يشعر بالإرتياح

وصفاء القلب ، لكنّ شيئاً مباغتاً كان يعكّر صفو ذلك كله ؛ كانت أولغا بعد ذلك تلقي نظرة مفاجئة على المكان وتتسمّر في مكانها ، ثم تستغرق في تأمل عميق — لدرجة أنها لم تعد تلاحظ وجوده .

مالإن يتحرك ويذكّرها بوجوده وينبس بكلمة ،حتى تجفل مذعورة وأحياناً تصرخ : كان يتضح بجلاء ، بأنها قد نسيت إنْ كان قريباً منها أم بعيداً ، — أو إنْ كان موجوداً في هذا العالم .

لكنها بالمقابل ، كانت تتحدث إليه طويلاً بعد ذلك في البيت بالقرب من النافذة ، أو على الشرفة ، على انفراد . بحرارة وصدق وعاطفة ، فتفضي إليه بانطباعاتها الحلوة وتتوقف أحياناً وهي ترمقه بنظرة حانية ، لتختار الكلمات والعبارات المناسبة التي تعبر عن شكرها وامتنانها لما أبداه لها من مساعدة . وأحياناً كانت تجلس في كرسيها المريح ، شاحبة وقد أنهكها التعب ، لكنّ عينيها النهمتين كانتا تنظران إليه وتقولان له ، بأنها تريد أنْ تسمعه .

كانت تصغي إليه بلا حراك ، لكنها لم تكن تفوّت كلمة أو تضيّع شيئاً مما يقوله . وعندما يصمت تظل مصغية وهي تنظر إليه بعينين متسائلتين ، فيتابع الحديث بحرارة وقوة ومتعة ، رداً على ندائها الصامت هذا .

كان ذلك يروي ظمأه ويحسّن مزاجه . فقد كان يشعر بالإرتياح وبالرعشة : فهي ماتزال معه تعيش بأحاسيسها دون أنْ تشعر بحاجة لأي إنسان آخر : فهناك عالمها وعاطفتها وعقلها . لكنها كانت تنهض فجأة

خائرة القوى ، فتتغير عيناها المتسائلتان على الفور ، وتطلبان منه أن ينصرف ، أو تقولان له بأنها تريد أن تأكل ، ثم تتناول الطعام بشهية كبيرة . . .

كل هذا يمكن أن يبدو رائعاً : لأنه ليس حالماً ؛ فهو لايحب العواطف الجامحة المندفعة ، شأنه في ذلك شأن أبلوموف ، بيد أن الأسباب مختلفة تماماً . لكنه كان يرغب ويتمنى ، بأن تسير العاطفة بخط مستقيم منتظم ، بعد أن تغلي في البداية وتجيش عند النبع بحرارة ، ليغرف منها ويشرب حتى الثمالة ، كي يعرف طيلة حياته فيما بعد منبع سعادته هذه .

ـ تحبني أولا تحبني ؟ ـ كان يقول باضطراب مضن ، كاد أن يصل به الى حد الدموع والعرق الدامي .

أصبح هذا السؤال يستولي عليه أكثر فأكثر ، ويضطرم في داخله كاللهب : فقد غدا حيوياً ملحاً ، ليس بالنسبة لحبه فحسب ، بل ولحياته كلها . فلم يترك في روحه وأعماقه مكاناً لأي شيء آخر . يبدو أن الأوبئة قد تحلقت حوله خلال هذه السنة والنصف ، فأصابته سهام الحب ولواعجه ، التي كان يتجنبها سابقاً أثناء لقاءاته مع النساء .

كان يحس بأن جسده السليم لن يقوى على المقاومة والصمود ، إذا مااستمرت طويلاً أشهر التوتر الذهني والعصبي هذه .لقد أدرك بأنه كان غريباً عليه حتى الآن ، كيف تُبدد الجهود والقوى في صراعات عاطفية داخلية لاتراها العيون ، وكيف يصاب القلب بجرح لايندمل دون أن يسيل دماً ، وتتتابع الآهات بلا انقطاع .

أخذت ثقته بنفسه وبقواه تضعف قليلاً ؛ لم يعد ينظر باستخفاف وهو يسمع القصص ، التي تقول بأنّ الآخرين يفقدون العقل ، ويذبلون لأسباب أخرى مختلفة ، ناجمة عن الحب .

أصبح خائفاً جداً .

ـ كلا ، سأضع حداً لهذا ، ـ قال شتولتس ، ـ سأتسلّل الى روحها ، كالسابق ، وسأكون غداً ، إمّا سعيداً ، أو أرحل !

ـ لاطاقة لي ! ـ قال بعد ذلك ، وهو ينظر الى المرآة . ـ لقد تغيّرت كثيراً . . . كفى ! ثم توجه مباشرة الى هدفه ، أي الى أولغا .

وماذا بالنسبة لاولغا ؟ هل يُعقَل أنها لم تلاحظ حالته ؟ هل تشعر بميل نحوه ؟

لابدّ أنها قد لاحظت حالته : فالنساء مرهفات الحس مثلها ، يعرفن الفرق بين العلاقة الصداقية ، وبين المداراة والإستلطاف الرقيق المشبوب بالعاطفة . أما أنْ نفترض العبث والغنج والدلال كسمة رئيسية ملازمة لسلوك أولغا ، فذلك أمريستحيل التسليم به ، لمعرفتنا اليقينية الموثوقة بصفاتها ومزاياها الأخلاقية .

بقي أن نفترض أمراً واحداً إذا ، هو أنّ أولغا كانت معجبة بذلك النوع من الرجال الأذكياء ، الذين يمتلكون موهبة وخبرة من أمثال شتولتس . لابدّ أنْ نشير بالطبع الى انّ العاطفة الجياشة التي كان يبديها شتولتس تجاه أولغا في الفترة الأخيرة ، والتي وصلت درجة العبادة ، كانت تعيد لها تدريجياً كرامتها المهانة وتضعها على نفس المنصّة التي

سقطت عنها ؛ لقد أصبحت تستعيد رويداً رويداً كبرياءها وأنفتها .

لكن كيف كانت تفكّر بخصوص الطريقة التي ينبغي أن تحلّ بها حالة شتولتس المشبوبة وَجداً وعاطفةً ؟ فلا يمكن أن تظلّ حالته هذه التي يتصارع فيها حب الإستطلاع عنده لمعرفة حقيقة مشاعر أولغا تجاهه مع صمتها الدائم ، إلى مالا نهاية .

هل شعرت على الأقل ، بأنّ صراعه كله ليس عبثاً ، وأنه سيكسب القضية التي أنفق من أجلها كثيراً من الجهد والإرادة ؟ هل يُبدّد هذا الوجد والشوق عبثاً ؟ هل سيغرق شتولتس في أشعة هذا الوجد والحب ؟

لم تكن تدرك أوتعي بوضوح شيئاً من هذا ، بل كانت تعاني حالة من الصراع النفسي ، وهي تواجه هذه الأسئلة، دون أنْ تعرف كيف تخرج من هذه الفوضى .

كيف يجب أن تتصرّف ؟ إذ يستحيل أنْ تبقى في هذا الوضع القلق المضطرب :

فلا بدّ أنْ تخرج يوماً من هذا الصراع الداخلي ، الذي تعيشه ، لتصل الى توصيف ماضيها بالكلمات ! لكن كيف تسمّي هذا الماضي ، وماهي التسمية التي تطلقها على ماتحسّ به إزاء شتولتس ؟

فاذا كانت تحب شتولتس ، فكيف يمكنها أنْ تحدّد طبيعة حبها السابق ؟ هل كان نوعاً من العبث والدلال والطيش ، أم أسوأ ؟ كانت تشعر بالخجل الشديد عندما تتأمل هذه الفكرة . فمثل هذه التهمة لايمكن أن توجّهها لنفسها .

وإذا كانت مشاعرها السابقة هي حبها الطاهر الأول ، فماذا تكون حقيقة علاقتها الراهنة بشتولتس ؟ هل هي أيضاً نوع من الخداع والعبث والحسابات الدقيقة ، من أجل أنْ تجذبه للزواج لتغطي طيشها ؟ . . . كانت هذه الفكرة تجعلها جامدة شاحبة مذهلة .

وإذا لم تكن علاقتها بشتولتس خداعاً،ولا عبثاً ، ولاطيشها — فماذا يمكن أن تسميها ؟ هل تعتبر حبّاً ثانياً ؟

كانت ترتعد من هذا الافتراض : حبٌّ ثانٍ بعد سنة أو ثمانية أشهر من حبها الأول ! من سيصدّقها؟ كيف يمكن أنْ تلمح إليه دون أنْ تثير الدهشة ، ولربما ... الإزدراء ! فهي لن تجرؤ حتى على التفكير بذلك لأنها لاتملك الحق .

أخذت تستعين بخبرتها وتجربتها : لكنها لم تعثر على أية أدلة تشير الى وجود حبٍّ ثانٍ . استرجعت في ذهنها خبرة العمات والخالات وأجيال الفتيات في العهود الماضية ، استعانت أخيراً بخبرة الكتاب ، و « المفكّرين المتخصّصين بالحب » ، — فلم تر إلا حكماً قاسياً لايرحم : « المرأة تحب بصدق مرة واحدة فقط » . وأبلوموف أصدر حكمه أيضاً على هذا النحو . تذكرت سونيتشكا ، التي أحبت مرّةً ثانية ، وسمعت أيضاً من أحد القادمين من روسيا،بأنّ صديقة لها تعيش الآنقصةحب ثالثه ...

كلا ، كلا ، فهي لاتحب شتولتس ولا يمكن أن تحبّه ! فقد أحبتْ أبلوموف ، لكنّ حبها ذلك قد ذبل ، فذبلت معه الحياة وإلى الابد ! إنّ

مانحسّ به تجاه شتولتس ؛ هو نوع من الصداقة المبنيّة على أساس الصفات الرائعة الموجودة فيه ، وعلى اهتمامه وثقته بها وعلى صداقته أيضاً .

وهكذا ، فقد استبعدت الفكرة حتّى انها استبعدت امكانية حبها لصديقها القديم .

ذلكم هو السبب ، الذي كان يمنع شتولتس من اكتشاف أية أمارة على وجهها ، أو سماع أية كلمة يمكن أنْ تعطيه تلميحاً أو إشارة عابرة وحتّى بصيصاً من الأمل ، يمكن أنْ يخرج عن إطار العلاقة الصداقية العادية أو يتجاوزها .

ولكي تضع حدّاً لذلك كله دفعةً واحدة ، بقي عليها أنْ تفعل شيئاً واحداً : هو أنْ تسافر فوراً ، بعد أنْ لاحظت علامات حب شتولتس لها ، كي لاتؤجج مشاعره أكثر ، ومن أجل أنْ يخمد هذا الحب قبل أنْ ينمو . لكنها كانت قد أضاعت الفرصة الملائمة : فأمارات الحب ظهرت منذ زمن بعيد ، زد على ذلك أنه كان ينبغي عليها أنْ تتنبأ مسبقاً ، بأنّ هذه المشاعر الوليدة ستتحوّل الى وَجدٍ وحبّ ؛ فشتولتس ليس أبلوموف : ولن تستطيع أنْ تهرب منه .

لنفترض أنّ الرحيل كان ممكناً عملياً ، لكنه كان مستحيلاً معنوياً : في البداية كانت تستخدم حقوق الصداقة السابقة فقط ، وكانت تجد في شتولتس تارةً كالسابق محدثاً ذكياً ، مرحاً لطيفاً ، بينما كانت تجد فيه تارة أخرى محدّثاً مخلصاً وفياً ، يحيط بظواهر الحياة كلها بعمق ، وبكلّ مايحدث لهما ويجري أمامهما ويشغل اهتمامهما .

لكن ، كلما كانت لقاءاتهما تزداد أكثر ، كلما كان تقاربهما يتوثق معنوياً ، ويزداد بالتالي دور شتولتس حيوية وتأثيراً : فقد انتقل دون أنْ يشعر من دور الراصد ، المتتبع للظواهر ، الى دور الشارح لطبيعتها ، المتحكم بها . أصبح ضميرها ووجدانها وعقلها ، فظهرت حقوق جديدة وعلاقات خفيّة جديدة ، أوقعت حياة أولغا كلها في أحابيلها ، ماعدا زاوية مقدسة واحدة ، كانت تخفيها بدقة عن مراقبته وتحكمه .

مارست حجْراً معنوياً على عقلها وقلبها ، وأدركت أنها تملك من جانبها تأثيراً عليه . كانا يتبادلان الحقوق ، كانت تسمح بعملية التبادل هذه خلسةً وبصمت .

كيف تستطيع الآن أنْ تسلب كل شيء فجأة ؟ . . . رد على ذلك أنها كانت تجد في عملية المبادلة الخفية الصامتة هذه . . . الإرتياح . . . والمتعة . . . والتنوع . . . والحياة . . . والعمل . . . ماذا تستطيع أنْ تفعل ، إذا مااختفى ذلك كله فجأة ؟ وعندما فكرت بالهرب والرحيل ، كان الوقت قد أصبح متأخراً ، كما كانت عاجزة عن تحقيق ذلك .

فاذا مامرّ يوم دون أنْ تراه ، أو خطرت فكرة ، دون أنْ تناقشها معه ، - فانّ أولغا كانت تعتبر ذلك كله خالياً من المعنى والبريق والجاذبية .

« ياإلهي ! ليتها تستطيع أن تكون أختاً له ! - خطرت الفكرة في ذهنها . . . إنها لسعادة عظيمة أنْ يملك المرء حقوقاً أبدية دائمة على إنسان

كهذا ، ليس على ذهنه فقط ، بل وعلى قلبه أيضاً ؛ انها لسعادة لاتوصف ، أنّ يستمتع المرء بوجوده بصورة مشروعة وعلنية، دون أنْ يتطلب الأمر تضحيات قاسية وأحزاناً مضنية . والآن ماذا أفعل ؟ فاذا ماأراد الرحيل ، فانني لاأملك أيّ حق عليه يمنعه من ذلك ، بل ينبغي أنْ أرغب ذلك أيضاً ، واذا ماأردت أنْ أمنعه ، فماذا سأقول له ، وبأيّ حقّ أطلب منه بأنْ أراه وأسمعه في كل لحظة ؟ . . . ربما أفعل ذلك بسبب ما سأعانيه من ضجر وملل بغيابه . ربما أفعل ذلك . لأنه يعلمني ويسليني ، لأنه لطيف معي ، مفيدٌ لي . هذا سبب بالطبع ، لكنه ليس حقاً . ماذا سأمنحه مقابل ذلك ؟ أن أعطيه الحق بالإستمتاع بالنظر إليّ بلا هدف ، دون أن يجرؤ حتى على التفكير بمقابل ، في الوقت الذي تجد فيه نساء كثيرات السعادة العارمة بأنْ . . . » .

أخذت تتعذب وتتفكر كيف ستخرج من وضعها هذا ، لكنها لم تر مخرجاً منه . فلم تر إلا الخوف والإحباط والفراق الأبدي . كان يخطر بذهنها أحياناً أن تكشف له كل مايجول في خاطرها ، لتضع حداً لصراعها النفسي هذا ، لكنها كانت تشعر بالإنقباض بمجرّد أنْ تفكر بذلك . كانت تشعر من جرّاء ذلك بالخجل والألم .

أغرب مافي الأمر ، هو أنها لم تعد تحترم ماضيها ، حتى أنها بدأت تخجل منه ، منذ اللحظة التي استولى فيها شتولتس على حياتها ، منذ أنْ أصبحت أسيرةً له لاتحتمل فراقه .

لوْ عرفَ البارون ذلك على سبيل المثال أو أي شخص آخر ، لشعرت

طبعاً بشيء من الحرج والإرتباك ، لكنها لم تكن تتعذب ولتتألم كما ستتعذب وتتألم الآن ، عندما سيعرف ذلك شتولتس .

أخذت تتصور كيف سيتغير وجهه؛ أخذت تتصور كيف سينظر إليها وما سيقوله لها ، ثم تساءلت :

ماذا سيفكر بعد ذلك ؟ ستبدو في عينيه فجأة ضئيلة ، ضعيفة ، صغيرة . كلا ، كلا ، هذا لايمكن أن يحدث !

اكتشفت وهي تراقب نفسها ، بأنها لاتخجل من قصة حبها الماضية فحسب ، بل ومن بطل هذه القصة أيضاً . . . هنا شعرت بالأسى والندم بسبب جحودها وعدم ردّها بالمثل على مايبديه إزاءها شتولتس من عاطفة عميقة .

ربما كانت ستعتاد على شعورها بالخجل ، لو أنّ الصداقة التي تربطها بشتولتس ، كانت خاليةً من المطامح والمشاعر النبيلة ! وإذا مااستطاعت أنْ تكبت همسات قلبها ونداءاته ، فانها لن تستطيع أبداً أنْ تمنع تخيلاتها عن أن تبرز بجلاء : فقد كانت تتبدّى أمام عينيها رغماً عنها ، قصة حب آخر جديد أكثر إشراقاً وتألقاً وسعادة ، قصة حب بعيد عن الكسل والخمول يكون بطلها شخص آخر غير أبلوموف ، قصة حبّ تدخل أولغا من خلالها مسرح الحياة الفسيح الشامل المتنوع ، قصةُ حبٍّ زاخرة بالسعادة يكون شتولتس بطلها .

عندئذ ، ستبكي كثيراً على ماضيها ، الذي يثير مشاعر الخجل والندم في نفسها .

وستصحو من حلمها ، وستتخلص من جدار الصمت والكتمان وعدم المبالاة الذي يؤرّق شتولتس ويعذبه . وبعد أنْ تتمالك نفسها وتستعيد تفاؤلها وجاذبيتها ورقتها ولطفها بوجود شتولتس ، ستكتشف بأنّ المستقبل لم يضع ، وورنق الحياة لم يبهت ، والأحلام الوردية الواعدة مازالت موجودة .

ربما كانت ستألف وضعها القلق اليائس مع السنين ، وتتخلى عن أي أمل بالمستقبل كما تفعل العوانس ، وتستسلم لليأس وتشغل نفسها بممارسة بعض الأعمال الخيرية ، لكنّ الآمال قد انتعشت فاستيقظت فجأةً على بعض الكلمات ، التي أفلتت من شتولتس ، واكتشفت بأنها قد فقدت الصديق ، ووجدت فيه بدلاً من ذلك العاشق المحب . لقد غرقت الصداقة في الحب .

استيقظت شاحبةً ذلك الصباح ، ولم تغادر الى أي مكان طوال اليوم الذي اكتشفت فيه ذلك كله ، بل ظلت تعاني من الإضطراب وهي تصارع نفسها وتفكر بما يجب أنْ تفعله الآن ، وبالمسؤولية التي تقع على كاهلها ، لكنها لم تتوصل الى شيء . لعنت نفسها فقط . لأنّها لم تتغلب على خجلها وتكشف لشتولتس منذ البداية ماضيها ، لأنّ مهمةً أخرى قد برزت أمامها الآن ، هي أنْ تتغلب على الخوف أيضاً .

كانت تُصاب بنوبات من الإنفعال ، عندما كانت تشعر بألم في صدرها ، وتنحبس الدموع في عينيها ، عندما كانت تتملكها الرغبة بأنْ ترتمي عليه وتحكي له كل شيء يتعلق بحبها ، ليس بالكلمات ، بل

بالنحيب والتشنجات والإغماءات ، كي يرناها وهي تكفّر عن ذنبها .

كانت قد سمعت كيف تتصرف الفتيات عادةً في ظروف مماثلة . فسونيتشكا مثلاً ، تحدّثت عن علاقتها السابقة مع أحد الضباط وأخبرت خطيبها بأنها كانت تسخر منه وتمكر به ، وانها كانت تجبره على الإنتظار في البرد القارس ريثما تخرج وتستقل العربة .

لكنه لم يكن ليخطر ببال سونيتشكا بأنْ تتحدث عن أبلوموف وتقول بأنها كانت تمازحه من باب التسلية ، وأنه كان مضحكاً ، لايخطر ببال أية فتاة أنْ تحبّ « أخرقاً كهذا » ، لأنّ ذلك لن يصدّقه أحد . لكن تصرفاً كهذا يمكن أنْ يكون مُبَرَّراً فقط ، من قبل آخرين على غرار زوج سونيتشكا ، وليس من قبل شتولتس .

لكن أولغا كانت تستطيع أنْ تطرح المسألة بصورة أكثر إقناعاً وتبريراً ، وتقول بأنها كانت تريد أنْ تخلص أبلوموف من الضياع وأنها لجأت كما يقال ، الى استخدام العبث الصداقي الودي . . . كي تبعث الحياة في إنسان خامد ذابل ، ثم تبتعد عنه بعد ذلك ، لكن هذا ، كان يمكن أنْ يبدو زائفاً متصنّعاً الى أبعد الحدود . . . كلا ، كلا ، فلا نجاة من ذلك !

« يا إلهي ، في أية حفرة عميقة سقطت ! أسرّت أولغا لنفسها بكثير من العذاب — . أأكشف له كل شيء ! آه ، كلا ! فليبق هكذا ، دون أنْ يعرف شيئاً عن هذا أبداً ! وإذا ماأبقيت الأمر سراً ، فسأكون عندئذ في منزلة السارق . سيكون هذا نوعاً من الخداع والتزوير .

ساعدني يا إلهي ! . . . » . لكنّ المساعدة لم تأت .

ومع أنها كانت تجد متعة كبيرة بلقاء شتولتس ، إلا أنها كانت تتمنى أحياناً ألاّ تلتقي به أكثر ، وأن تمرّ في حياته كالظلّ ، الذي لا يلاحظه أحد ، كي لاتعكّر صفوه وذكاءه بشوق غير شرعي .

كان بإمكانها أنْ تندب حظها العاثر ، وتبدي ندمها وأسفها على الماضي ، وتدفن ذكراه في أعماقها ، وبعدها . . . بعدها ، قد تستطيع الحصول على « زوج ملائم » ، كما تفعل الكثيرات ، فتصبح زوجة جيّدة ذكية ، وأمّاً حانية مهتمة ، أما الماضي فتعتبره ذكرى مضت وأدبرت لم تعشها . أليس هذا مايفعله الجميع !

لكن المسألة لاتتعلق بها فقط ، بل تتعلق بشخص آخر أيضاً ، ُتعلق عليه أفضل أمانيها وآمالها الحياتية .

« لماذا أحببت ؟ » ــ كانت تتعذب بألم وتتذكر ذلك الصباح في الحديقة ، عندما كان أبلوموف يريد أنْ ينصرف ، بينما كانت هي تعتقد آنئذ ، بأنّ كتاب حياتها سينغلق الى الأبد ، اذا ماذهب أبلوموف . هكذا بجرأة وسهولة حسمت مسألة الحب والحياة ، فقد بدالها كل شيء واضحاً ، لكن الأمور تشابكت في عقدة غير محلولة .

كانت تعتقد أنّ الامور غاية في السهولة ، إذ يكفي فقط أنْ ينظر المرء ببساطة إلى الأشياء ويسير الى الأمام ، ــ لتمتثل الحياة له ، وتنبسط تحت قدميه بيسر ، فتنحلّ الأمور ! لكنها لاتستطيع الآن أنْ تجد أحداً تلقي اللوم عليه : فهي وحدها المذنبة !

وبدون أنْ تفترض أولغا أو تخمّنَ سبب مجيء شتولتس ، نهضت من على الأريكة بلا اكتراث فوضعت الكتاب وذهبت لملاقاته .

— هل أزعجك ؟ — سأل شتولتس وهو يجلس في حجرتها بالقرب من النافذة المطلة على بحيرة . كنت تقرأين ؟

— كلا ، كنت قد توقفت عن القراءة : فقد خيم الظلام . كنت أنتظرك ! — قالت برقة وبمودّة .

— ذلك ماأريد : فيجب أنْ أتحدث إليك ، — لاحظ شتولتس بجدّية ، وهو يقدم لها كرسياً ، وضعه بالقرب من كرسي آخر ، عند النافذة .

ارتعشت وتجمّدت مكانها . ثم تهاوت بعد ذلك على الكرسي غريزياً ، وجلست في وضع مؤلم ، وهي تخفض رأسها وتطرق بصرها. كان يبدو لمن يراها بأنها كانت تتمنى في هذه اللحظة أنْ تكون بعيدة عن هذا المكان مئة فرسخاً .

في هذه اللحظة ، التمع في داكرتها كالبرق ، الماضي كله . « هاهي المحاكمة قد ابتدأت ! فلا يجوز أنْ يعبث المرء بالحياة كما يعبث بالدُمى ! — تراءى لها أنّ هنالك صوتاً يردّد ذلك . — الحياة ليست مزحة ، لأنّ من يتعامل معها باستخفاف ، يدفع الثمن ! » .

صمتا بعض الوقت . كان ، على مايبدو ، يستجمع أفكاره . كانت أولغا تنظر خلسةً وبخوف ، الى وجهه النحيل ، وحاجبيه المقطبين وشفتيه المزمومتين ، المعبرتين عن عزيمة وإرادة .

« انتقام ! . . . » - فكرت أولغا وهي ترتعد في أعماقها . كان يبدو كأنّ كلاً منهما كان يستعدّ للمبارزة .

– لابد أنك تُخمّنين بالطبع ياأولغا سيرغييفنا ، عما أريد أنْ أتحدث ؟ – قال شتولتس وهو ينظر إليها متسائلاً .

كان يجلس بعيداً عن النافذة بعض الشيء ، حيث كان وجهه مغشّى بالظلام ، فالنور الذي كان يأتي من النافذة ، كان يسقط على أولغا مباشرة ، لذا فقد كان يستطيع أنْ يقرأ مايدور في ذهنها .

– كيف أستطيع أنْ أعرف ؟ – أجابَتْ بصوتٍ خافت .

لم تكن تملك أمام هذا الخصم الخطر قوة الإرادة والعزيمة ، ولا المقدرة ذاتها ، في السيطرة على نفسها التي كانت تواجه بها أبلوموف دائماً .

لقد أدركت بأنّ السبب الذي مكّنها حتى الآن من إخفاء مشاعرها وخوضها الحرب بنجاح أمام نظرة شتولتس الثاقبة، لايكمن في قوتها إطلاقاً ، كما كانت عليه الحال في مواجهتها لأبلوموف ، بل يكمن في صمت شتولتس وصبره . لكنّ التفوق لم يكن الى جانبها في هذه المعركة المفتوحة ، من هنا جاء سؤالها : « كيف أستطيع أنْ أعرف ؟ » كانت تريد من خلال سؤالها هذا ، أنْ تكسب لحظةً من الوقت ، كي يكشف خصمها عن خطّته بشكلٍ أكثر وضوحاً .

– آه ، كلا ! – أفلتت منها فجأة .

أمسكت بيده ونظرت إليه كما لو أنها تطلب الرحمة .

— أرأيت ، لقد خمنت بأنك تعرفين ! — قال شتولتس — لماذا تقولين « كلا ؟ » — أضاف بعد ذلك بكآبة .

صمتت أولغا .

— مادمت قد تنبأت بأنني سأوضح أفكاري في يوم من الأيام ، فلا بد أنكِ تعرفين بالطبع بماذا ستجيبين ؟ - سأل شتولتس .

— توقعت ذلك ، وتعذبت كثيراً ! — قالت أولغا وهي تستلقي الى الوراء، على ظهر الكرسي ، وتشيح بوجهها عن الضوء ، وتطلب من الغسق النجدة ، كي لايقرأ شتولتس الإنفعال البادي على وجهها ، ومن أجل أنْ تحجب عنه ارتباكها وألمها .

— تعذّبت ! هذه كلمة مرعبة ، — قال شتولتس بصوت هامس تقريباً ، — فدانتي يقول :

« اقطع الأملَ الى الأبد » . هذا كل ماأستطيع قوله : فهذه العبارة توضح كل ماأريد ! لكنني ، — أضاف شتولتس وهو يتنهد بعمق ، — أشكرك ، لأنك أخرجتني من الضياع والظلام ، فأنا أعرف الآن على الأقل ، ماينبغي عليّ عمله . هنالك مخرج واحد فقط ، هو أنْ أهرب سريعاً ! نهض شتولتس .

— لا ، ناشدتك الله ألاّ تفعل ! قالت أولغا متوسلة مذعورة ، وهي ترمي بنفسها عليه ، وتمسك بيده من جديد — . ارحمني : ماذا سيحدث لي :

جلس شتولتس ، وكذلك فعلت أولغا .

ـ لكنني أحبنك ياأولغا سيرغييفنا ! ـ قال شتولتس بعبوس تقريباً ـ لقد رأيت ماجرى لي خلال نصف السنة هذه ! ماذا تريدين : انتصاراً كاملاً ؟ أتريدين أنْ أذبل وأفقد عقلي ؟ أشكرك جداً .

تغيّر وجهها .

ـ سافِرْ ! ـ قالت باعتداد مشوب بالحزن والأسى ، لم تستطع إخفاءهما .

ـ أرجو المعذرة ! ـ قال شتولتس . ـ ها قد تشاجرنا . إني أعرف بأنك لاتريدين ذلك ، لكنك تقدّرين بأنه يستحيل عليّ أنْ أبقى على حالتي هذه ، فما كنت تقدرين على أن تظلّي هكذا ، لذا كان لابُدّ أنْ أحاول الهرب . فالإنسان أحياناً يصبح أنانياً ، بدون قصد .

تحرّكت أولغا قليلاً على كرسيها ، كأنها كانت تشعر بنوع من عدم الإرتياح في جلستها تلك ، لكنها لم تقل شيئاً .

ـ حسن ، هاقد بقيت ؟ لكنْ ماالفائدة من ذلك ؟ ـ تابع شتولتس ستقترحين عليّ صداقتك بالطبع ، لكنني أقول بأنّ صداقتنا قائمة بالأصل ، بدون حاجة لأيّ اقتراح ، وستبقى قائمة مهما طال بعادي .

فالصداقة شيء رائع ياأولغا سيرغييفنا عندما تكون مبنية على حبّ راسخ بين شاب وفتاة ، أو على ذكريات طيبة حلوة بين عجوزين . لكن كم يكون الوضع صعباً ، عندما تكون صداقة من طرف ، وحباً من الطرف الآخر . إنني أعرف بأنك لاتشعرين بالضجر معي ، هل تعرفين حالتي ؟

— إذا كنت تريد السفر حقاً ، فليوفقك الله ! - همست بصوت لايكاد يُسْمَع .

— أنْ أبقى ! — أخذ يتفكر بصوت مسموع ، — معناه أنْ أسير على حدّ السكين — يالها من صداقة رائعة !

— وهل سيكون وضعي أفضل ؟ — اعترضت أولغا فجأة .

— وضعك أنت ؟ لماذا ؟ — سأل شتولتس بحيوية — . فأنت . . . لاتحبّين . . .

— لاأعرف ، أقسم أنني لاأعرف ! لكن ، إذا ما . . . تغيّرت حياتي الراهنة بطريقة ما ، فماذا سيحدث لي ؟ — أضافت أولغا بحزن وبصوت خافت وكأنّها تسرّ لنفسها .

— كيف يمكن أنْ أفهم ذلك ؟ ناشدتك الله أن توضّحي ! — قال شتولتس ، وهو يسحب كرسيه نحوها ، وقد حيّرته كلماتها ولهجتها الصادقة المؤثرة .

حاول أنْ يتبيّن ملامحها ومكنونات نفسها . كانت صامتة . كانت تستولي عليها رغبة عارمة بأنْ تطمئنه وتهدّىء من روعه ، وبأنْ تستعيد كلمة « تعذّبت » وتفسرها بشكلٍ آخر ، يختلف عما فهمه من قبل ؛ لكنها لم تكن تعرف كيف تشرحها ؛ فقد كانت تشعر بشيء من الغموض بأنّهما معاً ، واقعان تحت وطأة حيرة مميتة ويعيشان وضعاً صعباً ، يشعر كلٌّ منهما بثقله ، وأنها هي الوحيدة فقط التي تستطيع بمساعدةٍ منه ، أنْ توضح الماضي والحاضر بطريقةٍ تساعدها على الخروج من هذا الوضع .

لكن ، ينبغي عليها من أجل ذلك كله أنْ تعبر هوّةً وتكشف له عما حدث لها في الماضي :

لكنها كم كانت تتمنىّ وتخشى الحكم الذي سيصدره !

— إنني لاأفهم شيئاً ، فأنا في ضياع وحيرة وظلام أكثر مما أنت فيه ! — قالت أولغا .

— اسمعي ، هل تثقين بي ؟ — سأل شتولتس وهو يمسك بيدها .

— بلا حدود ، كما تثق البنت بأمّها ، — فأنت تعرف ذلك كله — ، أجابت بضعف .

— احكِ لي كلّ ماجرى معك منذ أنْ افترقنا . فأنت عصيّةٌ عليّ الآن ، بينما كنتُ سابقاً أقرأ على وجهك كل أفكارك : يبدو لي أن هذا هو السبيل الذي يُمَكِّن كلاً منا من فهم الآخر . هل أنت موافقة ؟

— آه ، أجل ، هذا ضروري . . . يبدو أنه لابدّ من ذلك . . . — قالت بأسى وهي تدرك أنْ لامفرّ من الإعتراف . « الانتقام ! الانتقام ! » — فكرت أولغا وهي تميل رأسها على صدرها .

غضّتْ بصرها وصمتت . أما شتولتس فقد أصابه الهلع بفعل تأثير هذه الكلمات وهذا الصمت الرهيب .

« ياإلهي ! إنها تتعذّب ! ماذا حدث لها » — فكر شتولتس ، ثم أحسّ بارتعاش في يديه وساقيه . تصوّر شيئاً ما ، غايةً في الرعب . إنها ماتزال صامتة ، يبدو أنها تصارع نفسها .

— إذن . . . ياأولغا سيرغييفنا . . . — بدأ شتولتس يحثّها على الكلام .

ظلت صامتة ، لكنها قامت من جديد بحركة عصبية ، كان من الصعب على المرء رؤيتها ، كان يُسْمَع فقط كيف كان فستانها الحريري يخفق .

— إنني ألمّ أطراف شجاعتي ، — قالت أخيراً ، — ليتك تعرف كم هو صعب عليّ أنْ أتكلم ! — ، أضافت بعد ذلك وهي تلتفت جانباً ، في محاولة للتغلب على تردّدها وعلى الصراع النفسي الذي تعاني .

لم تكن تريد أنْ يعرف شتولتس كلّ شيء من فمها ، بل عن طريق معجزةٍ ما — . ولحسن حظها وعظيم سعادتها ، فقد اشتد الظلام أكثر وأصبح وجهها غارقاً في العتمة تماماً : لكن الصوت كان يخونها والكلمات لم تنعقد على لسانها ، كأنها محتارة كيف تبدأ .

« يالهي ! كيف يمكن أنْ أكون مذنبة ، مادمت أحسّ بمثل هذا العذاب والخجل ؟ » —

كانت تتعذب في أعماقها .

لقد مضى الزمن الذي كانت تتحكم فيه بتقرير مصير شخص آخر ، عندما كانت لاتزال قوية واثقة بنفسها ! وها قد جاء دورها الآن لترتعد كفتاة صغيرة ! فالخجل من الماضي وما سبّبه من عذاب وألم يطالان الحاضر ، ووضعها القلق المتصنّع ، — كلّ ذلك قد مزّقها وأضناها . . . فالوضع لايُحْتَمَل !

ـ سأساعدك . . . هل أحببت ؟ ـ نطق شتولتس بصعوبة ـ فقد أحس بألم شديد ، ناجم عن هذه الكلمة . التي تفوّه بها .

أكّدت ذلك بالصمت ، أما شتولتس فأصابه الهلع من جديد .

ـ من هو ؟ إن لم يكن ذلك سرّاً بالطبع . ـ قال شتولتس وهو يحاول أن يتحكّم بلهجة حديثه ، كي تبدو طبيعية ، لكنه أحس بأن شفتيه ترتجفان .

أحست أولغا بمزيد من الألم والعذاب . كانت تتمنى أن تذكر اسماً آخر ، وتلفّق قصة أخرى . بقيت متردّدة بضع لحظات ـ ، لكن ، كان لابد أن تواجه الحقيقة : كانت أشبه بالشخص ، الذي يرمي بنفسه في النار ، في أشد اللحظات خطراً ، عندما قالت فجأة : « أبلوموف ! »

بقي شتولتس مذعوراً في مكانه . استمر الصمت مدة دقيقتين .

ـ أبلوموف ! ـ كرّر بدهشة . ـ هذا ليس صحيحاً ! ـ أضاف بعد ذلك بصورة قاطعة وهو يخفض صوته .

ـ إنها الحقيقة ! ـ قالت أولغا بهدوء .

ـ أبلوموف ! ـ كرر شتولتس من جديد . ـ مستحيل ! ـ أضاف مؤكداً من جديد ـ لابد أن التباساً قد حصل : فإما أنك لم تفهمي نفسك ، أو لم تفهمي أبلوموف ، أو لم تفهمي الحب .

ـ صمتت أولغا .

ـ هذا ليس حباً ، إنه شيء ما آخر ، ذلك ماأقوله لك ! ـ أكد شتولتس باصرار .

— أجل ، لقد مازجته ، وتصنّعت معه ، وضلّلته وجعلته تعيساً . . . وها أنت تعتقد بأنني أسير معك على نفس الطريق ! — قالت أولغا بصوت حبيس ، مشوب بدموع الإهانة والأسى .

— عزيزتي أولغا سيرغيفنا ! لاتغضبي ، ولا تتكلمي بهذه الطريقة : فهذه ليست لهجتك . أنت تعلمين بأنني لاأفكر بشيء من هذا . لكنني لاأستطيع أنْ أقتنع أو أفهم ، كيف يمكن لأبلوموف . . .

— لكنه رغم ذلك جدير بصداقتك ، فأنت لاتعرف كيف تعطيه حقه وقدره : لماذا تستغرب أنْ يكون جديراً بالحب ؟ — قالت أولغا مدافعة .

— أعرف ، بأنّ الحب أقل صرامة وتشدّداً من الصداقة ، — قال شتولتس ، — فالحب أعمى غالباً ، والناس لايحبون بسبب المآثر على كل حال . لكن الحب يتطلب بعض السمات والأمور الصغيرة أحياناً التي لاتتوفر في صديقي الكسول إيليا . ذلك هو سبب دهشتي . اسمعي ، — أضاف شتولتس بحيوية — لن نصل من خلال هذا الأسلوب الى نتيجة ، ولن نفهم بعضنا .

لاتخجلي من التفاصيل ، ولا تكوني رحيمة بنفسك نصف ساعة من الزمن ، حدثيني عن كل شيء ، وأنا سأحدّد لك الحالة التي كنت تعيشين ، ولربما سأحدّد لك أيضاً ماسيكون . . . يبدو لي أنّ هنالك التباساً في الامر . . . آه ، كم أتمنى أنْ يكون ذلك صحيحاً ! أضاف بالهام . — أتمنى أنْ يكون أبلوموف ولا أي شخص آخر ! أبلوموف !

هذا يعني أنك حرّة ، غير أسيرة للماضي ولا للحب . . . حدّثيني ، حدثيني بسرعة ! ــ ختم شتولتس بصوت هادىء ، بصوت بهيج تقريباً.

ــ حسناً ، حسناً ! ــ أجابت بفرح وسرور لأنّ جزءاً من العبء قد أُلقي عن كاهلها . ــ لكنني حائرة . فأنا أعاني الكثير من الألم ! إنني لاأعرف إنْ كنت مذنبة أم لا ، لاأعرف إنْ كان ينبغي عليّ أنْ أخجل من الماضي أو أتأسف عليه ؛ هل أثق بالمستقبل أم أخيّب أملي فيه . كنت تتحدث عن عذاباتك ، لكنك لم تذكر عذاباتي مطلقاً ، ولم تفترض وجودها . إسمعني حتى النهاية ، لكنْ لاتسمعني بعقلك : فأنا أخشاه ، من الأفضل أنْ تسمعني بقلبك : لأنه ربما سيأخذ بعين الإعتبار ، بأنني محرومة من الأمّ ، وأنني كنت كما لو أنني في غابة . . . ــ أضافت بهدوء وبصوت خائر ضعيف ــ . كلا ، ــ صحّحت بعد ذلك بسرعة ، لاترحمني . فاذا كان ذلك حباً . . . فاتركني . ــ توقّفتْ لحظةً ــ وعُدْ عندما تناديك الصداقة وحدها من جديد . وإذا كان ذلك تصنّعاً وعبثاً ودلالاً ، فاصدرحكمك عليّ بالإعدام ، واهرَبْ وانسني الى الأبد . سمعت !

ضغط على يديها بقوة وحرارة في معرض ردّه على كلامها .

ابتدأ اعتراف أولغا التفصيلي الطويل . أخذت تحكي بوضوح وتتذكر بالتفصيل كل ما كان يؤرقها ويعذبها ، والأسباب التي كانت تجعلها تحمر خجلاً ، تحدثت أيضاً عن سعادتها ومشاعرها الرائعة السابقة ، وكيف سقطت بعد ذلك فجأة في لجّة المأساة والشكوك . .

تحدّثتْ عن النزهات والحديقة ، عن آمالها ومطامحها السابقة ، عن صحوة أبلوموف وعن سقوطه ، عن غصن الليلاك وحتى عن القبلة . لكنها أغفلت فقط التحدث عن تلك الأمسية الخانقة ، لأنها لم تتبيّن بعد ، طبيعة تلك النوبة التي ألمّتْ بها حينئذ .

في البداية كان يسْمَع همسها المرتبك فقط ، لكنّ صوتها أخذ يصبح أكثر وضوحاً وطلاقة كلما مضت في حديثها شوطاً أبعد ، فقد انتقل من الهمس الى النغمة الخافتة ومنها الى الرنين . أنهت قصتها بهدوء واضح كما لو أنها كانت تقصّ حكاية حَدَثَتْ مع شخص آخر .

انفتحت الستائر أمامها وظهر الماضي ، الذي كانت تخشى أنْ تنظر إليه حتى الآن بإمعان . تفتّحت عيناها على أشياء كثيرة ، حدثت في ثنايا ذلك الماضي ، حتى أنها كانت تستطيع أنْ تنظر إلى محدّثها بجرأة ، لولا الظلام الذي كان يحول دون ذلك .

أنهت حديثها وراحت تنتظر إصدار الحكم ، لكن الجواب كان صمت القبور .

ماذا حدث له ؟ لم تكن تسمع كلمة ولا حركة ، حتى ولا نَفَسَاً ، كأنّ أحداً لم يكن معها .

أثار هذا الصمت ، من جديد ، الشك في نفسها . استمر الصمت طويلاً . ماذا يعني هذا الصمت ؟

ماهو الحكم الذي سيصدر عن أعدل قاضٍ في هذا العالم ؟ قد يكون الحكم الذي يمكن أنْ يصدر عن شخص آخر غيره ، قاسياً لايرحم ؛

فشتولتس هو الإنسان الوحيد ، الذي يمكن أنْ تختاره ليكون مدافعاً عنها . . . فهو الذي يمكن أنْ يفهم وضعها ، ويقدّر ظروفها ويقرّر مصلحتها أفضل مما تتّخذه هي بنفسها من قرار ! لكنه صامت : فهل يمكن أنْ تكون قضيتها خاسرة ؟ . . .

شعرت بالخوف من جديد . . .

انفتحت الابواب فجأة فغمرت شمعتان كانت تحملهما خادمتها ، الزاوية المظلمة بالضياء . ألقت عليه أولغا نظرة خجولة ، لكنها متلهفة متسائلة . شبك يديه على صدره ، وراح ينظر إليها بعينين وديعتين مفتوحتين ، ويستمتع بارتباكها .

اضطرب قلب أولغا واضطرم . تنهّدت بعمق وشارفت على البكاء. لكن الثقة به ، والتسامح مع نفسها عادا إليها فجأة . كانت سعيدة كالطفل الذي يُصْفَحُ عنه لخطأ ارتكبه ، ثم يُلاَطفُ ويتمّ استرضاؤه .

— هذا كل شيء ؟ — سأل بصوت خافت .

— كل شيء ! — أجابت أولغا .

— ورسالته ؟

أخرجت الرسالة من محفظتها ، وناولتها له . اقترب من الشمعة فقرأها ووضعها على الطاولة . ثم عادت عيناه لتتركزا عليها ، وقد امتلأتا بتعبير لم تشاهده فيهما منذ زمنٍ طويل .

كان يقف أمامها الآن صديقها ، الذي عرفته من قبل ، بنفس سماته المعهودة .

كان واثقاً بنفسه ، ساخراً بعض الشيء ، طيباً الى أبعد الحدود ، عنصر الدعابة بادٍ عليه . لم يكن على وجهه أيّ أثر للعذاب ولا للشك . أمسك بكلتا يديها وقبّلهما ، ثم استغرق بعد ذلك في تفكير عميق . هدأت أولغا أيضاً ، وشعرت بنوع من الطمأنينة وراحت تراقب بهدوء حركة الأفكار المتراقصة على وجهه .

نهض شتولتس فجأة .

— ياإلهي ، لو أنني كنت أعرف أنّ المسألة تتعلق بأبلوموف ، لما تعذبت هكذا ! — قال شتولتس ، وهو ينظر الى أولغا بلطف وبثقة ، كما لو أنّ ماضيها خالٍ من أية أمور تستدعي اللوم والخوف .

أصبح السرور بادياً عليها ، وغمرت البهجة كيانها . كان الإرتياح بادياً عليها . فقد اتضّح لها ، أنّ ردّ فعله ، كان طبيعياً ، فلن يُصْدرَ حكماً بالإعدام بحقها ، ولن يهرب !

استعاد شتولتس السيطرة على نفسه من جديد ، وكان مرحاً ، لكنّ هذا لم يكن كافياً ، بالنسبة لها . فقد لاحظت بأنها بريئة ، لكنها رغم ذلك ، كانت تنتظر الحكم وتريد أنْ تسمع قرار براءتها . تناول شتولتس قبعته .

— الى أين ؟ — سألت أولغا .

— استريحي ، فأنت مضطربة ! — قال شتولتس .— سنتحدث غداً.

— أتريدني أنْ أمضي الليل كله دون نوم ؟ — قاطعته أولغا وهي

تمسك بيده وتجلسه على الكرسي . ـ تريد أنْ تذهب دون أنْ تبدي رأيك بما قلته لك . . .

دون أنْ توضح لي من أنا ، ومن . . . سأكون . ارحمني ياأندريي إيفانيتش : فمن ذا الذي سيقول ذلك لي ؟ من ذا الذي سيعاقبني ، اذا كنت أستحق ذلك ، ومن ذا الذي سيغفر لي إذا كنت لاأستحق العقاب ؟ـ أضافت أولغا ، ثم ألقت عليه نظرة مليئة بالمودّة ، أجبرته أنْ يضع قبعته ، حتى أنه كاد أنْ يرتمي أمامها .

ـ اسمحي بأنْ أقول لك : ياملاكي ! ـ قال شتولتس . ـ لاتعذّبي نفسك عبثاً : فأنت لاتستحقين اللوم والعقاب ، حتى انني لاأستطيع أنْ أضيف شيئاً لما سمعته منك . فلامبرّر لقلقك وارتيابك . تريدين أن تعرفي ماهي التسمية التي يمكن أنْ تُطْلَقَ على ماحدث معك ؟ فأنت تعرفين ذلك منذ زمن طويل . . . أين رسالة أبلوموف ؟ ـ أخذ الرسالة من على الطاولة .

ـ اسمعي ! ـ ثم أخذ يقرأ : « كلمة أحبك الراهنة ، التي تفوّهت بها ، لاتعني حبّاً حقيقياً راهناً ، بل مستقبلياً ، فهي لاتعني أكثر من مجرّد حاجة غير واعية لأن تحبيّ ، أكثر من حاجة تتّقد بشكل متصنع غير حقيقي ، دون أن تصدر نوراً ساطعاً ، بسبب عدم كفاية ، أو لنقل بسبب نقص الغذاء الحقيقي ، فتعبرّ عنها النساء أحياناً ، عندما يداعبن طفلاً ، أو يجاملن امرأة أخرى ، حتى أنّ ذلك يتمّ التعبير عنه من خلال الدموع أو النوبات الهستيرية ! . . . لقد أخطأت (قرأ شتولتس ،

وهو يشدّد على هذه الكلمة) : فليس أمامك من كنت تنتظرينه أو تحلمين به ! انتظري، سيأتي ، وعندئذ ستعودين الى وعيك وستحزنين وستخجلين بعدها من خطيئتك . . . » .

أرأيت كم هذا صحيح حقاً ! — قال شتولتس . لقد شعرت بالخجل والأسى بسبب . . . خطيئتك ، ذلك كل مافي الأمر . الأمر واضح تماماً ، فلا أرى ضرورة لأنْ أضيف شيئاً . لقد كان محقاً ، لكنك لم تصدقيه ، وفي هذا يكمن ذنبك .

كان ينبغي أنْ تفترقا منذ ذلك الوقت ، لكن جمالك سَحَرَهُ . . . أما هو فقد كان مفتوناً برقتك ولطفك ! — أضاف شتولتس بلهجة لاتخلو من بعض السخرية .

— لم أصدّقه ، لانني كنت أعتقد بأنّ القلب لايخطىء .

— كلا ، فالقلب يخطىء : وكم يكون ذلك قاتلاً في بعض الأحيان ! لكن هذا لم يصل الى قلبك ، — أضاف شتولتس ، — بسبب تصوّرك ورقة إحساسك من جهة ، وبسبب عطفك من جهة أخرى . . . كنت تعتقدين بأنْ العيد لن يحلّ في حياتك المقبلة ، وأنّ الشعاع الشاحب ذاك سينير حياتك ، ثم يعقبه بعد ذلك ليل دائم ، ذلك ماكنت تخشين . . .

— والدموع ؟ — قالت أولغا — . ألم تكن نابعة من القلب عندما كنت أبكي ؟ لم أكن أكذب ، فأنا كنت صادقة مخلصة . . .

— يا إلهي ! وهل هناك شيء لايثير بكاء النساء ؟ فلقد قلت ، بأنك تكدّرت وحزنت على غصن الليلاك ، والمقعد الخشبي المحبب إليك .

أضيفي الى ذلك ، عزة النفس المهانة ودورك الفاشل كمنقذة ، والإعتياد أيضاً . . . ألا يعتبر ذلك كله سبباً كافياً للدموع !

ـ ولقاءاتنا ونزهاتنا ، هل كانت خطأ أيضاً ؟ فأنت تتذكر بأني . . . كنت عنده . . .

ـ أكملت أولغا بارتباك ، لكنها كانت تريد ، على مايبدو أنْ تخمد كلماتها . حاولت أولغا جاهدة بعد ذلك ، أنْ تتّهم نفسها ، من أجل أن يدافع شتولتس عنها بحرارة أكثر ، ولكي تبدو في عينيه أكثر فأكثر ، بأنها على صواب .

ـ يتضح من كل ماذكرت بأنكما لم تتحدثا شيئاً في لقاءاتكما الأخيرة ، إذ لم تبق مادة للحديث .

فما يسمى « حبّك » كان ينقصه المحتوى والمضمون ، فما كان له ليستمر أكثر . فلقد اختلفتما في الواقع ، قبل الفراق، ولم تكونا وفيين للحب ، بل لشبحه ، الذي اختلقتماه أنتما بالذات ، ـ ذلك هو سر المسألة .

ـ والقبلة ؟ ـ همست بصوت خافت لم يسمعه ، لكنه استنتج المقصود .

ـ وما أهمية ذلك ، ـ قال شتولتس بلهجة متهكمة ساخرة ، ـ كان من المفروض أن يكون عقابك على هذا ، هو حرمانك من طبق شهي أثناء الغداء ـ . كان لايزال ينظر إليها بدعابة فائقة ، وبمودّة كبيرة .

ـ لكنّ النكتة لايمكن أنْ تكون تبريراً « لخطأ » كهذا ! ـ اعترضت أولغا بصرامة ، وقد غضبت بسبب عدم مبالاته واستخفافه ـ . كان من السهل عليّ أكثر ، لو أنك عاقبتني بكلمةٍ ما قاسية ، أوسمّيت تصرفي هذا باسمه الحقيقي .

ـ ماكنت لأمزح ، لو أنّ المسألة تتعلق بشخص آخر غير إيليا ، ـ قال شتولتس معللاً ، ـ فالخطأ هناك ، يمكن أنْ ينتهي . . . بكارثة : لكنني أعرف أبلوموف . . .

ـ شخص آخر ، مستحيل ! ـ قاطعته أولغا وقد بداعليها التهيّج. لقد عرفته أكثر مما عرفته أنت . . .

ـ أرأيتِ ! ـ أكد شتولتس .

ـ لكن ، لو طرأ عليه تبدل . . . لو أصبح منتعشاً بحبّ الحياة ، لو سمع مني . . .

أما كان للأمور أنْ تتغير ؟ هل كان يمكن أن يحصل عندئذ خطأ ؟ ـ قالت أولغا بُغيةَ أنْ تُقَلّبَ المسألة وتتفحّصها من جميع الجوانب، كي لايبقى أي لغز أو أدنى شك يتعلق بذاك الماضي ، خافياً .

ـ هذا يعني ، لو كان مكانه شخص آخر ، ـ قاطعها شتولتس ، لتطورّت مشاعرك ، بلا ريب ، الى حب حقيقي ، ولترسّخت علاقاتكما وعندئذ . . . لكنّ ذلك كله هو قصة أخرى وبطل آخر ، لاعلاقة لنا بهما .

تنهدت كما لو أنها ألقت بآخر عبء عن كاهلها . صمت الإثنان .

ـ أنْ يتماثل الإنسان للشفاء . . . تلكم هي السعادة ، ـ تفوّهت أولغا ببطء ، وقد تفتحت كالزهرة ، ثم وجّهت إليه نظرة اعتراف بالجميل ، نظرة مودّةٍ حارّةٍ متناهيةٍ في صدقها ، لدرجة أنْ خُيّل له ، بأنه قد وجد فيها تلك الشرارة التي بحث عنها عبثاً طيلة عام . أحس برعشةٍ بهيجةٍ تسري في جسده .

ـ كلا ، فأنا الذي أتماثل للشفاء ! ـ قال شتولتس ثم استغرق في التفكير . ـ آه ، ليتني كنتأعرف فقط بأنّ بطل هذه المغامرة هو إيليا ! كم من الوقت قد ضاع ، كم من الجهد قد تبدّد ! ومن أجل ماذا ؟ ـ قال شتولتس بحزن وبأسف .

لكنه بدا ، وكأنه قد صحا فجأة من حزنه ، ومن تأمله المضني ، فانفرجت أساريره ، وتألقت عيناه فرحاً .

ـ لكن هذا كان محتماً : فكم أنا هادىء مطمئن الآن ، و . . . كم أنا سعيد ! ـ أضاف بسرور .

ـ كأنني في حلم ، كأن شيئاً لم يكن ! ـ قالت أولغا بتأمل ، وبصوت لايكاد يُسْمَع ، وقد اندهشت لانتعاشها المفاجىء هذا . ـ فأنت لم تخلصني من الخجل والندم فقط ، بل ومن الحزن والألم ، ومن كل شيء . . . كيف استطعت أنْ تفعل ذلك ؟ ـ سألت بهدوء . هل سينتهي ذلك كله حقاً ، هل سيمر الخطأ بسلام ؟

ـ أعتقد ، بأنّ كل شيء قد انتهى ! ـ قال شتولتس ، وهو

يرميها للمرة الأولى بنظرة شوق لايخفيها ؛ — أقصد كل ماكنت تشعرين به ، وتخافين بسببه .

— وماذا سيحدث ، إذا لم يكن ذلك خطأ ، بل حقيقة ؟ — سألت أولغا .

— اسمعي ماهو مكتوب هنا ، — قال شتولتس وهو يأخذ الرسالة من جديد : — « لم تعثري على من كنت تنتظرين أو تحلمين به : فلا بدّ أن يأتي ، وعندها ستصحين . . . » . وستحبّين ، أضيف أنا ، حباً زاخراً متجدداً ، ليس لسنة فحسب ، بل مدى الحياة كلها ، لكنني لا أعرف فقط . . . من هو المحبوب ؟ — أكمل شتولتس وهو يحدّق إليها . غضّتْ بصرها وزمتْ شفتيها ، لكنّ أشعةً كانت تنبجس عبر جفنيها الى الخارج ، كما كانت شفتاها تحبس بسمةً ، لم تستطع أنْ تكبتها حتى النهاية . نظرت إليه وبدأت تضحك من أعماقها ، لدرجة أنّ الدموع طفرت من عينيها .

— لقد وضّحت لك ياأولغا سيرغييفنا ، كل ماحدث معك ، وما سيحدث ، — ختم شتولتس الكلام ، — لكنك لم تجيبي على سؤالي بعد .

وماذا يمكنني أنْ أقول ؟ — قالت أولغا بارتباك — . ليتني كنت أملك الحق ، بأنْ أقول لك كل ماأراه ضرورياً بالنسبة إليك . . . فأنت تستحق الكثير الكثير — أضافت وهي تنظر إليه بخجل .

خُيّل إليه من جديد ، بأنه وجد في نظرتها شرارة من المودة الصادقة العميقة ، التي بحث عنها طويلاً ، فارتعش من جديد بسبب السعادة ، التي غمرته .

ـ لاتستعجلي ، ـ أضاف شتولتس ، ـ كل ماأرجوه هو أن تقولي مستقبلاً ، عندما ينتهي حدادك الغرامي ، حداد اللياقة ، كل ماترينه ضرورياً بالنسبة لي ، وكل ماأستحق . فأحداث هذا العام قالت لي بعض ماأريد . أما الآن ، فأريدك أن تقرّري :

هل أسافر . . . أم أبقى ؟

ـ اسمع : فأنت تتدلل عليّ ! ـ قالت فجأة وبسرور .

ـ كلا ! ـ لاحظ شتولتس برزانة ـ فهذا السؤال لم يفت أوانه ، لأنه يكتسي الآن معنى آخر : فاذا بقيت ، ف . . . بأي حق ؟

ارتبكت أولغا فجأة .

ـ أرأيت بأنني لاأتدلل ! ـ ضحك شتولتس ، وقد بدا عليه الإرتياح ، لأنه كشف الحقيقة ـ . ينبغي علينا أنْ نتصرف مع بعضنا ، بعد حديثنا هذا ، بطريقة تختلف عن السابق .

فالآن ، لم نعد كما كنّا البارحة .

ـ لاأعرف . . . ـ همست أولغا ، وقد ازداد ارتباكها .

ـ أتسمحين بأنْ أسدي إليك نصيحة ؟

ـ تكلّم . . . سأنفذها بلا تردّد ! ـ أضافت أولغا بانصياع مليء بالوجد والحب .

ـ تزوجيني !

ـ لاأجرؤ بعد . . . ـ همست أولغا وهي تحجب وجهها بيديها باضطراب ، لكنها كانت سعيدة . . .

— لماذا لاتجرؤين؟ — سأل بصوت هامس ، وهو يميل وأسها نحوه.

— والماضي ؟ همست من جديد ، وقد وضعت رأسها على صدره ، كما لو كانت تضعه على صدر أمها .

أبعد يدها عن وجهها ، وقبّل رأسها وراح يستمتع طويلاً بارتباكها ، وهو ينظر الى الدموع في مآقيها .

— سيذبل ، كما ذبل غصن الليلاك ! — ختم شتولتس . — لقد أخذتِ درساً : فلقد آن الأوان لأن تستفيدي منه . فلنبدأ حياتنا : امنحيني مستقبلك ، ولا تقلقي — فسأكون جديراً به ، وفياً له ، متكفلاً به ! لنذهب الى عمتك .

انصرف شتولتس في ساعة متأخرة .

« لقد عثرت على ماأريد ، — فكر شتولتس ، وهو ينظر بعينين عاشقتين الى الأشجار ، والسماء ، والبحيرة ، وحتى الى الضباب المتصاعد من الماء . — انتظرت وظفرت ! كم انتظرت سنوات طويلة من المعاناة والصبر والإضطراب والقلق ! أجل ، لقد انتظرت طويلاً ، لكنني فزت بأروع مكافأة : إنها سعادة الإنسان ! » .

كانت سعادته الآن ، تحجب كل شيء عن ناظريه : المصنع ، وعربة أبيه ، والقفاز المتّسخ ، والحسابات الملطخة ببقع الزيت والشحم وحياة العمل كلها .

استعاد في ذاكرته فقط ، غرفة أمه العبقة ، ونوتات غيرتسي الموسيقية ، ومتحف الأمير للصور واللوحات الفنية ، والعيون الزرق

والشعر الكستنائي — لكن صوت أولغا الرقيق العذب ، كان يغطّي ذلك كله : فلم يكن يتردّد في ذهنه إلاّ أصداء غنائها العذب . . .

— أولغا — زوجتي ! — همس شتولتس وهو يرتعش بسرور . — لقد عثرت على كل ماأريد ، فلن أبحث بعد الآن عن شيء . ولن أذهب إلى أي مكان !

كان يشعر بسعادة عارمة وهو في طريقه الى البيت ، لدرجة أنّه لم يكن يلاحظ الطريق ، والشارع .

شيّعته أولغا طويلاً بنظراتها ، ثم فتحت النافذه بعد ذلك ، واستنشقت لبضع دقائق نسيمات الليل الباردة العبقة ، بينما بدأ اضطرابها يخفّ تدريجياً ، وأصبح صدرها يخفق بانتظام .

ركّزت نظرها على البحيرة ، وعلى الأفق البعيد ، وراحت تتأمل بهدوء وبعمق ، كما لو أنها نائمة . كانت تريد أنْ تقف على حقيقة ما تفكر وتحسّ به ، لكنها لم تستطع .

كانت الأفكار تتدافع كالأمواج ، والدم يسيل بانسياب في عروقها. كانت تحس بالسعادة ، لكنها لم تستطع أن تتبيّن حدودها وكنهها . أخذت تتفكر بالسبب ، الذي جعلها هادئة ، مطمئنة ، سعيدة ، فرحة .

— إنني الآن خطيبته . . . . — همست أولغا .

« أنا خطيبة ! » — بدأت الفتاة تفكّر برعشة من الإعتزاز بالسعادة بعد أنْ انتظرت طويلاً هذه اللحظة ، التي أنارَتْ حياتها كلّها ،

ثم راحت تنظر من علٍ الى الدرب المظلم ، الذي كانت تسير عليه البارحة وحيدة .

ولماذا لاترتعش؟فقدكانت تسير لوحدهاعلى الطريق،دون أن يشعر بها أحد ، ثم التقاها عند مفترق الطرق ، ومدّ إليها يده ، وأخرجها من المتاهات والأضواء الباهرة التي تعمي العيون ، وقادها الى الحقول الفسيحة والهضاب ، التي تبتسم لها بودّ وبمحبة . لكنها لم تُغمض عينيها من شدة اللمعان والبريق ، ولم يتوقف قلبها ، ولم تتهيّج .

أصبحت نظرتها هادئة مطمئنة ، وهي تواجه فيض الحياة ، ورحابها الفسيحة ، وهضابها الخضر الرائعة . لم تشعر بالرعشة تسري في جسدها ولم تضطرم نظرتها اعتزازاً وزهواً : لكنها أحست فقط عندما حوّلت نظرتها تلك ، عن الرحاب الفسيحة والهضاب الخضر الرائعة ، الى الإنسان ، الذي مدّ لها يده ، بأنّ الدموع كانت تسيل ببطء على وجنتيها

ظلت جالسة ، بطريقة تبدو للناظر ، كما لو أنها نائمة — . كان حلم سعادتها هادئاً ، جميلاً : لم تكن تتحرك ، حتى أنها لم تكن تتنفس تقريباً .

ركّزت نظرتها الحالمة تلك ، وهي ماتزال مستغرقة في تأملها العذب الجميل ، على هذا الليل الأزرق الهادىء ، الذي ينسم أنفاساً عبقة دافئة ويتلألأ بوداعة ورقة . بسطّ طيف السعادة جناحين واسعين ، وراح يحلّق بهدوء فوق رأسها ، كما تحلّق الغيمة في السماء . . .

في حلمها هذا ، لم تر نفسها ملفوفةّ بالحرير مدة ساعتين فقط ، لتجد نفسها بعد ذلك في ثياب بالية مدى الحياة . لم تر في حلمها وليمة

رائعة ، ولا أضواء ، ولا وجوهاً فرحة مسرورة ؛ شاهدت سعادتها ، البسيطة ، الخالية ، من البهرج والزينة ، التي أدخلت السرور الى قلبها ، والتي جعلتها تهمس مرّةً أخرى ، بكثير من الرقة والحنان : « إنني خطيبته ! » .

— ٤ —

يا إلهي ! كم كانت تبدو شقة أبلوموف كئيبة مظلمة ، بعد انقضاء سنة ونصف على زيارة شتولتس في عيد التسمية . كان إيليا إيلييتش قد ترهّل ، وكان السأم يتخلّل عينيه ويأكلهما ، كما كان الضعف والإعياء يطلاّن منهما .

كان يتمشىٰ في الغرفة ويتمشى ، ثم يستلقي بعد ذلك وينظر الى السقف ، ويأخذ كتاباً من على المنضدة ويتصفح بعينيه بضعة أسطر ، ويتثاءب ، ثم يبدأ ينقر بأصابعه على الطاولة .

أصبح زاخار أخرق ووسخاً أكثر ، ظهرت الرقع على كوعيه ؛ كان يبدو فقيراً ، جائعاً ، كما لو أنه يأكل بشكل سيء ، وينام قليلاً ، ويقوم بعمل ثلاثة رجال .

أصبح رداء أبلوموف بالياً ، فلم تستطع عمليات الترقيع والرتق أن تحول دون اهترائه : إذ كان من الضروري استبداله بآخر جديد منذ زمن بعيد . والبطانية أيضاً أصبحت بالية ، ظهرت عليها الرقع في بعض الأماكن ؛ الستائر على النوافذ تَنَسّلَتْ وبهت لونها منذ زمن بعيد ،

وعلى الرغم من أنها كانت نظيفة مغسولة ، إلا أنها كانت تبدو كالخرق البالية .

جلب زاخار غطاء الطاولة القديم ، وفرش نصف الطاولة ، الموجودة بالقرب من أبلوموف ، ثم جلب بحذر ، وهو يعضّ لسانه ، دورقاً زجاجياً مليئاً بالفودكا مع بعض الأغراض الأخرى ، ووضع الخبز وانصرف .

انفتح الباب المفضي الى القسم ، الذي تشغله صاحبة الشقة ، ودخلت أغافيا ماتفييفنا ، وهي تحمل برشاقة ونشاط مقلاة تحتوي على بيض لايزال يسمع صفيره ونشيشه .

كانت قد تغيرت بشدة ، ولم يكن هذا التبدل في صالحها . أصبحت نحيلة . لم تعد وجنتاها مستديرتين ، بيضاوين ، متورّدتين ، متألقتين عافيةً ؛ أما حاجباها فقد توقفا عن اللمعان ، بينما ذبلت عيناها .

كانت ترتدي فستاناً قديماً من الشيت ، أما يداها فقد أصبحتا خشنتين من كثرة العمل ، ومن كثرة تعاملهما مع النار ، أو الماء ، أو بسبب الإثنين معاً .

كانت أكولينا قد تركت البيت . أما أنيسيا ، فكانت تعمل في المطبخ والحاكورة وتراقب الطيور وتشطف الأرض ، وتغسل الثياب ، لكنها لم تكن تتدبر هذه الأعمال لوحدها ، فقد كانت أغافيا ماتفييفنا تعمل في المطبخ : تطحن ، وتغربل ، أمّا المطرزات فلم تكن تجرؤ حتى على التفكير بها .

كانت تقوم بتقطيع البصل وبرش الفجل البري ، بالإضافة الى تحضير بعض أنواع التوابل الأخرى . كانت الكآبة بادية على وجهها بوضوح .

لم تكن تتأوه على نفسها ، ولا على القهوة التي لم تعُدْ تطحنها إلا قليلاً ، ولم تكن تأسف ، لأنّ مجالات عملها قد أصبحت ضيقة محدودة ، أو لأنها لم تعد تمارس نشاطها على نطاق واسع ، فلم تعد تدق القرفة ، أو تحضر القشدة والزبدة ، بل كانت تتأوه وتتأسف لأنّ إيليا إيلييتش لم يعد يأكل شيئاً من هذا كله ، فلم تعد القهوة تُجْلَب له من أحسن المخازن بكميات كبيرة ، بل أصبحت تُجْلَب من الباعة الجوالين بكميات قليلة جداً ؛ لم يعد يتناول القشدة الشهية الرائعة ، فأصبح يتناول البيض بدلاً من الشرحات الشهية الطازجة ، واللحم المقدد عوضاً عن الطري ، عالي الجودة .

ماذا يعني ذلك ؟ سبب ذلك ، هو أنّ الدخل الجيد من أبلوموفكا الذي كان يرسله شتولتس إلى أبلوموف ، كان يذهب لتسديد الإدّعاءات الباطلة من الديون الوهمية ، التي كان ينبغي على إيليا أنْ يدفعها لصاحبة الشقة بموجب سند دين ، كان قد أعدّه إيفان ماتفييتش وتارانتييف عن طريق التحايل والمكر والدهاء .

أحرزت « المسألة القانونية » ، التي دبرها أخ صاحبة الشقة نجاحاً أكبر مما كان متوقعاً . فقد ارتبك إيليا إيلييتش واضطرب وخاف كثيراً لدى أول تلميح صدر من تارانتييف الى علاقة أبلوموف « الشائنة »

بصاحبة الشقة ، وتمّ الإتفاق بعد ذلك على المصالحة ، ثم التقى الثلاثة وشربوا ، ووقع أبلوموف على سند الدَّين ، الذي يجب أنْ يسدّده خلال أربع سنوات ، وبعد شهر ، وقّعت أغافيا ماتفييفنا على سند دَيْنٍ مماثل ، تدفعه لأخيها ، دون أن تعرف أو تشتبه بالأمر ، ودون أنْ تعرف بالطبع حقيقة المسألة . فقد قال لها أخوها ، بأنّ توقيع هذه الورقة ضروري من أجل البيت ، الذي تملكه .

كل مافعلته ، هو أنها تعذّرَتْ قليلاً ، وقالت بأنها لاتجيد الكتابة ، ورجت أخاها بأنْ يرغم ابنها فانيوشا على أنْ يقوم بذلك بدلاً عنها ، لأنه « يكتب أفضل منها بكثير » ، ولأنها قد تخطىء أيضاً . لكنّ أخاها أصرّ عليها أنْ تنفّذ مايطلبه منها ، فجاء توقيعها بأحرف كبيرة معوجّة مائلة .

كان عزاء أبلوموف بعد أنْ وضع توقيعه ، هو أنّ النقود ، التي سيدفعها ستذهب لإعالة الطفلين اليتيمين ، لكنه في اليوم التالي ، بعد أنْ صحا ذهنه ، أخذ يتذكر المسألة بكثيرٍ من الخجل ، محاولاً أنْ ينسى ذلك كله ، متجنّباً مقابلة أخيها ، حتى أنه كان يهدّد تارانتييف ، عندما كان الأخير يبدأ بالتحدّث عن ذلك ، بأنه سيترك الشقة ويغادر الى القرية .

وعندما استلم إيليا إيلييتش النقود من القرية بعد ذلك ، جاء إليه أخ صاحبة الشقة وأبلغه بضرورة أنْ يبدأ بتسديد الديون فوراً ، والا فإنّ القرية ستُطْرَحُ للبيع في المزاد العلني إذا لم يسدّد الدَّين في الموعد المحدد خلال ثلاث سنوات .

أدرك أبلوموف الورطة ، التي وقع فيها ، عندما صارت النقود ، التي كان شتولتس يرسلها ، تذهب لتسديد الدَّين ، فلم يبقَ لديه إلا مبلغ زهيد فقط يعيش منه .

كان أخ صاحبة الشقة مستعجلاً لأنْ ينهي هذه الصفقة خلال سنتين كي لاتبرز من هنا وهناك عوائق ، قد تعرقل المسألة ، فأصبح وضع أبلوموف صعباً للغاية بسبب ذلك .

في البداية ، لم يلاحظ أبلوموف كثيراً المصاعب ، التي تعرّض لها بسبب العادة المتأصلة فيه وهي أنه لايعرف مقدار مافي جيبه من نقود ، لكنّه أحسّ بها فيما بعد . أما إيفان ماتفييتش ، فقد قرر أنْ يتزوج ابنة أحد تجار الحبوب ، فاستأجر شقة خاصة به وانتقل إليها .

انعكس ذلك كله على مستوى الحياة ، الذي كان يعيشه أبلوموف ؛ فقد اختفى فجأة لحم العجل الطري ، ولحم الديك الرومي من مطبخ أغافيا ماتفييفنا ، وأصبح يظهر في مطبخ آخر ، في شقة موخاياريف الجديدة .

كانت تشتعل النيران هناك في الليالي ، حيث كان يجتمع أقرباء إيفان ماتفييتش المستقبليون ، وزملاؤه في الوظيفة وتارانتييف . أما أغافيا ماتفييفنا وأنيسيا فقد أصبحتا فجأة في وضع صعب ؛ فقد غدت طناجرهما خاوية ، ومطبخهما فقير ، لايعرف طعم المأكولات الفاخرة .

عرفت أغافيا ماتفييفنا للمرة الأولى ، بأنها تملك بيتاً وحاكورة وطيوراً ، وأنّ القرفة ونبات الفانيليا لايزرعان في حاكورتها ؛ شاهدت

كيف أصبح الباعة في الأسواق يتمنّعون تدريجياً عن تحيتها والإنحناء لها ، وعن التحدث إليها والبسمة تعلو وجوهم ، وأدركت بأنّ هذه الإنحناءات والإبتسامات قد أصبحت من نصيب الطاهية البدينة ، الجديدة ، المتأنقة ، في شقة أخيها .

أعطى أبلوموف أغافيا ماتفييفنا ، كل النقود التي تركها أخوها له ، وبدون أن تعرف شيئاً عن حقيقة الأمور ، ظلت كعادتها ثلاثة أو أربعة أشهر تشتري القهوة والقرفة بكميات كبيرة ، وتقلي لحم العجل الطري والدجاج الرومي ، حتى نفذت النقود تماماً ، فأتت إليه تخبره بأنه لم يبقَ في حوزتها قرش واحد .

تقلّب مرات ثلاث على الأريكة ، لدى سماعه الخبر ، ثم نظر بعد ذلك في الدّرْج : لكنه لم يرشيئاً . أخذ يتذكر أين وضع النقود ، لكنه ، لم يذكر ، بدأ يتلمّس الطاولة بيده بحثاً عن بعض القطع المعدنية ، التي يمكن أنْ يكون قد تركها ، فلم يعثر على شيء ، ثم سأل زاخار فأجابه بأنه لم ير شيئاً على الإطلاق . ذهبت أغافيا ماتفييفنا الى أخيها ، وأخبرته بسذاجة ، أنه لم يبقَ في البيت قرش واحد .

— على أي شيء بَدّدْت النقود ، التي أعطيتها لصاحب المقام الرفيع ؟ سأل أخوها — لقد أعطيته ألف روبل ، فأنا لاأستطيع أنْ أعطيك الآن قرشاً واحداً . أنت تعرفين ، بأنني سأتزوج : فأنا لاأستطيع أنْ أعيل أسرتين ، لاسيما أنك تبدّدين النقود على صاحب المقام الرفيع هذا بسخاء .

ـ وما علاقة السيد النبيل بالأمر ؟ لماذا تهاجمه وتوجه اللوم له ؟ ـ قالت أغافيا ماتفييفنا . ـ هل يؤذيك ؟ إنه لايسيء لأحد ، ولا يتدخّل بشؤون أحد . فلست أنا ، الذي جئت به الى الشقة : بل أنت وميخا أندرييتش .

ناولها عشرة روبلات وقال ، بأنه لن يعطيها المزيد . لكنه بعد أنْ ناقش الأمر مع ميخا أندرييتش ، قررّ بأنه لايجوز أنْ يترك أخته وأبلوموف على هذا الوضع ، لأنّ المسألة قد تصل الى شتولتس ، الذي يمكنه أنْ يستوضح ويتبيّن الحقيقة ، فيُفْسِدُ الأمر ويُفشِلُ خطتهما

أصبح يعطيها خمسين روبلاً شهرياً، مفترضاً بأنه سيستردّ هذه النقود من دخل أبلوموف في السنة الثالثة ، لكنه أقسم لأخته بأنه لن يعطيها قرشاً واحداً أكثر من ذلك ، كما حدّد لها نوعية الوجبات والأطعمة ، التي يجب أن تحضّرها ، وطلب منها تقليص النفقات والمصاريف الى أبعد الحدود ، وحسبَ لها الدخل ، الذي سيأتيها من الدجاج والملفوف ، بالإضافة الى ماتأخذه منه ، مؤكّداً بأنّ المبلغ الإجمالي سيوفرّ لها حياة لائقة .

كانت هذه هي المرة الأولى في حياتها ، التي لاتفكّر فيها أغافيا ماتفييفنا بالشؤون المنزلية ، كالطهي والغسيل وغيره ، بل بشيء آخر ؛ كانت هذه هي المرة الأولى التي تبكي فيها ، ليس حزناً على الصحون ، التي كسرتها أكولينا ، ولا بسبب اللوم الذي يوجهه أخوها عادةً لها ، لأنها لم تسلق السمك جيداً ؛ كانت هذه هي المرة الأولى ، التي أحسّت

فيها بالخوف من الفاقة والفقر ، لكنّ الخوف لم يكن على نفسها ، بل على إيليا إيليتش .

« كيف سيأكل السيدالنبيل فجأةّ »ـ كانت أغافيا تحاكم الأمورـ اللّفت عوضاً عن الهليون ، ولحم الغنم عوضاً عن لحم الطيور ، والسمك المقدّد عوضاً عن الطازج . . . » ياللفظاعة ! لم تستطع أنْ تتابع المقارنة والتفكير حتى النهاية ، فارتدت ملابسها بسرعة ، واستأجرت عربة ، وذهبت الى أقارب زوجها المتوفي ، ليس في عيد الفصح والميلاد ، ولا تلبيةّ لدعوة ، بل صباحاً باكراً ، لتأخذ منهم بعض النقود ، التي يمكن أنْ تخفّف من قلقها ومخاوفها بشأن المستقبل .

فلديهم أموال كثيرة : وسيلبّون طلبها مباشرة ، بمجرد أن يعرفوا. أنّ النقود ، هي من أجل إيليا إيليتش . لو كان الأمر متعلقاً بشراء قهوة أو شاي ، أو ملابس أو أحذية لطفليها ، لما ذهبت إليهم مطلقاً ، لكن الأمر يتعلق بمسألةٍ ، في غاية الأهمية : هي شراء الهليون والسمك الطازج واللحم الطري لإيليا إيليتش . . .

لكنهم لم يعطوها شيئاً ، بل أبدوا دهشتهم وتعجّبهم لطلبها وقالوا بأنه إذا كان إيليا إيليتش يملك بعض الأشياء الذهبية أو الفضية ، وحتى الفراء ، فانه يمكن رهنها مقابل ثلث المبلغ المطلوب فقط ، على أن تبقى لحين استرداد المبلغ .

لو أنّ هذا الدرس العملي قد صادفها في ظرفٍ آخر ، لما اهتمت به ولمرّ دون أنْ تعيره أيّ قسطٍ من الإهتمام والتفكير ، لكنّ الظرف

الآن مختلف تماماً ، فقد أدركت بحسّها العفوي وبقلبها بأنها تستطيع أن ترهن اللؤلؤة ، التي حصلت عليها وقت عرسها .

وبدون أن يشتبه بالأمر ، شرب إيليا إيليتش في اليوم التالي فودكا وأكل سمك السلمون ، ولحم الطيور بالإضافة الى بعض المأكولات الأخرى الشهية . أما أغافيا ماتفييفنا فقد تناولت مع طفليها حساء الكرنب والعصيدة ، بينما شربت من باب المجاملة فقط مع إيليا إيليتش فنجانين من القهوة .

سرعان ماأخرجت من صندوقها أيضاً المشبك ، وبعض الأشياء الفضية ، ومعطفها ، فرهنتهم أيضاً . . .

جاء وقت إرسال النقود من القرية : فأعطاها أبلوموف كل ما استلمه .

استرجعت لؤلؤتها ، بعد أنْ دفعت مبلغ الرهن المترتب عليها ، كما دفعت جزءاً من مبلغ الرهن المترتب على أدواتها الفضية ومعطفها ، وصارت تعدّ له من جديد ، الهليون ولحم السمك والطيور ، ومن باب المجاملة فقط ، كانت تشرب القهوة معه . لكن اللؤلؤة رُهِنتْ من جديد .

من أسبوع لآخر ، ومن يوم ليوم ، كانت قواها تخور وعزيمتها تضعف بسبب ما كانت تعانيه من عذاب وألم ، فباعت شالها ، وفستان سهرتها ، وبقيت بفستان الشيت فقط ، الذي كان يكشف عن مرفقيها ، لكنها كانت تغطّي عنقها في أيام الآحاد بخمارها القديم البالي .

ذلكم هو السبب ، الذي جعل أغافيا ماتفييفنا مُحيلة ، ذابلة العينين ، تجلب الإفطار بنفسها لإيليا إيلييتش .

حتى أنّ العزيمة كانت تنقصها كي تتظاهر بالسرور ، عندما أخبرها آبلوموف بأنّ تارانتييف وألكسييف ، وإيفان غير اسيموفيتش سيتناولون طعام الغداء على مائدته غداً .

كان الغداء شهياً نظيفاً رائعاً . فلم تسبب العار لصاحب البيت . لكن كم أنفقت من الجهد والركض في الأسواق ، ومن القلق والأرق ، وحتى من الدموع ، في سبيل هذه المشاغل المنزلية !

كم عانت من كثرة القلق والإضطراب والتهيّج عندما انغمست فجأة في لجة الحياة الصعبة هذه ، وكم عرفت أياماً سعيدة ومريرة ! لكنها أحبّت هذه الحياة : على الرغم من المرارة والأحزان والدموع والمشاغل ، وما كانت لترضى عنها بديلا ، فقد كانت تفضّلها على حياتها السابقة الهادئة ، عندما لم تكن قد عرفت أبلوموف بعد ، وعندما كانت تتبختر باعتزاز وزهوّ وسط طناجرها المليئة بأنواع الأطعمة الفاخرة ، وتصدر أوامرها الى أكولينا والبوّاب .

حتى أنها كانت ترتعش خوفاً عندما تلوح في ذهنها فكرة الموت ، مع أنه كان يمكن أنْ يضع مرةً واحدةً والى الأبد حدّاً لدموعها وقلقها اليومي وأرقها .

تناول إيليا إيلييتش طعام الإفطار ، واستمع الى ماشا وهي تقرأ

بالفرنسية ، وجلس قليلاً في حجرة أغافيا ماتفييفنا وشاهد كيف كانت تصلح سترة فانكا وهي تقلبها على هذه الجهة وتلك ، بينما كانت في الوقت نفسه ، تركض الى المطبخ باستمرار ، لتتأكد إن كان لحم الغنم الذي تعده للغداء ، قد انقلى جيداً ، ولترى إن كان قد حان سلق السمك.

ـ لماذا تجهدين نفسك حقاً ؟ ـ قال أبلوموف .

ـ من ذا الذي سيفعل ذلك غيري ؟ ـ قالت أغافيا ـ سأضع هنا رقعتين فقط ، وأسلق السمك، ثم أستريح. كم هو خبيث ولدي فانيا ! في الأسبوع الفائت أصلحت سترته ـ وها قد مزقها من جديد ! لماذا تضحك ؟ ـ توجهتْ بالسؤال الى فانيا ، الذي كان يجلس بالقرب من الطاولة ، وهو يرتدي قميصاً وبنطلوناً بحمالة واحدة .

لن أصلحها قبل الصباح ، كي لاتركض خارج البوابة . لابد أنْ يكون الأولادهم الذين مزقوا هذه الحمالة :

ألم تتشاجر معهم ؟ اعترفْ !

ـ كلا ياأمي ، فقد تمزقت من تلقاء ذاتها ، ـ قال فانيا .

ـ من تلقاء ذاتها ! كان عليك أن تجلس في البيت ، وتذاكر بدلاً من أنْ تركض في الشوارع ! فاذا ما قال إيليا إيلييتش من جديد ، بأنك لاتحضّر دروس الفرنسية جيداً ، فسأنزع حذاءك : وستجلس رغما عنك من أجل أنْ تذاكر !

ـ لاأحب أنْ أتعلم الفرنسية .

ـ لماذا ؟ ـ سأل أبلوموف .

ـ لأنها تحتوي على كثير من الكلمات السيئة . . .

احمرّت أغافيا ماتفييفنا خجلاً ، بينما انفجر أبلوموف في الضحك. الحقّ يقال ، أنّ حديثاً قد دار بينهما فعلاً عن « الكلمات السيئة » .

ـ اسكت أيها الولد الخبيث ، ـ قالت أغافيا ماتفييفنا . من الأفضل أن تمسح أنفك ، ألا ترى ؟

ضحك فانيوشا ، ولم يمسح أنفه .

ـ سأشتري لك سترة زرقاء ، عندما تصل النقود من القرية ، ـ تدخلّ أبلوموف في الحديث ، ـ وفي السنة القادمة سأشتري لك بزة جديدة ، بمناسبة دخولك المدرسة الثانوية .

ـ يمكنه أنْ يلبس سترته القديمة ، ـ قالت أغافيا ماتفييفنا ، ـ أما النقود فسنحتاجها في المنزل ، سنتموّن باللحم المملّح والمربيات . . . سأذهب لأرى إنْ كانت أنيسيا قد جلبت القشدة الرائبة . . . ـ نهضت أغافيا ماتفييفنا .

ـ ماذا يوجد الآن ؟ ـ سأل أبلوموف .

ـ شوربة سمك نهري ، لحم غنم مقلي ، وفطائر .

صمت أبلوموف .

وصلت مركبة فجأة ، وصار يُسْمَع نباح الكلب وقرقعة السلسلة .

ذهب أبلوموف الى حجرته ، وهو يعتقد بأنّ أحداً ما يقصد صاحبة البيت : اللحام ، بائع الخضار ، أو أي شخص آخر من هذا الطراز . فمثل هذه الزيارات كانت تقترن عادةً بطلب النقود ، وبالرفض

من جانب ربة البيت ، ثم بالتهديد من جانب البائع ،وبالتوسلات بتأجيل التسديد من جانب صاحبة البيت ، ثم تعقبها الشتيمة وصفق الأبواب ونباح الكلب وقرقعة السلسلة — بوجه عام ، لم يكن المشهد مريحاً . لكن المركبة وصلت — ماذا يعني ذلك ؟

فاللحامون وبائعو الخضراوات لايستخدمون العربات عادةً .

هرعت إليه ربة المنزل فجأة ، والخوف بادٍ على وجهها .

— جاءك ضيف ! — قالت أغافيا ماتفييفنا

— من : تارانتييف أم ألكسييف ؟

— كلا ، كلا ، إنه نفس الشخص ، الذي تناول الغداء عندك في عيد إيليا .

— شتولتس ؟ — قال أبلوموف باضطراب ، وهو يتطلع حوله الى مكانٍ يختبىء فيه . — ياإلهي ! ماذا سيقول ، عندما سيشاهد ... قولي له ، بأني غير موجود ! — أضاف أبلوموف بسرعة ، ثم ذهب الى غرفتها .

كانت أنيسيا قد وصلت في الوقت المناسب . أبلغتها أغافيا ماتفييفنا أوامر سيدها ، وطلبت منها استقبال الضيف وإبلاغه ، بأنّ أبلوموف غير موجود . صدّق شتولتس ، لكن ما أدهشه فقط ، هو كيف يمكن أنْ يكون أبلوموف خارج البيت .

— أبلغيه ، بأني سأعود بعد ساعتين ، سأتغدّى عنده ؟ — قال شتولتس ، ثم ذهب الى مكانٍ قريب ، الى الحديقة العامة .

ـ سيتغدّى ! ـ قالت أنيسيا بذعر .

ـ سيتغدّى ! ـ كررت أغافيا ماتفييفنا ، وقد بدا الخوف عليها وهي تبلغ أبلوموف .

ـ يجب أن نحضّر أطعمة أخرى ، ـ قرر أبلوموف ، ثم صمت.

ألقت أغافيا ماتفييفنا عليه نظرة مليئة بالخوف . لم يبق معها إلا نصف روبل فقط ، بينما بقي على موعد استلام النقود من أخيها عشرة أيام . ليس هناك أحد تستدين منه .

ـ لن نلحق ياإيليا إيلييتش ، ـ لاحظت بخجل ، ـ فليأكل مما هو موجود عندنا . . .

ـ إنه لايأكل شيئاً مما هو موجود عندنا ياأغافيا ماتفييفنا : فهو لايحب شوربة السمك، حتى السمك النهري الصغير لايأكله، ولحم الغنم لايضعه في فمه أيضاً .

ـ يمكننا أن نشتري بعض السجق من مكان قريب هنا ! ـ قالت أغافيا ماتفييفنا فجأة ، وكأن الوحي قد نزل عليها .

ـ هذا جيد ، هذا ممكن ، أرجو أنْ تأمري بتحضير بعض الخضراوات والفول .

ـ ثمن كيلو الفول عشرة كوبيكات ! ـ خطرت الفكرة في ذهنها فجأة ، لكنها لم تتفوه بها .

ـ حسناً ، سأفعل . . . ـ قالت ، وقد عزمت على أنْ تستبدل الفول بالملفوف .

.. أرجو أن تأمري بشراء كيلو من الجبنة السويسرية ! — قال أبلوموف دون أن يعرف شيئاً عن الظروف المالية لأغافيا ماتفييفنا ، — فذلك سيكون كافياً ! سأعتذر منه ، وأقول بأننا لم نكن نتوقع قدومه ... واذا كان ممكناً ، فأرجو أن تحضّري بعض المرق .

كانت تهمّ بالإنصراف .

— والنبيذ ؟ — تذكّر أبلوموف فجأة .

أجابته بنظرة جديدة مليئة بالرعب .

— يجب أن نحضر نبيذاً فرنسياً أحمر ، — ختم أبلوموف ببرود .

— ٦ —

جاء شتولتس بعد ساعتين .

— مابك ؟ لقد تغيرت كثيراً ، كم أنت مترهّل شاحب ! هل ساءت صحتك ؟ — سأل شتولتس .

— صحتي سيئة ياأندريي ، — قال أبلوموف ، وهو يعانقه ، — أشعر بخدَرٍ في ساقي اليسرى .

— كم هو المكان شنيع هنا ! — قال شتولتس وهو يتلفت حوله ، — لماذا لاترمي رداءك هذا ؟

انظر ، إنه مليء بالرقع !

— إنها العادة ياأندريي ، يصعب عليّ تركه .

— والبطانية ، والستائر . . . — بدأ شتولتس ، — هل هي العادة أيضاً ؟

هل يحزنك تغيير هذه الخرق البالية ؟ هل يمكنك النوم على هذا الفراش ؟ ماذا جرى لك ؟

نظر شتولتس الى أبلوموف بامعان ، ثم حوّل بصره الى الستائر والفراش .

ـــ هذا غير مهم ، قال أبلوموف بارتباك ، ـــ فأنت تعرف بأنني كنت دائماً غير مبالٍ فيما يتعلق بترتيب غرفتي . . . من الأفضل أن نتناول الغداء . إي ، زاخار ! ضع الطعام على الطاولة . من أين قادمأنت؟ وهل ستبقى فترة طويلة في بطرسبورغ ؟

ـــ هل تستطيع أنْ تخمّن من أين أنا قادم ؟ ـــ سأل شتولتس ؛ ـــ فأنت منقطع هنا عن الأخبار في هذا العالم ، أليس كذلك ؟

نظر أبلوموف إليه بفضول وهو يترقّب ما سيقول .

ـــ ماهي أخبار أولغا ؟ ـــ سأل أبلوموف .

ـــ لم تنسها ! اعتقدت ، بأنك ستنساها ، ـــ قال شتولتس .

ـــ كلا ياأندريي ، وهل يمكن أن أنساها ؟ هذا يعني ، أنْ أنسى بأنني عشت في يوم من الأيام ، وأنني كنت في الجنة . . . أما الآن ، فها أنت ترى كيف أعيش ! . . . ـــ ثم تنهّد . ـــ

أين هي الآن ؟ .

ـــ في قريتها .

ـــ مع عمتها ؟ ـــ سأل أبلوموف .

ـــ ومع زوجها .

ـ هل تزوجت ؟ ـ نطق أبلوموف فجأةً وهو يحملق إليه .

ـ لماذا خفت ؟ هل تتعدى المسألة إطار الذكريات بالنسبة لك ؟ . . . أضاف شتولتس بهدوء وبدعابة .

ـ آه ، كلا ! ـ قال أبلوموف وقد عاد الى رشده . ـ لم أخفْ ، لكنني اندهشت ، لاأعرف لماذا أدهشني ماسمعت . هل تزوجت منذ مدة طويلة ؟ هل هي سعيدة ؟ ناشدتك الله ان تخبرني : أشعر الآن ، بأنك أزلت عن كاهلي عبئاً ثقيلاً ! على الرغم من أنك قد أكّدت لي بأنها صفحت عني . . . إلا أنني لم أكن مطمئناً ، ولا مرتاح البال ! كنت أشعر بتأنيب الضمير . . . كم أنا شاكر لك ياعزيزي أندريي !

انفرجت أساريره من الأعماق ، بدأ ينطّ على الأريكة ويتململ فرحاً ، الأمر الذي دفع شتولتس لأنْ ينظر إليه بكثير من المتعة ، حتى انه كان متأثراً .

ـ كم أنت إنسان طيب ياإيليا ! ـ قال شتولتس . ـ فقلبك جدير بها ! سأحكي لها كل شيء .

ـ (مقاطعاً) كلا ، كلا ، لاتقل لها شيئاً ! ستعتبرني فاقد الإحساس غير مبالٍ ، إذا ماعرفت بأنني قد استقبلت نبأ زواجها بسرور كبير .

ـ ومتى كان السرور لايعتبر إحساساً ؛ خاصّةً إذا كان متجرّداً عن الأنانية ؟ فأنتَ مسرور لأنها سعيدة ، ذلك هو مبعث سرورك .

ـ تلك هي الحقيقة ! تلك هي الحقيقة ! ـ قال أبلوموف . ـ الله يعلم ذلك . . .

لكن من هو سعيد الحظ ؟ ـ ذلك سؤال لاأطرحه ، المهم انها سعيدة .

ـ من تعتقد ؟ ـ كرّر شتولتس . ـ كم أنت قليل الحدس ياإيليا !

تركزت نظرة أبلوموف على صديقه فجأة : فتخدّدت ملامحه متجمّدة ، وزال التورّد عن وجهه .

ـ أليس . . . أنت ! ـ سأل فجأة .

ـ ها أنت قد خفت من جديد ! مابك ؟ ـ قال شتولتس وهو يضحك .

ـ لاتمزح ياأندريي ، قل الحقيقة ! ـ قال أبلوموف باضطراب .

ـ أقسم ، أنني لاأمزح . مضى عام على زواجي بأولغا .

أصبح الخوف يختفي تدريجياً من وجه أبلوموف ، ليحلّ مكانه تأمل هادىء ، لكنه لم يرفع بصره ، بل ظلّ مطرقاً ، لكنّ تأمله أصبح بعد لحظة ممزوجاً بسرور عميق ، وعندما بدأ ينظر الى شتولتس بهدوء وبطء كانت نظرته مليئة بالدموع والرقة .

ـ عزيزي أندريي ! ـ قال أبلوموف وهو يعانقه . ـ عزيزتي أولغا سيرغييفنا ! ـ أضاف بعد ذلك ، وهو يحبس دهشته . ـ فليبارككما الله ! ياإلهي كم أنا سعيد ! قل لها . . .

ـ سأقول لها ، كم هو طيب القلب أبلوموف ! ـ قاطعه شتولتس وقد تأثر بعمق .

ـ كلا ، قل لها ، بأنها قد وجدت طريقها الحقيقي ، وإني أبارك

طريقها الجديد هذا ! قلْ لها بأنني الآن في غاية السعادة ، لأنها وجدت ضالتها المنشودة . . . قل لها ، بأنّ لقائي بها قد دلّها على الطريق السليم . . فأنا الآن . . . — ختم أبلوموف بسرور ، — لاأندم على دوري ، ولا أحمرّ خجلاً بسببه ، فقد أزيح العبء عن كاهلي ، فأنا في غايةالسعادة. ياإلهي ! كم أنا شاكر لك !

كاد أنْ يقفز على الأريكة من جديد ، من شدة الفرح والإضطراب: كانت عيناه تدمعان تارةً ، بينما كان يضحك تارة أخرى .

— زاخار ، أحضر الشمبانيا ! — صرخ أبلوموف ، وقد نسي بأنه لايملك قرشاً واحداً .

— سأحكي لأولغا كل شيء ، كل شيء ! — قال شتولتس . — فهي محقّة ، لأنّها لاتستطيع أن تنساك .

لقد كنت جديراً بها : فقلبك عميق كالبئر !

أطلّ زاخار برأسه من الباب .

— الى هنا من فضلك ! — قال زاخار وهو يغمز سيده بعينه .

— ماذا تريد ؟ — سأل أبلوموف بنفاذ صبر — اذهب !

— تكرّم بالنقود ! — همس زاخار .

صمت أبلوموف فجأة .

ـ لاداعي لذلك ! ـ همس أبلوموف ، بعد أن أتى الى الباب . - قل بأنك نسيت ! انصرفْ ! كلاّ ، تعال الى هنا ! ـ قال أبلوموف بصوتٍ عالٍ . ـ هل سمعت النبأ يازاخار ؟ قَدِّمْ التهنئة : فقد تزوج أندريي إيفانيتش ! آه ياأبتاه ! لقد منّ الله علي ، بأنْ أعيش فرحاً كهذا ! أهنئك ياأندريي إيفانيتش ، ليمنحك الله عمراً مديداً ، وذرية صالحة ! يا إلهي ، كم أنا مسرور !

انحنى زاخار وابتسم ، ثم تنحنح . أخرج شتولتس ورقة مالية من فئة العشرة روبلات ، وناولها لزاخار .

ـ خذ ، واشترِ لنفسك سترة ، ـ قال شتولتس ، ـ فأنت تبدو كالمتسول تماماً في سترتك البالية هذه .

ـ من هي ، التي تزوجتها ياأبتاه ؟ ـ سأل زاخار وهو يتلقف يد شتولتس .

ـ إنها أولغا سيرغييفنا ، ألا تذكرها ؟ ـ قال أبلوموف .

ـ الآنسة إيلينسكايا ! ياإلهي ! يالها من آنسة رائعة ! كنت محقاً يا إينيا إيلييتش ، عندما وبختني بسبب الإشاعات ! إنني أعترف الآن بذنبي . فأنا الذي كنت أنشر الإشاعات ، وليس نيكيتا ! ياإلهي ، ياإلهي ! ماذا كنت أفعل . . . ـ ! أكدّ زاخار وهو يمضي الى غرفة المدخل .

ـ أولغا تدعوك لزيارتها في القرية ، فقد فترحُبُّك ،ولم يعد هنالك من خطر : فالغيرة لن تأكلك ، هيّا ! تنهد أبلوموف .

ـ كلا ياأندريي ، ـ قال أبلوموف ، ـ فأنا لاأخشى الحب والغيرة ومع ذلك فانني لن أذهب .

ـ ماذا تخشى إذن ؟

ـ أخشى الحسد : فسعادتكما ستكون بالنسبة لي كالمرآة ، التي أرى فيها حياتي المريرة الضائعة ، فلن أعيش حياة أخرى ، لأنني لا أستطيع .

ـ كفى ياعزيزي إيليا ! لن يكون مستحيلاً أن تعيش ، كما يعيش الآخرون من حولك . يمكنك أن تقرأ وتسمع الموسيقى ، كم هو رائع صوتها الآن ! أتتذكرُ أغنية العذراء الطاهرة ؟

أخذ أبلوموف يلوّح بيده ، كي لايذكّره بالماضي .

ـ فلنذهب ! ـ أصرّ شتولتس . ـ هذه رغبتها : وستظل تلح عليها . فهي لن تكف عن المطالبة بزيارتك .

إنها مصرّة على أنْ تراك . هيا ! ! سينبعث الماضي حياً في أعماقك، ستتذكر الحديقة ، وغصن الليلاك وستتحرك . . .

ـ (مقاطعاً بجدية) كلا ياأندريي ، كلا ! لاتذكرّني بالماضي ، ناشدتك الله ألا تفعل ! ـ فالأمر لايسرني ، بل يؤلمني . فالذكريات تمثّل قصيدةً رائعة ، عندما تتعلق بسعادةٍ حيّة ، لكنها تتحول الى ألمٍ مُضنٍ عندما تلامس الجراح القديمة . . . لنتحدث عن شيء آخر . فأنا لم أشكرك بعد ، على ماسببته لك من مشاغل ، وما أسديته لي من خدمة في القرية . فأنا شاكر لك كثيراً على مافعلته من أجلي ... حتى انني لاأستطيع أنْ أجد

الكلمات المعبرة عن ذلك ياصديقي . أرجوك غاية الرجاء أن تسامحني ، لما أسببه لك من متاعب . لكن الربيع سيحلّ قريباً ، وسأسافر حتماً الى أبلوموفكا . . .

ــ أتعرف ماذا يجري في أبلوموفكا ؟ إنك لن تعرفها ! لقد تغيرت كثيراً ! ــ قال شتولتس . ــ لم أكتب إليك بهذا الصدد ، لأنك لاتجيب على الرسائل . الجسر أُنجِزَ بناؤه ، والبيت تمّ تشييده منذ الصيف الماضي بقي عليك فقط ، أنْ ترتّبه من الداخل حسب ذوقك ــ فهذا أمر لايمكن أنْ أقوم به بدلاً عنك . يدير أملاكك شخص جديد ، وضعته أنا . لابدّ أنك رأيت قائمة التكاليف التي أرسلتها . . .

صمت أبلوموف .

ــ ألم تقرأها ؟ ــ سأل شتولتس وهو ينظر إليه . ــ أين هي ؟

ــ انتظر ، سأبحث عنها بعد الغداء ، يجب أن أسأل زاخار عنها . . .

ــ إيليا ، إيليا ، آه منك ! أأبكي ، أم أضحك ؟ لاأعرف ، فأنت تحيّرني .

ــ سأبحث عنها بعد الغداء . فلنتناول غداءنا !

تغيّرت ملامح شتولتس عندما جلس الى الطاولة . تذكّر عيد إيليا : تذكّر المحار ، والأناناس ، والمأكولات الأخرى الشهية ، أما الآن فانه يرى غطاء الطاولة الخشن ، ووعاءً من الخلّ ، وزبدة مغطاةبالورق. وفي الصحون يشاهد كسرة من الخبز الأسود وملاعق قديمة . قُدّم لأبلوموف صحن من شوربة السمك ، بينما قُدّم له صحن من شوربة

الدجاج ، تبعه لحم الغنم ، وصحن من لحم اللسان القاسي . ظهر بعد ذلك النبيذ الأحمر . سكب شتولتس نصف كأس ، وتذوّق النبيذ ثم وضع الكأس على الطاولة ، ولم يذقه بعد ذلك . شرب إيليا إيليتش كأسين صغيرين من الفودكا بدون فاصل زمني ، ثم بدأ يأكل لحم الغنم بشراهة .

ــ النبيذ سيء جداً ! ــ قال شتولتس .

ــ أرجو المعذرة ، فلم يكن لدينا الوقت الكافي لنذهب الى الجهة الأخرى من النهر ، ــ قال أبلوموف ، ــ ألا تريد أنْ تجرّب هذه الفودكا المصنوعة من عنب الثعلب ؟ إنها رائعة ياأندريي ، تذوّقها ! صَبّ كأساً صغيراً آخر وشربه .

نظر شتولتس إليه بدهشة ، لكنه ظل صامتاً .

ــ أغافيا ماتفييفنا تحضّرها بنفسها : إنها امرأة رائعة ! ــ قال أبلوموف ، وقد سكر قليلاً . ــ فأنا أعترف ، بأنني لاأعرف كيف سأعيش في القرية بدونها : فلن أجد ربة بيت مثلها .

كان شتولتش يصغي إليه وقد قطّب حاجبيه قليلاً .

ــ هل تعتقد بأن أنيسيا هي التي تحضّر ذلك كله ؟ ــ كلا ! تابع أبلوموف ــ فأنيسيا تهتم بالدجاج والحاكورة ، وتغسل الأرض ، أما أغافيا ماتفييفنا فهي التي تحضّر ذلك كله .

لم يأكل شتولتس لحم غنم ، ولا فطائر ، بل وضع شوكته وملعقته وأخذ ينظر الى أبلوموف وهو يأكل بشهية كبيرة .

ــ لن تجدني الآن لابساً قميصي بالمقلوب ، ــ قال أبلوموف بعد

ذلك ، وهو يمص ّ أحد العظام بشهية كبيرة ، ــ ، فهي تهتم بي كثيراً ، حتى انها ترفأ كل جواربي . والقهوة ، ياإلهي كم هي بارعة في تحضيرها ! ستقدّمها لك بعد الغداء ، وستحكم بنفسك .

كان شتولتس يصغي إليه بصمت ، والانزعاج بادٍ عليه .

ــ أخوها يعيش الآن في شقة أخرى ، فهو عازم على الزواج ، لذا فانّ حجم الأعمال المنزلية لم يعد كبيراً كالسابق . كانت سابقاً ، تمضي اليوم في حركة دائمة ، وهي تعمل وترتب وتنظف ، وتحضّر المأكولات الشهية ، وتذهب الى السوق ، دون أنْ تحتاج لمساعدةٍ من أحد.

شرب أبلوموف كأساً آخر من الفودكا .

ــ (مترنحاً) اشرَبْ ياأندريي ، اشرَب : إنها فودكا رائعة حقاً ! فأولغا سيرغييفنا لاتستطيع أن تحضّر لك مثلها ! فهي تستطيع أنْ تغنيّ العذراء الطاهرة ، لكنها لاتعرف تحضير مثل هذه الفودكا ! كما انها لاتستطيع أنْ تحضّر فطراً كهذا ! فلم أذقْ مثله الا في أبلوموفكا ! الرائع في الأمر ، هوأن ذلك كله يتمّ بدون طباخ ، فأنا لا ارتاح لنظافة أيدي الطباخين ،أما أغافياماتفييفنا فتُعتَبَر تجسيداً حياً للنظافة !

كان شتولتس يصغي باهتمام شديد .

ــ أما يداها فكانتا بيضاوين ، ــ تابع أبلوموف وقد ظهر عليه السكر ، ــ القبلة منهما ليست ذنباً ! أما الآن ، فقد أصبحتا خشنتين قليلاً ، لأنها تحضّر كل شيء بنفسها ! فهي تنشّي قمصاني بنفسها ! ــ قال أبلوموف بعاطفة والدموع تكاد أنْ تطفر من عينيه . ــ لقد تأكّدت بنفسي من ذلك . فحتى الزوجة لاتهتم مثلها ! أغافيا ماتفييفنا امرأةرائعة !

آه ياأندريي ! ليتك تنتقل مع أولغا سيرغييفنا لتستأجرا منزلاً ريفياً هنا ! يالهي ، كم كنّا سنمضي وقتاً ممتعاً ! كنا سنخرج الى الغابة ، ونتناول الشاي فيها ، وفي المناسبات ، نذهب الى المنطقة القريبة من مصانع بوروخوف ، فتسير العربة وراءنا وهي تحمل المؤونة والسماوار . وهناك نفرش البساط على العشب ونتمدّد .

ثم تتعلّم أولغا سيرغييفنا من أغافيا ماتفييفنا تحضير الأطعمة وتدبير الشؤون المنزلية ، آه كم سيكون ذلك رائعاً ! لكنّ أمراً واحداً يسبب لي الآن بعض المتاعب . فدخلي لايسمح لي بأنْ أعيش كما يحلو لي ، بسبب ضآلة دخلي .

لو كان دخلي ثلاثة آلاف ، أو أربعة آلاف روبل ، لكنت قد حضّرت لك أشهى أنواع الأطعمة . . .

– لكنك تتلقّى خمسة آلاف مني ! – قال شتولتس فجأةً . – أين تبدّدها ؟

– والدّين ؟ – أفلتت الكلمة من أبلوموف فجأة .

– قفز شتولتس من مكانه .

– الدَّيْن ؟ – كررّ شتولتس . – أي دَيْن ؟

أخذ شتولتس ينظر إليه ، كما ينظر معلم صارم الى تلميذٍ صغير يخفي عنه شيئاً .

– لِمَنْ أنت مدين ؟

صحا أبلوموف قليلاً وثاب الى رشده .

ـ لست مديناً لأحد ، لقد كذبت عليك .

ـ كلا ، إنك تكذب الآن. ماالذي حدث ياإيليا ؟ ماذا جرى لك ؟ ماذا يعني هذا اللحم الرديء ، وهذا النبيذ السيء ؟ هل نفدت نقودك ؟ أين بدّدتها ؟

ـ إنني مدين لربة البيت ببعض النقود . . . لقاء الأطعمة والمؤونة.

ـ لقاء لحم الغنم واللسان ! إيليا ، قل لي الحقيقة ! مامعنى أنْ تسوء معيشتك ، بعد أن انتقل أخ صاحبة الشقة ، الى شقة أخرى جديدة . بكم أنت مدين ؟

ـ بعشرة آلاف روبل ، بموجب سند دَين . . . همس أبلوموف . قفز شتولتس ثم جلس من جديد .

ـ عشرة آلاف ؟ لربّة المنزل ؟ لقاء المؤونة والأطعمة ؟ ـ كرر شتولتس بذعر .

ـ أجل ، كنا نشتري الكثير ، كنا نعيش برخاء . . . أتذكر الأناناس والدرّاق . . . كنت أشتريه بالدين . . . تمتم أبلوموف .

ظل شتولتس صامتاً. كان يفكّر بالآتي : « ساءت معيشة أبلوموف بعد أن انتقل أخ صاحبة الشقة الى شقة أخرى جديدة ! أصبحت حياة أبلوموف رديئة صعبة ! هل هي امرأة جيدة صاحبة الشقة هذه ؟ أبلوموف يمدحها ! إنها تهتم به ؛ أبلوموف يتحدّث عنها بحرارة... » .

تغيّر وجه شتولتس فجأةً ، فقد أدرك الحقيقة .

ـ إيليا ؟ ماذا تمثّل بالنسبة لك . . . هذه المرأة ؟ـ سأل شتولتس ـ.
كان أبلوموف قد وضع رأسه على الطاولة ونام .

« إنها تنهبه وتأخذ كل مالديه . . . فهي مسألة تتكرّر دائماً ، لكنني لم أستطع أن أتبيّن حتى الآن ، حقيقة الأمر ! » ـ فكر شتولتس .

نهض شتولتس وفتح باب حجرة صاحبة الشقة بسرعة ، لدرجة أنها رمت الملعقة ، التي كانت تُحرِّك بها القهوة ، من يدها عندمارأته.

ـ يجب أنْ أتحدّث إليك ، ـ قال شتولتس باحترام .

ـ تفضَّلْ الى غرفة الضيوف ، ـ سآتي حالاً ، ـ أجابت بحياء .
وضعت المنديل على عنقها ، وتبعته فوراً ثم جلست عند طرف الأريكة . لم تكن تملك شالاً ، لأنها كانت قد باعته ، لذا كانت تحاول أن تخفي يديها تحت منديلها .

ـ هل أعطاك إيليا إيلييتش سند دَين ؟ ـ سأل شتولتس .

ـ كلا ، ـ أجابت بنظرة بلهاء ، مليئة بالدهشة ـ . لم أر أيّ سند دَيْن .

ـ لم تشاهدي أيّ سند دَين ؟ كيف ؟

ـ لم أشاهد أي سند دين ! ـ أكدت بنفس النظرة البلهاء ، المليئة بالدهشة .

ـ تذكري ! ـ قال شتولتس .

فكّرت قليلاً .

— من الأفضل أنْ تتحدّث الى أخي ، — قالت أغافيا ماتفييفنا ، — فأنا لم أر أي سند ديْن .

« ماهذا ، هل هي مغفّلة حمقاء ، أم مراوغة محتالة ؟ » — فكّر شتولتس .

— أليس مديناً لك ؟ — سأل شتولتس .

نظرت إليه ببلاهة ، ثم تغيّر وجهها بعد ذلك ، حتى انّ القلق ظهر عليها .

تذكرت لؤلؤتها وفضياتها المرهونة ،وكذلك،معطفها . ظنّت بأنّ شتولتس يلمح الى المبلغ المترتب لقاء الرهن ، لكن مالم تستطع أنْ تفهمه، هو كيف تَمَكّنَ من معرفة ذلك ، فهي لم تكشف سرّها هذا لأحد ، ليس لأبلوموف فحسب ، بل وحتى لأنيسيا ، التي كانت تكاشفها عادةً بكل قرش تنفقه .

— بكم هو مدين لك ؟ — سأل شتولتس بقلق .

— ليس مديناً لي بشيء ! ولا بقرش واحد !

« إنها تحاول أن تخفي عني كل شيء . تباً لها من مرابية جشعة محتالة ! — فكّر شتولتس . — لكنني سأعرف الحقيقة . »

— والعشرة آلاف روبل ؟

— عن أية عشرة آلاف تتحدث ؟ — سألت بدهشة وبقلق .

— إيليا إيليتش مدين لك بعشرة آلاف روبل بموجب سند ديْن — هل هذا صحيح أم لا ؟ .

ـ ليس مديناً لي بشيء . كان مديناً للّحام باثني عشر روبلاً ونصف ، لكننا سدّدناها ، كما سدد أيضاً كل ماكان مديناً به لبائعة الحليب ، ـ لكنه الآن ، غير مدينٍ لأحد .

ـ ألا تحتفظين بسند الدَّين ؟

نظرت إليه ببلاهة .

ـ من المستحسن أنْ تتحدّث الى أخي ،ـأجابتأغافيا ماتفييفنا،ـ إنه يقطن عبر هذا الشارع هنا ، في منزل زاميكالوف ؛ يوجد قبو في المنزل الذي يقطنه .

ـ كلا ، فأنا أريد أن أتحدث إليك ، ـ قال شتولتس بحسم . ـ إيليا إيلييتش يعتبر نفسه مديناً لك ، لا لأخيك . . .

ـ ليس مديناً لي بشيء ، أجابت صاحبة الشقة ، ـ فما رهنته من لؤلؤة وفضة وفراء ، لم يكن من أجله ، بل من أجلي أنا . فقد اشتريت حذاءً لماشا ، وقميصاً لفانيا ، كما سدّدت كل ماكنت مدينة به لبائع الخضار . فلم أنفق قرشاً واحداً على إيليا إيلييتش .

كان ينظر إليها ويصغي ويتعمّق في معنى كلماتها . كان على مايبدو الوحيد ، الذي أصبح على وشك أنْ يحلّ لغز أغافيا ماتفييفنا ، فقد تبدلت نظرة الإزدراء والشك تقريباً ، التي كان يرمقها بها ، وهو يتكلم معها ، لتحلّ مكانها رغماً عنه نظرة الفضول وحتّى التعاطف .

فمن خلال رهن اللؤلؤة والفضيات ، استطاع أن يقرأ بغموضٍ تقريباً سر الضحايا ، لكنه لم يستطع فقط أن يقرر إنْ كانت عملية الرهن

قد تمت بدافع الإخلاص العميق ، أم بدافع الحصول على بعض المكاسب المستقبلية .

لم يكن يعرف إن كان ينبغي عليه أنْ يحزن على إيليا ، أم يفرح لأجله . اتضّح له بجلاء ، بأنّ أبلوموف ليس مديناً لأغافيا ماتفييفنابشيء ، وانّ هذا الدين لايعدو كونه خديعة احتيالية من جانب أخيها ، كما اتضحت له بالمقابل أشياء أخرى كثيرة . . . ماذا يعني رهن الفضة واللؤلؤة ؟

ـــ إذاً ، ليست لديك أية ادّعاءات على إيليا إيليبيتش ؟ ـــ سأل شتولتس .

ـــ أرجو أنْ تتكرم بالتحدّث إلى أخي ، ـــ أجابت برتابة ، ـــ إذ ينبغي أنْ يكون الآن في المنزل .

ـــ هل إيليا إيليبيتش غير مدين لك ؟ تكلمي !

ـــ أقسم ، بأنه غير َمدين لي ، ولا بقرش واحد ، وأقسم أنّ ما أقوله صحيح ! ـــ قالت وهي تنظر إلى الإيقونة وترسم علامة الصليب .

ـــ هل تؤكدين ذلك بحضور الشهود ؟

ـــ أجل ، فأنا أوكد ذلك أمام الجميع ! ـــ أما اللؤلؤة والفضة ، التي رهنتها ، فمن أجل تغطية مصاريفي الشخصية . . .

ـــ حسن جداً ! ـ قاطعها شتولتس . ـ سأكون غداً عندك مع اثنين من معارفي ، هل تؤكدين أمامهما نفس ما قلت ؟

ـــ من الأفضل أن تتحدّث الى أخي ، ـ كررت أغافيا ماتفييفنا ،

لأنّ ثيابي لاتليق باستقبال الآخرين . . . خاصةً أنني أتواجد دائماً في المطبخ ، فليس لائقاً أنْ يشاهدني الغرباء على هذه الحال .

ــ حسن ، حسن ، سأتحدّث الى أخيك غداً ، بعد أنْ توقعي على ورقة . . .

ــ لقد نسيت الكتابة تماماً .

ــ لاتقلقي ، كلّ مايلزمنا أن تكتبيه هو سطران فقط .

ــ كلا ، اعذرني ، من الأفضل أن يكتب فانيوشا بدلاً مني : فهو يكتب جيداً . . .

ــ كلا ، يجب أنْ تكتبي أنت ، ــ ألحّ شتولتس ، ــ إذا لم تكتبي فهذا معناه ، أنّ إيليا إيلييتش مدين لك بعشرة آلاف روبل .

ــ كلا ، إنه غير مدين لي ، ولا بقرش واحد ، ــ أكدت أغافيا ماتفييفنا ، ــ أقسم على ذلك !

ــ في مثل هذه الحالة ، ينبغي عليك أن تكتبي وتوقعي بنفسك . الى الغد .

ــ من المستحسن أن تعرّج غداً على أخي . . . ــ قالت وهي تودّعه ، ــ إنه يقطن هنا ، عبر هذا الشارع ، على الزاوية .

ــ كلا ، أرجوك ألا تقولي لأخيك شيئاً ، قبل أنْ نلتقي ، لأنّ ذلك يضرّ بإيليا إيلييتش كثيراً . . .

ــ إذاً ، لن أقول له شيئاً ! ــ قالت بطاعة .

— ٧ —

في اليوم التالي ، أعطت أغافيا ماتفييفنا إقراراً خطياً لشتولتس ، يفيد بأنه ليس لديها أية ادّعاءات مالية على إيليا إيلييتش . فاجأ شتولتس أخاها بهذا الإقرار .

كانت المفاجأة هذه ، ضربةً حقيقية قاصمة بالنسبة لإيفان ماتفييتش أخرج وثيقة من جيبه ، ثم أشار بالاصبع الوسطى ليده اليمنى ، وظفره الى الأسفل ، الى توقيع أبلوموف والسماسرة الشهود .

— المسألة قانونية ، — قال إيفان ماتفييتش — ، كل ماقي الامر ، هو أنني أحافظ على حقوق أختي ، لكنني لاأعرف كم هي النقود ، التي أخذها إيليا إيلييتش .

— لن تمر قضيتك هكذا بسهولة ، — هدّد شتولتس ، وهو ينصرف .

— المسألة قانونية ! — قال إيفان ماتفييتش وهو يخفي يده في كمّه.

ماإنْ وصل إيفان ماتفييتش في اليوم التالي الى الدائرة ، التي يعمل فيها ، حتى أبلغه ساعي البريد بالذهاب الى الجنرال فوراً .

— الى الجنرال ! — كرّر الجميع بذعر . — لماذا ؟ ماذا حدث ؟ بخصوص أية قضية ؟ أسرعْ ، اسرعْ ! رتّب الأوراق ، اعمل جرداً ! ماذا حدث ؟

في المساء ، ذهب إيفان ماتفييتش الى الحانة والإنزعاج بادٍ عليه . كان تارانتييف ينتظره هناك منذ بعض الوقت .

ـ ماذا جرى ياإشبيني ؟ ـ سأل تارانتييف بنفاذ صبر .

ـ تقول ماذا ! ـ نطق إيفان ماتفييتش برتابة . ـ يجب أن تعرف !

ـ هل وبخوك ؟

ـ وبّخوني ! ـ قال إيفان ماتفييتش بغضب ـ كان من الأفضل لو ضربوني ! وأنت ! ـ

قال معاتباً . ـ كان جديراً بك أنْ تحذّرني من هذا الألماني ! لقد قلت لك ، بأنه ماكر !

ـ ماكر ! إنه أكثر من ذلك ! صادفت كثيراً من الماكرين ، لكنهم ليسوا على شاكلته ! لماذا لم تقل لي بأنه صاحب نفوذ ؟ كان يخاطب الجنرال بضمير أنت ، كما نتخاطب أنا وأنت . لو كنت أعرف ذلك ، لما تورّطت في مسألة كتلك !

ـ لكنها مسألة قانونية ! ـ اعترض تارانتييف .

ـ مسألة قانونية ! ـ قال موخاياريف متهكّماً ـ . اذهَبْ وقل هذا هناك ، إنْ كنت بارعاً حقاً . أصبحت هناك كالأبكم ، غير قادر على الكلام . أتعرف ماذا سألني الجنرال ؟

ـ ماذا ؟ ـ سأل تارانتييف بفضول .

ـ « صحيح أنك أسكرت الإقطاعي أبلوموف بمساعدة أحد الأنذال وأجبرتماه على توقيع سند دَيْن باسم أختك ؟

ـ هكذا قال : « بمساعدة أحد الانذال ؟ » ـ سأل تارانتييف

ـ أجل ، هكذا قال . . .

ـ من هو النذل ، الذي يقصده ؟ ـ سأل تارانتييف من جديد .

نظر إيفان ماتفييتش إليه .

ـ (بخبث) ألا تعرف ؟ ألست أنت ؟

ـ لم يعرفوا إذاً ، بأنني أنا الذي كنت معك .

ـ لا ، عرفوا بفضل الألماني ، وبفضل مواطنك . فقد استفسر الألماني عن كل شيء ، وتأكّد من وجودك آنئذ . . .

ـ كان جديراً بك أنْ تسمّي شخصاً آخر بدلاً مني ، وأنْ تقول بأنني لم أكن موجوداً !

ـ هه ! يالك من قدّيس ! ـ قال إيفان ماتفييتش .

ـ بماذا أجبت عندما سأل الجنرال : « صحيح أنك بمساعدة أحد الأنذال . . . ؟ » .

كان عليك أن تراوغ .

ـ أراوغ ؟ وهل تظنّ بأنني لم أحاول ؟ حاولت جاهداً أنْ أقول : « ليس صحيحاً ، ياصاحب السيادة ، هذا افتراء عليّ ! » ـ لكنّ لساني لم يقو على الكلام ، وسقطت عند قدميه .

ـ هل سيرفعون دعوى ؟ ـ سأل تارانتييف بصوتٍ خافت . ـ اسمعْ ، لا علاقة لي بالموضوع إطلاقاً ، فأنت الذي . . .

ـ لاعلاقة لك ! هه ! لا ياصديقي ، فأنت المذنب الأول : من أغرى أبلوموف بالشراب ؟ من الذي تهدّد وتوعّد ؟ . . .

ـ أنت الذي علمتني ذلك كله ، ـ قال تارانتييف .

- وهل أنت قاصر ؟

- هذه وقاحة ياإشبيني ! فأنت الذي أخذت النصيب الأكبر ، أما أنا فلم آخذ إلا ثلاثمائة روبلاً فقط . . .

- تريدني أن آخذ الأمور على مسؤوليتي لوحدي ؟ ياللك من ذكي بارع ! ! لا ، فهذا لن يحدث . سأقول بأنّ أختي طلبت مني ، بسبب جهلها وعدم درايتها ، بأنْ أكتب سنداً عند السمسار - تلك هي المسألة كلها . أما انت وزاتيرتي فقد قمتما بدور الشاهِدَيْن : وسيتمّ استجوابكما !

- كيف تجرؤ أختك على معارضتك ؟ - قال تارانتييف .

- أختي - غبية حمقاء : ماذا أستطيع أن أفعل معها ؟

- ماذا تفعل أختك الآن ؟

- إنها تبكي ، لكنها تصرّ على موقفها وتقول : « بأنّ إيليا إيليتش غير مدين لها بشيء ، وانها لم تقرضه أية نقود » .

- لِكنْ ، يوجد معك سند دين عليها ، - قال تارانتييف : فأنت لن تفقد شيئاً . . .

أخرج موخاياريف من جيبه سند الدَّين على أخته ، ثم مزّقه وأعطاه لتارانتييف .

- خذه هدية مني إليك ، ألا تريد ؟ - أضاف موخاياريف . - ماذا سآخذ منها ؟ البيت والحاكورة ؟ فالبيت قديم يكاد أن يسقط . هل يعقل أنْ أطردها من البيت مع طفليها ، وأتركها في الشارع ؟ لا ، لم يصل الأمر بي بعد ، الى هذا الحدّ .

ـ المحاكمة ستبدأ إذن ؟ ـ سأل تارانتييف بخجل ـ يجب أن نساعد بعضنا لنتخلّص من المسؤولية .

ـ أية محاكمة ؟ لن تكون هناك محاكمة . هدّدني الجنرال بالنفي من المدينة ، لكنّ الألماني دافع عني ، لأنه لايريد أنْ يجلب العار لأبلوموف .

ـ لقد زال الغمّ ! لنشرب نخب ذلك ! ـ قال تارانتييف .

ـ على حساب من ؟ على حسابك ؟

ـ لماذا لايكون على حسابك ؟ فقد ارتشيت اليوم سبعة روبلات .

ـ هه ! وداعاً أيتها المداخيل : فأنا لم أحكِ لك كل ماقاله الجنرال.

ـ ماذا قال ؟ ـ سأل تارانتييف وقد اعتراه الجبن فجأة .

ـ أمر بإحالتي على التقاعد .

ـ ماذا تقول ! ـ قال تارانتييف محملقاً . ـ سأشتم مواطني بسبب ذلك ـ ختم تارانتييف كلامه بغضب .

ـ إنك لاتعرف إلاّ الشتيمة !

ـ كلا ، سأفعل ماتريد ! من الأفضل أنْ أتمهّل حقاً ، اسمع ، لقد خطرت لي فكرة !

ـ ماهي ؟ ـ قال إيفان ماتفييتش بتأمل .

ـ يمكننا القيام بعمل جيّد مفيد . لكن مايؤسفني ، هو انتقالك من شقة أختك . . .

ـ ماذا تعني ؟

ـ اسمع ! قال تارانتييف وهو ينظر الى إيفان ماتفييتش . ـ يجب

أن تتلصّص على أبلوموف وعلى أختك أيضاً ، وتراقبهما وهما يحضّران الفطائر معاً ويتسامران . . . ثم يحضر الشهود خلسة ! في هذه الحال ، لن يستطيع الألماني أنْ يفعل شيئاً . ومادمت قد أصبحت الآن حراً بدون عمل ، فبإمكانك أنْ ترفع دعوى — فالمسألة قانونية ! أما الألماني فسيخاف ، ويقبل بالمصالحة .

— إنها فكرة معقولة حقاً ! — أجاب موخاياريف بتأمل . — فأنت لست غبياً فيما يتعلق بابتكار مثل هذه الأفكار ، لكنك لاتصلح لقضية كهذه ، وكذلك زاتيرتي . سأجد من يصلح لمثل هذه القضية ! انتظر ! — قال بانتعاش وبحيوية . — سأرسل طاهيتي الى مطبخ أختي : وستتصادق مع أنيسيا ، وتستطلع كل شيء ، وعندها . . . لنشرب نخب ذلك ياإشبيني !

— لنشرب ! — كرر تارانتييف . — وسأوبّخ مواطني بعد ذلك !

حاول شتولتس أن يقنع أبلوموف بالسفر معه ، لكنّ الأخير توسل إليه بإلحاح بأنْ يؤجّل موضوع سفره لشهر واحد فقط ، الأمر الذي أثار شفقة شتولتس . فقد كان ضرورياً بالنسبة لأبلوموف ، حسب ما ادّعى ، أنْ يبقى شهراً آخر ليصفّي حساباته ويسوّي أموره في بطرسبورغ ، وايسلّم الشقة أيضاً ، كي لايعود من أجل ذلك ثانية . كما كان يلزمه أيضاً أنْ يشتري كل ماهو ضروري لترتيب بيت القرية ؛ كان يريد أن يبحث أيضاً عن مدبّرة منزل جيّدة ، على غرار أغافيا ماتفييفنا ، حتى انه لم ييأس من إقناعها ببيع البيت ، وبالسكن في

القرية ، لتمارس هناك دورها اللائق بها ، في الإشراف على منزل كبير واسع .

ــ بالمناسبة ، كنت أريد أنْ أعرف طبيعة العلاقة ، التي تربطك بصاحبة الشقة ، ــ قال شتولتس .

ظهر الخجل على أبلوموف فجأة .

ــ ماذا تقصد ؟ ــ سأل أبلوموف بعجلة .

ــ إنك تعرف جيداً ماأقصد ، ــ لاحظ شتولتس ، ــ وإلا لما ظهر الخجل عليك . اسمع ياإيليا ، اذا كان التحذير يمكن أن يفيد شيئاً ، فانني أناشدك باسم صداقتنا أنْ تكون حذراً . . .

ــ من أيّ شيء ؟ ــ دافع أبلوموف عن نفسه بارتباك .

ــ كنت تتكلم عنها بحرارة ، لدرجة أني بدأت أعتقد بأنك . . . .

ــ تريد أن تقول بأني أحبها ! ــ قال أبلوموف مقاطعاً ، وهو يضحك بتكلف .

ــ الأمر سيكون أسوأ ، اذا كنت لاتشعر نحوها بأي بصيص من العاطفة ، واذا كانت علاقتك بها مقتصرة فقط على . . .

ــ أندريي ! هل عرفتني إنساناً عديم الأخلاق ؟

ــ لماذا بدا عليك الخجل إذاً ؟

ــ لأنك سمحت لنفسك بأنْ تفكّر بذلك . .

هزّ شتولتس رأسه بارتياب .

ــ انتبه يالإيليا ، لاتسقط في الحفرة . إنها امرأة ساذجة ، من بيئة سيئة ومن وسط غبي ، فظ ــ

ــ تفو ! . . .

صمت أبلوموف .

ــ وداعاً ، ــ ختم شتولتس ، ــ سأخبر أولغا بأننا سنراك في الصيف إنْ لم يكن عندنا ، ففي أبلوموفكا . تذكّرْ : إنها ستلحّ عليّ !

ــ حتماً ، حتماً ، ــ أجاب أبلوموف مؤكداً ، ــ كما أضِفْ أيضاً ، بأنني سأمضي الشتاء عندكم ، إذا كانت تسمح بذلك .

ــ إنها ستُسَرُّ لدى سماع ذلك !

سافر شتولتس في نفس اليوم وفي المساء أتى تارانتييف لعند أبلوموف.

جاء تارانيتيف ليوبخ أبلوموف بسبب مافعله الأخير ــ حسب زعمه لإيفان ماتفييتش ، خاصةً فيما يتعلق بصرفه من الخدمة . لكن تارانتييف هذا لم يأخذ بعين الإعتبار أمراً واحداً هاماً : فأبلوموف لم يعد يطيق تصرفاته ، كما لم يعد متسامحاً غير مبالٍ إزاء فظاظته ووقاحته ، بل أصبح ينظر الى ذلك كله بازدراء وتقزّز . تجلّى ذلك منذ زمن بعيد ، حتى أنّ موقف أبلوموف هذا كان يمكن أنْ يتضّح بعض الشيء ، عندما كان مايزال يعيش في المنزل الصيفي بالقرب من منزل آل إيلينسكايا آنذاك ، لكن زيارات تارانتييف أصبحت نادرة قليلة منذ ذلك الوقت ،

زد على ذلك ، أنّ لقاءاتهما كانت تتمّ بحضور الآخرين ، لذا لم تكن الإصطدامات تنشب بينهما .

ــ مرحباً يامواطني ! ــ قال تارانييتف بغضب دونأنْ يمدّ يده .

ــ مرحباً ! ــ أجاب أبلوموف بفتور وهو ينظر الى النافذة .

ــ هل ودّعت صديقك الخيّر المحسن ؟

ــ ودّعته . لماذا تسأل ؟

ــ صديقك المحسن هذا إنسان جيّد ! ــ تابع تارانتييف بسخرية .

ــ ألا يعجبك ؟

ــ لو كان الأمر بيدي لشنقته ! ــ قال تارانتييف بصوت أجش ، مليء بالحقد والكراهية .

ــ هكذا إذن !

ــ ولشنقتك أنت على شجرة حور !

ــ لماذا هكذا ؟

ــ عليك ان تتصرف بشرف : فاذا كنت مديناً ، فينبغي عليك أنْ تسدّد الديون ، لا أنْ تتملّص . ماالذي فعلته الآن ؟

ــ اسمع ياميخا أندرييتش ، خلّصني من قصصك ، فقد تحملتك طويلاً بسبب كسلي وتواكلي : كنت أعتقد بأنه يوجد لديك ولو ذرة وجدان أو ضمير ، لكن للأسف لايوجد شيء من ذلك . كنت تريد مع ذاك النذل أنْ تخدعاني : فانا لاأعرف من منكما الأسوأ ، لكنني أعرف جيداً بانكما خسيسان سافلان . فصديقي شتولتس هو الذي أنقذني من هذه الورطة الدنيئة . . .

ـ ياله من صديق جيد ! ـ قال تارانتييف ـ . سمعت بأنه خطف منك حبيبتك ، ياله من إنسان محسنٍ خير ! إنك مغفّل يامواطني . . .

ـ دع هذه الملاطفات من فضلك ! ـ قال أبلوموف محاولاً أنْ يضع حداً له .

ـ كلا ، لن أفعل ! فأنت ناكر للجميل ، لاتريد أن تفهمني ! لقد وفّرت لك هنا الهدوء والراحة ، وأمنّت لك المسكن عند امرأة كالكنز ، وأحسنت إليك ـ وها أنت تقابلني بالسوء ، وتثق بذلك الألماني ! هاهو ذا قد استأجر أملاكك ، سينهبك بالتدريج . تذكّرْ كلامي هذا ! يالك من مغفل ناكر للجميل ! هذا الوصف قليل عليك ، لذا أقول : يالك من بهيمة !

ـ تارانتييف ! ـ صرخ أبلوموف بغضب .

ـ لماذا تصرخ !

ـ سأصرخ بملء صوتي وأمام الجميع ، بأنك مغفل وبهيمة ! ـ صرخ تارانتييف . ـ لقد حميناك ، أنا وإيفان ماتفييتش وعزّزناك ، كنا كالعبيد أمامك ، نسير على رؤوس أصابعنا ، ونبدي لك الإحترام ونرعاك ، ـ وها أنت تضرب عرض الحائط بذلك كله ، وتشي بإيفان ماتفييتش أمام رؤسائه : إنه الآن بدون عمل ، وبدون رغيف الخبز ! هذه سفالة ودناءة ! يجب عليك الآن أن تمنحه نصف ثروتك ، يجب عليك أن تعطيه كمبيالة باسمه ، فأنت الآن لست سكراناً ، بل بكامل قواك العقلية ، فأنا لن أخرج قبل أنْ تفعل ذلك كله . . .

ـ لماذا تصرخ هكذا ياميخا أندرييتش ؟ ـ قالت صاحبة الشقة

وأنيسيا وهما يطلاّن برأسيهما من الباب . ـ فلقد توقف عابرا طريق ، كانا يمرّان بالقرب ، وأخذا يتساءلان عن سبب هذا الصراخ .

ـ سأصرخ ـ زعق تارانتييف ، ـ سأفضح هذا الأبله ! كم سأكون مسروراً ، عندما سينهب كل مالديك هذا الألماني المحتال ، الذي يترع كؤوس الهوى والغرام مع عشيقتك . . .

دوّت في الغرفة صفعة قوية . صمت تارانتييف فجأة ، وقد أذهلته صفعة أبلوموف على وجهه ، ثم تهاوى على الكرسي وأخذ ينظر الى ما حوله بعينين جامدتين مصعوقتين .

ـ ماهذا ؟ ماهذا ؟ ـ قال تارانتييف ، وقد أصبح شاحباً وهو يلهث ويضع يده على وجنته .

ـ أليست هذه إهانة ؟ ستدفع ثمن ذلك ! سأرفع عليك الآن شكوى الى الحاكم : ألم تشاهدا مافعل ؟

ـ لم نشاهد شيئاً ! ـ قالت أغافيا ماتفييفنا وأنيسيا بصوت واحد .

ـ آ ! هذه مؤامرة إذن ، هذا وكر لصوص ! تقتلون ، وتنهبون .

ـ اخرج أيها السافل ! ـ صرخ أبلوموف ، وقد أصبح ممتقعاً مضطرباً من شدّة الغضب . ـ اخرج فوراً ، وإياك أن تأتي ثانيةً الى هنا ، فاذا لم تغرب عن وجهي حالاً ، فسأقتلك كالكلب !

أخذ أبلوموف يبحث بعينيه عن عصا .

ـ انجدوني ! هذه قرصنة ! ـ صرخ تارانتييف .

ـ زاخار ! ارمِ هذا الوغد الى الخارج ، ولا تدعه يأتي الى هنا ثانية ! ـ صرخ أبلوموف .

ـ هيا ، انصرف ! ـ قال زاخار وهو يشير الى الباب .

ـ لم أكن آتياً لعندك ، كنت قاصداً إشبيني ، ـ زعق تارانتييف .

ـ بحفظ الله ! فأنا لاأريد أنْ أراك يامِيخا أندرييتش ، ولست بحاجة إليك ، ـ قالت أغافيا ماتفييفنا ـ كنت تأتي لعند أخي ، لا لعندي ! لقد أصبحت مملاً للغاية . فأنت تأكل وتشرب ، وتأتي رغم ذلك كله لتنبح .

ـ آه منك ياإشبينتي ! حسناً ، سيقتص أخوك منك ! وأنت ، ستدفع ثمن إهانتي ! أين قبعتي فلتذهبوا الى الشيطان ! لصوص ، سفاحون ! ـ كان يصرخ وهو يسير في فناء المنزل . ـ ستدفع ثمن إهانتي !

بدأ يُسْمَع نباح الكلب وقرقعة السلسلة .

بعد هذه الحادثة ، لم يتقابل تارانتييف وأبلوموف مطلقاً .

ـ ٨ ـ

انقضت سنوات عديدة ، لم يزر خلالها شتولتس بطرسبورغ . لكنه عرّج ذات مرة فقط ، لبعض الوقت ، على قرية أولغا ، وعلى أبلوموفكا . استلم منه إيليا إيليتش رسالة ، حاول فيها أندريي اقناعه بالسفر الى القرية كي يتولى بنفسه الإشراف على أملاكه ، التي تم تنظيمها ، أما شتولتس نفسه فقد سافر الى القرم مع أولغا سيرغييفنا من أجل هدفين : لإنجاز

بعض الأعمال في أوديسا ، ومن أجل صحة زوجته ، التي ساءت بعد الولادة .

أقاما في منطقة هادئة على شاطىء البحر . كان بيتهما صغيراً متواضعاً. كان البيت منظماً ومرتباً من الداخل ، كما هو من الخارج ، وفق ذوقهما الخاص . فلقد جلبا من روسيا ومن خارج الحدود الكثير من الرزم والحقائب والأحمال .

ربما هزّ هاوي المتعة والراحة كتفيه وهو ينظر الى الأثاث المتنوع ، وإلى اللوحات القديمة والتماثيل مكسورة الأيدي والأرجل ، الغالية من حيث الثمن ، والسيئة من حيث المنظر بالنسبة لمن لايهمّ بالعاديات .

ربما ستضطرم عينا خبير ضليع ، وهو ينظر بشغف واهتمام الى هذه اللوحة أو تلك أو الى كتابٍ ما اصفرّت أوراقه بفعل الزمن ، أو الى خزف أو أحجار أو عملة قديمة .

لكن ، وسط هذا الأثاث المتنوع ، المنتمي الى عصور مختلفة ، وسط هذه اللوحات عديمة القيمة في أعين الكثيرين ، عظيمة الأهمية بالنسبة لهما ، وسط هذه التحف الأثرية الصغيرة والكتب والنوتات الموسيقية الكثيرة ، كانت تهب نسيمات الحياة الدافئة ، التي تهيّج العقل وتثير المشاعر الجمالية . كانت تتواجد في ثناياها إما فكرة يقظة حية ، أو تتألق بسطوعٍ فيها روعة الإبداع الإنساني الخلاق ، كتألق الطبيعة الرائعة الخلابة الأبدي .

وجدت مكاناً لها أيضاً هنا ، منضدة كبيرة عالية على نمط تلك التي كانت عند والد أندريي ، وقفازات من جلد الشموة ، وفي الزاوية كان معلقاً معطف مطري بالقرب من الخزانة ، ومحارات وطيور محنّطة ، مع نماذج مختلفة من التربة والطين والفخّار وأشياء أخرى .

وسط ذلك كله ، كان هنالك بيانو لماع مرصع بالذهب ، يحتل مكان الصدارة ، على غرار البيانو الذي كان يصنعه صانع الآلات الموسيقية الفرنسي جيرار .

كانت هنالك شبكة من الكرمة واللبلاب والمرسين تغطّي العلّية كلها من الأعلى الى الأسفل . من الأروقة ، كان يشاهد البحر ، بينما كانت تشاهد من الجهة الأخرى ، الطريق الذاهبة الى المدينة .

كانت أولغا تترصّد أندريي وتراقب مجيئه من ذلك المكان ، عندما كان يغادر البيت الى المدينة ، لإنجاز بعض الأشغال ، ثم تنزل الى الأسفل عندما تراه ، فتجتاز ركضاً جنينة الزهور والرواق الطويل المحاط بأشجار الحور ، ثم ترتمي على صدر زوجها بكثير من السعادة والسرور الدائمين وقد تورّدت وجنتاها وتألقت عيناها ، على الرغم من مرور عامين على زواجها .

وبما كان شتولتس ينظر الى الحب والزواج بصورة غريبة ، مُبالغٍ فيها ، لكنه كان ينظر إليهما في كل الأحوال باستقلالية . كان يتصرّف هنا ، بحرية وبساطة ، ذلك ماكان يبدو له ؛ لكنْ كم عانى من الصبر والجهد ودقة الملاحظة ، قبل أن يجتاز هذه المدرسة الصعبة من التعامل الحياتي وقبل أنْ يتعلّم القيام بهذه « الخطوات البسيطة » !

تعلّم من أبيه أن ينظر الى كل شيء في الحياة ، وحتى الى صغائر الأمور بجدية ، ولربما اقتبس عنه أيضاً الصرامة والدقة ، وهما سمتان ملازمتان للألمان عادةً ، في كل خطوة ونظرة يقومون بها في الحياة ، بما في ذلك الزواج .

كانت حياة شتولتس الأب محدّدة بدقة ووضوح ، كما لو أنها محفورة على ألواح من حجر ، فلا يحيد قيد أنملة عما هو مرسوم على تلك اللوحة الحجرية . لكنّ أم أندريي ، وأغنياتها العذبة وهمساتها الرقيقة ، ومن ثم منزل الأمير الحافل بالأحداث ، والجامعة والكتب والإختلاط بالناس ، ــ كل ذلك قد أبعد أندريي عن المجرى الحياتي ، الذي رسمه له والده ؛ فالحياة الروسيةوَسَمَتْهُ بميسمها ، وحوّلت اللوحة الحجرية عديمة اللون ، الى لوحة زاهية رحبة .

لم يكن أندريي يفرض قيوداً على المشاعر ، حتى أنه كان يمنحها الحرية المشروعة ، لكنه كان يحاول فقط « ألا يفقد صوابه » ، عندما يسترسل في الأحلام والتخيلات ، مع أنه لم يكن يستطيع أن يردع نفسه ، عندما يتوب الى رشده ، بسبب من طبيعته الألمانية ، أو لسبب ما آخر ، عن استخلاص النتائج ، واستنباط بعض الملاحظات الحياتية .

كان نشطاً جسدياً ، لأنه كان نشطاً ذهنياً . كان حركاً ، ميالاً الى الدعابة في فتوته ، وعندما لم يكن يلعب ويتسلّى ، فانه كان يمارس عملاً ما تحت إشراف أبيه . كان يسترسل في أحلامه أحياناً.لم يفسد خياله ، ولم يتلف قلبه : فقد صانت أمه بانتباه العفة والطهارة في نفسه .

كان يحافظ غريزياً على نضارة الشباب ، عندما بلغ سن الرشد ، لكنه صار يكتشف مبكراً بعد ذلك ، بأنّ النضارة هذه تولد النشاط والحيوية والسرور ، وتخلق الرجولة ،التي تتصلب فيها الإرادة والعزيمة، اللتان تكسبان النفس الإنسانية المقدرة على مواجهة الحياة ، فلا يعود المرء ينظر إليها كعبء ثقيل يقضّ مضاجعه ، وإنما ينظر إليها كواجب جديد بأنْ يخوض الصراع من أجله .

كرّس الكثير من الإهتمام لقلبه أيضاً ، وبذل الكثير من الجهد لحلّ قضاياه المعقدة . فمن خلال المراقبة الواعية والعفوية لتأثير الجمال على الخيال ، وتحوّل هذا التأثير بعد ذلك الى عاطفة ، ومن ثم دراسة أعراضها وتجلّياتها ، ونتائجها ، استطاع أنْ يكوّن لنفسه عبر مسيرته الحياتية الواعية ، قناعة مفادها ، أنّ الحب يحرّك العالم حسب رافعة أرخميدس ، وأنّ الحقيقة الدامغة الشاملة والخير العام يكمنان فيه ، بقدرمايكمن فيه أيضاً الخداع والبشاعة في حال عدم فهمه وسوء استخدامه . أين الخير ؟ وأين الشر ؟ أين هو الحد الفاصل بينهما ؟

لدى سؤال : أين الخداع ؟ كانت تمرّ في خياله أقنعة الزمن الحاضر والماضي المبرقشة . كان ينظر بسرور وبشاشة تارة ، وبتجهّم تارةً أخرى ، الى الرتل الطويل ، الذي لاينتهي ، من أبطال وبطلات قصص الحب : الى الدونكيشوتيين بقفّازاتهم الفولاذية ، الى سيدات أفكارهم وعقولهم ، اللواتي قضين خمسين عاماً من الفراق عن أحبائهن ، ومن صامدات وفيات ، الى الراعيات متورّدات الوجنات ، متسمات العيون مع خرافهن .

تَبَدَّتْ أمام ناظريه أيضاً الماركيزات بمساحيقهن وزينتهن ، بعيونهن الذابلة الكامدة ، وبابتساماتهن الفاجرة المتهتكة ؛ تذكر أيضاً صرعى الحب ، المنتحرين والمنتحرات شنقاً ورمياً بالرصاص ؛ تذكر الفتيات الذابلات ، اللواتي ذرفن دموع الحب طويلاً ، ثم التحقن بالدير ، تذكّر أصحاب الشوارب من أبطال الحب ، بعيونهم المتقدة ، ووجوههم المتوردة ، تذكر دهاة الحب . . . تذكر الجميع ، الجميع !

لدى سؤال : أين الحقيقة ؟ كان يبحث قريباً وبعيداً ، في الخيال وفي الواقع عن نماذج وأمثلة من التقارب الودي الصادق العميق المخلص مع المرأة ، لكنه لم يجدها ، وإذا مابدا له ، أنه قد عثر على نموذج من ذلك ، فانه سرعان ماكان يكتشف العكس ، فتخيب آماله ويبدو عليه الحزن والتأمل ، حتى أنه كان ييأس .

« يبدو ، أنّ خيراً كهذا لم يُمْنَح لنا بصورة كاملة ، — فكّر شتولتس ، — أو ربما كانت تلك القلوب ، التي ينيرها ضياء حبٍّ كهذا محتشمة ، شديدة الحياء : فهي تخجل وتختبىء ، ولا تسعى للتحدّي ، ربما تفعل ذلك إشفاقاً وتسامحاً ، وربما لأنّ دهاة الحب يدوسون بأقدامهم ويمرّغون بالأوحال الزهرة الغضة الطرية ، قبل أنْ تترسخ جذورها في أعماق الأرض وتصبح شجرةً وارفة الظلال » .

كان يتأمل الزيجات ، ويرى في علاقات الأزواج مع زوجاتهم لغزاً محيّراً شبيهاً بلغز أبي الهول ، كان يعتقد بأنّ هناك شيئاً غامضاً ، غير مفهوم في تلك العلاقات ، لكنّ الأزواج لم يتوقفوا لحلّ هذه المسائل

الغامضة المعقدة ، بل اكتفوا بالسير على طريق الزواج المألوف ، كأنّ شيئاً لم يكن ،وكأنه لا وجود لأية مشكلات تتطلب منهم تمحيصاً وحلّاً .

« هل هم على صواب ؟ ربما كان الأمر لايستدعي منهم حقاً ، شيئاً أكثر من ذلك » ، — كان شتولتس يفكر بارتياب وعدم ثقة ، وهو يرى كيف يجتاز البعض الحب بسرعة ، بمجرّد أنْ يدخلوا آفاق الحياة الزوجية ، فتصبح العلاقة نوعاً من الواجب وتأدية مظاهر الإحترام الضرورية في المجتمع ، لا أكثر !

فهؤلاء يودّعون ربيع الحياة بسرعة فائقة ، حتى انّ الكثيرين منهم ينظرون بعد ذلك الى زوجاتهم شزراً ، ميدين الأسى والأسف طيلة حياتهم لأنهم كانوا على درجة كبيرة من الغباء ، عندما أحبوهنّ في وقتٍ من الأوقات .

بيد أنّ الحبّ بالمقابل ، يلازم البعض الآخر من الناس زمناً طويلاً يبقى أحياناً حتى سن الشيخوخة ، لكنّ ابتسامة السخرية والإنتقاد لاتفارقهم مطلقاً . . .

وأخيراً ، فإنّ الغالبية العظمى من الناس تدخل المؤسسة الزوجية وتنظر إليها كملكية ، تُحقّق من خلالها بعض الفوائد ، وتستمتع بالأرباح المتأتية منها : فالزوجة تهتم بترتيب البيت على أحسن وجه ، وتبدي سرورها لأنها أصبحت ربة منزل ، وأمّاً ومربية أطفال ، لكنها تنظر الى الحب كما ينظر صاحب الأملاك والعقارات الى موقع أملاكه ، أي أنها قد تعوّدت عليه وألِفَتهُ بسرعة ، ولم تعد تشعر به بعد ذلك أبداً.

ـ ماسبب ذلك : هل عدم الأهلية هذا ناجم بسبب قوانين الطبيعة ذاتها ، ـ قال شتولتس ، ـ أم هو نقص في التربية والإعداد والتأهيل ؟ . أين هي تلك العاطفة ، التي لاتفقد روعتها وتألقها الطبيعي أبداً ، أين هي تلك العاطفة الرائعة، التي لا تبهت ولا تخبو ولا تنطفيء ؟ أي خير رائع عميم يسفك ، أي نسغ للحياة يراق ؟

نظر بعيداً بتأمل ، فلاحت له هناك ، عبر الضباب ، صورة امرأة تتألق عاطفةً وضياءً ، صورة بسيطة ، لكنها طاهرة متألقة .

ـ حلم ! حلم ! ـ قال شتولتس وهو يثوب الى رشده مبتسماً من هذه الصورة ، التي داعبت مخيلته بكسل .

لكنّ ملامح هذه الصورة المتخيَّلة ظلت تعيش في ذاكرته رغماً عنه، في البداية ، كانت هذه الصورة بالنسبة له تجسد مستقبل المرأة بوجه عام ، ونجاحها المتوقع ، لكنه عندما شاهد بعد ذلك أولغا الناضجة الشابة التي لم يفتنه جمالها الساحر فحسب ، بل قوتها أيضاً وحبها للحياة واستعدادها الواضح للصراع معها وقبول تحديها ، فإنّ الصورة الحلم ، صورة الحب التي تخيلها ورسمها لنفسه يوماً ، والتي كاد أنْ ينساها ، قد تجسدت له بكل تفاصيلها في أولغا ، وبدا له وهو يستشرف صورة المستقبل ، بأنّ الحقيقة لابدّ أنْ تكون كامنة في حبهما المرتكز على إدراك حقيقي لمضامينه ، والبعيد كل البعد عن سوء الإستخدام .

بيد أنّ شتولتس لدى تناوله مسألة الحب والزواج ، التي لم يدرج فيها أية مسائل أخرى من حسابات وأموال وعلاقات وتنقلات وأسفار ، كان يفكر جدياً كيف سيوفق بين نشاطه الخارجي الذي لم يضعف حتى

الآن ، وبين حياته الزوجية ، وكيف سيتحوّل من تاجر كبير ، كثير الأسفار ، الى رب أسرة يلازم البيت ؟ فاذا ما توقف عن نشاطه الخارجي وأسفاره تلك ، فما الذي سيملأ حياته في المؤسسة الزوجية ؟

فتربية الأولاد وتعليمهم وتوجيه حياتهم ، ليس أمراً هيناً بالطبع ، لكن ذلك كله سيأتي في مرحلة لاحقة من الحياة الزوجية ، وليس فوراً ، فما الذي يستطيع أنْ يفعله قبل أنْ تحين تلك المرحلة ؟

كانت هذه الأسئلة تقلقه غالباً منذ زمن بعيد ، ولم يكن يتبرّم من حياة العزوبية ، لم يخطر بباله أنْ يقيّد نفسه بسلاسل الزواج ، بمجرّد أنْ يخفق قلبه حباً وإعجاباً باحدى الجميلات . وربما بسبب ذلك كان حذراً من أولغا ـ الفتاة ، فقد كان يستمتع بالنظر إليها ، كما يستمتع المرء بالنظر الى طفلة صغيرة محبة ، لها مستقبل واعد ، كان يطرح عليها ، وهو يمازحها ، بعض الافكار الجديدة الجريئة ، والملاحظات الدقيقة الثاقبة حول الحياة ، فيتلقفها ذهنها الوقاد بحيوية ورغبة ، وهكذا خلقَ في نفسها دون أنْ يعرف أو يفترض ، استيعاباً جيداً للظواهر الحياتية ، ونظرة صائبة للأمور ، لكنه نسي بعد ذلك أولغا ودروسه تلك ، الخالية من الجدية .

لكنه ، عندما كان يرى أحياناً ، ومضات ذكية ، غير عادية تصدر عن ذهنها الوقاد ، ونظرات خالية من الخداع ، لاتبحث عن السيطرة والمجد الشخصي ، بل تنمّ عن مشاعر عفوية صادقة ، غير متكلفة ، صميمية ، جريئة ، نابعة من أعماقها ، ـ فانه كان يحتار ويتعجب من

أين لها ذلك كله ، لأنه كان قد نسي دروسه العابرة وملاحظاته السريعة لها .

ولو أنه نظر إليها بتمعّن آنذاك، لأدرك بأنها تتمسك بالسير على الطريق المستقلّ ، الذي اختطته لنفسها مهما كانت العقبات ، حتى أنها كانت ستتجاوز تأثير عمتها ووصايتها عليها، وتتخطى نفوذ المربيات والجدات والخالات والأسرة والطبقة والعادات والطباع القديمة والمواعظ ، ولتيقّن بأنها ستدافع عن طريقها الجديد هذا ، الذي سارت عليه بوعي وبعاطفة وترفض السير على الطريق القديم مهما كلفها ذلك .

لكن الطبيعة لم تسيء إليها ، ولم تجبرها على ذلك ؛ فعمتها لم تستبد بها ، ولم تفرض سيطرتها على إرادتها ومشيئتها ، فأولغا تستطيع تقدير الكثير من الأمور لوحدها ، إذ كانت تتأمل الحياة بحذر ، كما كانت تصغي بالمناسبة ، لحديث ونصائح صديقها . . .

لم يكن شتولتس يدرك شيئاً من ذلك ، لكنه كان ينتظر منها الكثير في المستقبل ، في المستقبل البعيد طبعاً .

وبسبب من حيائها وعزة نفسها ، ظلت أولغا طويلاً دون أن تكشف بوضوح عن مواهبها وإمكاناتها ، فقد تمكن شتولتس فقط ، بعد صراع مضن في الخارج ، أن يكتشف بكثير من الدهشة ، كم تطورّت ونضجت أولغا ـ الطفلة ، التي كاد أن ينساها ، وكم أصبحت شخصيتها قوية وبسيطة . أصبحت تتبدّى أمامه هناك تدريجياً لجة نفسها العميقة ، التي كان عليه أن يملأها ويكتشف أعماقها .

اضطر في البداية لأنْ يخفّف من حماسها الزائد وقلقها ، ومن طبيعتها المفرطة في حيويتها ، وأنْ يبذل جهداً كبيراً في سبيل الحدّ بعض الشيء من اندفاعتها العاطفية ، وتنظيم مجراها بانسياب ، ولو لبعض الوقت : لكنه ما إنْ أغمض عينيه ، وهو يعتقد بأنه فعل ذلك بنجاح ، حتّى عاد القلق إليها واضطرب قلبها واتقد ذهنها ؛ كان عليه أن يهدّىء خيالها المتهيّج ، ويحدّ من حساسيتها المفرطة .

فضباب الهلوسة والإيمان بالمصادفة ، اختفيا من حياتها . أصبح الأفق أمامها واضحاً جلياً كالماء العذب الرقراق ، فقد أصبحت ترى فيه بوضوح وصفاء كل حصاة وأخدود ، ومن ثم القاع النظيف الصافي .

– إني سعيدة ! – همست أولغا وهي ترمي حياتها السابقة بنظرة شكر وامتنان ، ثم تطلعت الى المستقبل ، وهي تتذكر حلم سعادتها ، الذي تخيلته في سويسرا ، والأمسية الرائعة الحالمة هناك ، فوجدت أنّ حلمها ذاك يسري كالظلّ في حياتها .

« لماذا كان ذلك كله من نصيبي ؟ » – فكرت أولغا بوداعة . كانت تستغرق في التفكير ، حتى انها كانت تخشى أحياناً ، أنْ تنقطع هذه السعادة فجأة .

انقضت سنوات على زواجهما ، لكنهما ظلاّ ينعمان بالعيش المشترك . كان الهدوء قد خيم ، والإنفعالات العاطفية قد هدأت ؛ أصبحت تعرجات الحياة مفهومة ، إذ كانت تواجَهُ بصبر وبهمّة ، لكن حياتهما لم تخمد .

تربت أولغا بروح الفهم الصارم للحياة ، فقد توحد كيانها مع كيان أندريي وشكّلا مجرىً حياتياً واحداً ؛ فعربدة الأهواء الجامحة وتسلطها لم يكن ممكناً : فحياتهما كان تجري بايقاع وبهدوء .

يحلم المرء أن ينام في هدوء جدير كهذا ، وأنْ ينعم به ويستمتع ، كما يستمتع سكان المناطق المنعزلة النائية ، الذين يتجمّعون ثلاث مرات يومياً ، ويتثاءبون أثناء تبادل الحديث ، ويغطون في سبات عميق ، ويشعرون بالضجر والملل والتعب خلال النهار ، لأنه لم يعد هنالك شيء يثير تأملهم وحديثهم ، ولم يبق لديهم موضوع يطرقونه، فقد تكلموا الكثير وتحدثوا عن كل مايمكن أنْ يتحدثوا عنه . لأنّ هذه هي « سنة الحياة على الارض » .

من حيث المظهر الخارجي ، كان يحدث عندهم كل مايحدث عند الآخرين .

صحيح أنهما لم يكونا يستيقظان مع الفجر ، لكنهما كانا يستيقظان باكراً ؛ كانا يحبّان أن يجلسا طويلاً حول مائدة الشاي ، حتى أنهما كانا يصمتان بتكاسل أحياناً ، ثم يفترقان بعد ذلك الى اماكن مختلفة ، أو يعملان معاً ، ويتناولان الغداء ويذهبان الى الحقول ، ويعزفان الموسيقى. أي أنهما كانا يفعلان كما يفعل الآخرون ، وكما كان يحلم أبلوموف .

لكنهما ، لم يعرفا النعاس ولا الكآبة ، كانا يقضيان الأيام بلا ملل أو خمول ، فلم تكن نظراتهما ذابلة ولا كلماتهما : لم يكن الحديث ينتهي بينهما ، حتى أنه كان حاراً وحامياً في أغلب الأحيان .

كانت أصواتهما الرنانة تتردّد في أرجاء الغرف ، وتصل اصداؤها الى الحديقة ، وهما يتبادلان أطراف الحديث ويرطمان زخرف أحلامهما ويكشفان عن همسات روحيهما ، التي لاتكاد تُسْمَع . . .

كان صمتهما أحياناً ، تعبيراً عن سعادة متأملة ، حلم بها أبلوموف في وقت من الأوقات ، أو عملاً ذهنياً صامتاً من جانب كلٍّ منهما يتصدى للإجابة على الأسئلة ، التي طرحها كل منهما على الآخر . . .

كانا غالباً يستغرقان في دهشةٍ صامتة وهما يتأملان روعة الطبيعة وتألقها الدائم المتجدد أبداً . فلم تفقد الطبيعة روعتها في أعينهما ، إذ كانا يجدان دائماً في الأرض والسماء والبحر مايحرّك مشاعرهما ، ويثير متعتهما ، وكانا يجلسان جنباً الى جنب صامتين ، ينظران بعيونٍ واحدة وبروح واحدة الى ذاك التألق الخلاّب ويفهمان بعضهما بدون كلمات .

لم يصدف أن استقبلا الصباح بعدم اكتراث ، ولم يقدرا على النظر الى سحر ليل الجنوب الدافيء ، كثير النجوم بعدم مبالاة . فحركة الأفكار الدائمة ، وتهيّج الروح المستمر ، وحاجتهما لأنْ يفكّرا ويشعرا ويتحدثا معاً ، — كل ذلك كان يثير مشاعرهما .

لكن ، ماهو موضوع هذه النقاشات الحامية ، والأحاديث الهادئة ، والمطالعات ، والنزهات البعيدة ؟

كانا يتطرقان لكل شيء . فشتولتس كان قد أقلع عن القراءة والعمل لوحده ، منذ أنْ كان في الخارج : وها هو الآن يفكر مع أولغا بشكل مشترك . فقد بذل الكثير من الجهد ، حتى استطاع اللحاق بأفكار أولغا السريعة المتلاحقة .

فالسؤال ، الذي طرحه في وقت من الأوقات ، المتعلق بما سيفعله ويشغل به نفسه في الحياة الزوجية ، قد وجد حلاً من تلقاء ذاته . فقد اضطُرّ لأنْ يشركها في الجانب العملي من حياته ، لأنّ انعدام الحركة في الحياة ، يخنق الإنسان ، كما يخنقه انعدام الهواء تماماً .

فأي مبنى يُشيَّد في أملاكه أو في أملاك أبلوموف ، وكل أمر يتعلق بالشركة التي يعمل فيها ، كان يتم بمعرفتها ومشاركتها ، لم يكن يرسل رسالةً إلاّ بعد أنْ يقرأها على مسامعها ، لم تكن هنالك فكرة تتعلق بمشروع مفترض ، إلاّ وكانت تعرفها ؛ كانت تعرف كل شيء وتهتم بكل شيء ، لسبب جوهري هو أنّ ذلك كان يهمّه .

كان شتولتس يفعل ذلك كله في البداية ، لأنه كان من المتعذر عليه إخفاء ذلك عنها :

فالرسالة التي يكتب ، والحديث مع وكيل القرية ، أو مع أحد المتعهّدين ، — كل هذا كان يجري أمام سمعها وبصرها ، ثم أصبح مستمراً على ذلك فيما بعد بحكم العادة ، لكنّ الامر قد تحول اخيراً الى ضرورة بالنسبة له .

أصبحت ملاحظتها ، ونصيحتها ، وصار استحسانها أو استنكارها بالنسبة له تدقيقاً لاغنى عنه : فقد أدرك بأنها تفهم الأمور كما يفهمها هو تماماً ، وتعالجها وتناقشها ليس باسوأ منه . . . فزاخار كان يغضب بسبب توفر هذه الموهبة والإمكانية في زوجته ، وكذلك يغضب الكثيرون ، لكن شتولتس كان سعيداً !

أما القراءة والتعلم ، فهما المصدر الأبدي للإمداد بالأفكار وتطويرها المستمر ! فأولغا كانت تتحمس لكل كتاب جديد ، ومقالة صحفية ، حتى انها كانت تغضب بشدة ، لابل تشعر بالإهانة عندما يرى شتولتس بأنه من غير المستحسن ، حسب رأيه ، إطلاعها على أمر ما بسبب صعوبته وجديته الفائقة وعدم قدرتها على فهمه ، كانت تسمي ذلك حذلقة وابتذالاً وتخلفاً ، حتى انها كانت تنعته بأنه « رجعي ألماني عتيق ». كانت تحدث بينهما بسبب ذلك ، مشاهد حية ، من الغضب والإنفعال .

كانت أولغا تغضب ، أما شتولتس فكان يضحك ، الأمر الذي كان يثير غضبها أكثر ، لم تكن تهدأ إلا بعد توقف شتولتس عن المزاح واقتناعه بإطلاعها على فكرته وبمشاركتها له في كل شيء . كان الأمر ينتهي بينهما بالإتفاق على أن كل ماهو ضروري بالنسبة لشتولتس من قراءة ومعرفة وخبرة ، هو ضروري بالنسبة لها أيضاً .

لم يفرض عليها أن تصبح عالمة تكنيك ، كي لايكون هنالك مايدعو الى التبجح والتباهي بأنها « زوجة عالمة » . فمجرد الإشارة أو التلميح من خلال كلمة تفلت منها بادعاء ذلك ، يمكن أن يثير خجله وارتباكه ، اكثر مما تثيره نظرة بلهاء جاهلة تصدر منها رداً على سؤال اعتيادي مألوف في الحقل المعرفي ، مازال بعيداً عن متناول التربية الأنثوية المعاصرة ، لكنه كان يرغب ، وكانت هي ترغب أكثر أيضاً ، بألا يبقى هنالك شيء على الإطلاق مستعصياً على الفهم والإدراك .

لم يكن يرسم لها الجداول البيانية والأرقام ، لكنه كان يحدثها عن كل

شيء ، فقد قرأ لها الكثير ، لم يترك نظرية اقتصادية ، ولا مسألة فلسفية أو إجتماعية إلاّ وحدثها عنها بكثير من الحماس والإهتمام : كأنه كان يرسم لها لوحةً معرفيةً حيّةً لا نهاية لها . كانت التفاصيل تختفي من ذاكرتها فيما بعد ، لكن مامن أحدٍ كان يستطيع أنْ يزيل من ذهنها الوقّاد الأفكار الأساسية الرئيسية ، أو يطفىء النور الذي أضاء كل شيء من حولها .

سيرتعش زهواً وسعادة، عندما سيرى بعد ذلك شرارة الضياء تلمع في عينيها ، عندما سيتأكد بأنّ الأفكار التي نقلها إليها ، أصبحت تتردّد في أحاديثها ، بعد أنْ ترسخت في وعيها وإدراكها ، وبعد أنْ تمّ استيعابها في ذهنها ، لتتبدّى الآن في كلماتها وقد اكتسبت بريقاً أنثوياً رائعاً وانسجاماً متقناً ، خاصةً إذا ما استقرت قطرة مما قرأه ورسمه وقاله لها في قاع حياتها كاللؤلؤة .

كان ينسج لها ، كمفكر وكفنان ، كياناً ذكياً رائعاً ، لكنه لم يكن يوماً مستغرقاً بعمل هكذا ، لافي مرحلة الدراسة ، ولا في أيامه الصعبة القاسية ، عندما كان يصارع الحياة ليتخلص من مصائبها ومكائدها وليخرج من معمعانها أشدّ بأساً وأقوى عزيمةً ، كما هو مستغرق الآن في عمله البركاني المستمر هذا ، وهو يتصدّى بدأب لتكوين وصقل شخصية رفيقة حياته !

— كم أنا سعيد ! — أسرّ شتولتس لنفسه وهو يحلم على طريقته الخاصة ، ويستبق الأمور بعيداً الى الأمام ، الى الزمن ، الذي تكون فيه سنوات الزواج الذهبية قد انقضت .

في الأفق البعيد ، كان هنالك طيف جديد يبتسم له ثانيةً ، لكنه لم يكن طيف أولغا الأنانية ، ولاطيف الزوجة التي تحبه بشغف ، ولا طيف الأم ــ مربية الاطفال ، الغارقة في حياة ذابلة تافهة ، بل طيفٌ من نوعٍ آخر لم ير له مثيلاً من قبل . . .

حلم بالأمّ ــ المبدعة ، المساهمة في إبداع الحياة الخلقية والإجتماعية لجيلٍ كامل يرفل بالسعادة .

كان يفكّر بخوف ، إنْ كانت القوة والإرادة ستتوفران له من أجل تحقيق ذلك . . . لذا فقد هبَّ لمساعدتها على تطويع الحياة بأسرع مايمكن، مغتنماًالظرف الراهن بالذات ، القادرين فيه على العطاء ، الظرف الذي لايزالان فيه شابين قويين ، من أجل أنْ يؤمّنا ذخيرة كافية من القوة الضرورية لمواجهة الحياة ، طالما أنها ــ أي الحياة ــ مازالت ترأف بهما ، طالما أنّ صفعاتها ولطماتها مازال ممكناً احتمالها، وطالما أنّ المصيبة ما زالت تغور في الحب .

أظلمت أيامهما ، لكن لمدة غير طويلة . فالإخفاقات في العمل ، وفقدان مبلغ كبير من المال ، ــ لم يكن يملك بالنسبة لهما أهمية كبيرة . فمثل هذه الأمور كانت تتطلب منهما جهوداً إضافية ، ومزيداً من الأسفار والتنقلات ، ثم يُسَوّى الأمر ويُطْوَى نهائياً .

أثار موت العمة دموعاً حارة صادقة سخية لدى أولغا ، وقد خيّم الحزن على حياتها أكثر من نصف عام .

أكبر المخاوف والهموم وأشدها ، كان يسببها مرض الأطفال ، لكن

ما إنْ تنتهي الأمور بخير ، حتى تعود السعادة لتخيّم من جديد .

كان أكثر مايقلق شتولتس صحة أولغا : كانت تبقى طويلاً بعد الولادة قبل أنْ تستعيد عافيتها ، وكان يظل قلقاً منشغلاً عليها ، حتى بعد أنْ تستعيد صحتها . فهو لم يعرف مصيبة أكبر من ذلك .

— كم أنا سعيدة ! — كانت أولغا تؤكد بهدوء وهي تتأمل حياتها ، حتى أنها كانت تستغرق في التفكير أحياناً في لحظة اعترافها هذا . . . وخاصةً بعد مرور ثلاث أو أربع سنوات على زواجها .

— غريب هو الإنسان ! كلما كانت سعادته أكبر ، كلما أصبح أكثر تأملاً ، وحتى . . . خوفاً . كانت أولغا تراقب نفسها وتجد ، بأنّ صمت الحياة وسكونها يكدّرانها . أخذت تنفض عن كاهلها قسرّياً ، هذا الهاجس ، وراحت تبحث عن حياة نشطة ، مليئة بالضجة والحركة والمشاغل ، وصارت تذهب مع زوجها غالباً الى المدينة ، وتلتقي بالناس ، لكن لمدة ليست طويلة .

كانت جلبة المجتمع تنعكس عليها سلباً ، لذلك كانت تسارع لتخفف عن نفسها من وطأة هذا الانطباع الثقيل غير المألوف ، المخيم عليها ، فتنصرف من جديد لتُشْغِلَ نفسها بشؤون الحياة المنزلية الصغيرة : إذ كانت تبقى أياماً بكاملها دون أنْ تغادر حجرة أطفالها وهي تقوم بواجب الأم — المربية ، كما كانت تستغرق مع أندريي في القراءة والنقاشات عن « الجدّي والضجر » ، كانا يقرآن عن الشعراء ، ويتحدثان عن السفر إلى إيطاليا .

كانت تخشى أنْ تصاب بخمول أو ضجر من النوع الأبلوموفي . فعلى الرغم من محاولاتها الجادة المتكررة ، لم تستطع أنْ تتحرر من لحظات الذهول الدورية ومن كبوة الروح وسباتها . في البداية ، كانت تشعر بالسعادة ، وهي تسترسل مع همسات الليل الناعمة الرقيقة ، فتحسّ بالخدر ، ثم مالبث أنْ تخيّم من جديد ، لحظة التأمل ، التي كانت تبدو لها بمثابة استراحة من عناء الحياة ، ثم يعقبها . . . القلق ، الخوف ، التعب ، ونوع من الحزن الصامت العميق . ثم تتتابع في ذهنها أسئلة مبهمة غامضة بلا انقطاع .

كانت أولغا تصغي بانتباه شديد وتتأمل بعمق حالتها في محاولةٍ منها للوقوف على حقيقة ماتبحث روحها عنه ، لكنها لم تستطع أنْ تستنبط شيئاً : كان يبدو لها أنّ روحها تبحث عن أمرٍ ما لاتعرف كيف تحدّده. إنها تتعذب وتتألم ، كأنها قد ملّت حياتها السعيدة تلك وتعبت منها ، وهاهي الآن تبحث عن ظواهر جديدة ، لم تحدث من قبل ، وتنظر بعيداً الى الأمام . . .

« ماهذا ؟ — كانت أولغا تفكر برعب — هل يعقل ، بأنني لاأزال أريد شيئاً ما ؟

الى أين أذهب ؟ لا يوجد مكان أذهب إليه، لم يبق أمامي طريق ... لكن . هل من المعقول أنْ أكون قد اجتزت طريق الحياة كله ؟ هل هذا هو نهاية المطاف . . . » — كانت روحها تتكلم ، لكنها لم تستطع أن تكمل . . . أخذت أولغا تنظر بقلق الى ماحولها ، لتتأكد إنْ كان

هنالك أحد قد سمع أو فهم همسات روحها . . . كانت تسأل بعينيها السماء ، البحر ، والغابة . . . لكنها لم تلق جواباً : فهناك البعد والعمق والظلام .

كانت الطبيعة تردّد شيئاً واحداً لايتغير ، فقد شاهدت أولغا فيها مجرى الحياة الرتيب المستمر ، بدون بداية ، وبلا نهاية .

لنفترض أنها عثرت على من تسأله عن سبب قلقها هذا ، فماذا سيكون الجواب ؟ كم سيكون مروّعاً ، لو اتضّح ، أنّ قلقها هذا ناجم عن ذهن كليل ، والأسوأ من هذا أيضاً ، أنْ تكون معاناتها تلك ناجمة عن قلب غير مؤهل للعاطفة والحب ! ياإلهي ! لكن شتولتس مُتَيّمٌ بحبّها ــ فكيف يمكن لعقلها وقلبها أن يكونا بهذه الدرجة من القساوة ! ماذا تفعل ؟ هل هي حقاً مجرَّدَةٌ من الرقة الأنثوية ؟ كم سيكون وضعها صعباً ، عندما ستتكشّف له عذاباتها ومعاناتها الجديدة هذه ، التي لابدّ أنْ يقف على حقيقتها !

كانت تشيح بوجهها عنه أو تتذرع بالمرض ، عندما كانت عيناها تفقدان الرقة الأنثوية ، رغماً عن إرادتها ، فتبدوان جامدتين بدون بريق ، وعندما كانت غمامة من الكآبة تغطي وجهها ، حتى انها لم تكن تستطيع أن تجبر نفسها على أن تتصنع الابتسامة ؛ كانت تستقبل بعدم اكتراث ، أهمّ الأخبار السياسية في العالم وأكثرها جِدّةً وأهمية ، كما كانت تصغي بعدم مبالاة أيضاً لأحدث الإكتشافات المثيرة في مجال العلم ولأروع ماتَحَقّقَ من إنتاج إبداعي في مجال الفنون .

لكنها لم تبكِ ، ولم تشعر برعشة مفاجئة ، كما كان يحدث معها فيما مضى ، عندما كانت أعصابها تضطرب ، عندما كانت تستيقظ وتتأجج عواطفها الأنثوية الفياضة . كلا ، فما تشعر به الآن،هو شيء آخر تماماً!

— ماهذا الذي يحدث لي ؟ — كانت تسرُّ لنفسها بقنوط ، عندما تصبح فجأة ، كئيبة غير مبالية بشيء ، على الرغم من روعة ليل الجنوب وحتى وسط ملاطفات زوجها وأحاديثه . . .

كانت تتجمّد فجأة وتصمت ، ثم تتململ بعد ذلك قليلاً وتتظاهر بالحركة ، من أجل أنْ تخفي حالتها تلك ، أو تتذرع بالشقيقة وتذهب لتنام .

لكنه لم يكن سهلاً عليها أنْ تخفي ذلك كله عن نظرة شتولتس الثاقبة : كانت تعرف ذلك جيداً ، كانت تستعد مسبقاً لمواجهة الحديث الذي لابد أن يدور ، تستعد لذلك بكثير من الإضطراب ، من نوع ذاك الذي كانت تشعر به عندما كانت تستعد للإعتراف بماضيها . وها هي لحظة الحديث قد حانت .

ذات مساء ، كانا يتمشّيان في الممر ، الذي تحيط به أشجار الحور . كانت مستندةً على كتفه وهي صامتة بعمق . كانت هنالك نوبة من الإضطراب الداخلي الخفي تعذبها ، وكانت تجيب باقتضاب ملحوظ على كل ماكان يقوله زوجها .

— المربية تقول ، بأنّ أولينكا كانت تسعل أثناء الليل . أليس من الضروري أنْ نستدعي الطبيب غداً ؟ — سأل شتولتس .

ـ لقد سقيتها شراباً ساخناً ، ولن أسمح لها بالخروج غداً الى النزهة. سنرى ماسيكون ! ـ أجابت أولغا برتابة .

ظلاً صامتين بعض الوقت ، ووصلا الى نهاية الممر وهما على هذه الحالة .

ـ لماذا لم تجيبي على رسالة صديقتك سونيتشكا ؟ ـ سأل شتولتس . كدت أنْ أتأخر عن البريد ، بسبب انتظاري لك . فها هي الرسالة الثالثة قد وصلت منها ، دون أن تردّي على أي منها .

ـ أريد أنْ أنساها بأسرع مايمكن . . . ـ قالت أولغا ، ثم صمتت .

ـ لقد أبلغت بيتشورين تحيتك ، ـ بدأ أندريي الكلام من جديد ، إنه معجب بك ، فلعلّه يجد في ذلك بعض العزاء ، الذي يمكن أنْ يخفّف من انزعاجه ، بسبب عدم وصول محصوله من القمح اليه في الوقت المحدد .

ابتسمت أولغا بجفاء .

ـ أنت الذي قلت ذلك ، لاأنا ، ـ قالت بعدم اكتراث .

ـ مابك ، هل تريدين النوم ؟ ـ سأل شتولتس .

دقّ قلبها بشدة ، ولم تكن هذه هي المرة الأولى ، بل كان ذلك يحدث لها في كل مرة تقترب فيها الاسئلة من الموضوع ، الذي تخشاه .

ـ كلا ، ـ قالت بحيوية مُتصنّعة ، ـ لماذا ؟

ـ هل أنت متوعكة ؟ ـ سأل من جديد .

ـ كلا . لماذا يبدو لك ذلك ؟

ـ لأنّ الملل بادٍ عليك .

ضغطت بشدة على كتفه بكلتا يديها .

ـ كلا ، كلا ! ـ أجابت بالنفي بصوت متصنع ، كان الضجر يظهر فيه بوضوح . أخرجها من الممر وصوّبَ وجهها نحو ضوء القمر .

ـ انظري إليّ ! ـ قال شتولتس وهو ينظر الى عينيها بإمعان .

ـ يمكن الإعتقاد بأنك . . . غير سعيدة ! فعيناك غريبتا الأطوار . ليس اليوم فقط ، بل . . . ماذا جرى لك ياأولغا ؟

ـ أمسكها بخصرها وقادها من جديد الى الممر .

ـ أتعرف لماذا : لأنني . . . أحس بالجوع ! ـ قالت أولغا وهي تحاول الضحك .

ـ لاتكذبي ، لاتكذبي ! فأنا لاأحب الكذب ! ـ أضاف شتولتس بصرامة متصنّعة .

ـ غير سعيدة ! " كررّت معاتبة وهي تستوقفه في الممر . ـ أجل فأنا غير سعيدة ، لسبب واحد . . . هو أنني جدّ سعيدة ! ـ أكملت أولغا بصوت ناعم رقيق لطيف ، أجبر شتولتس على أنْ يقبّلها .

أصبحت أكثر جرأة . ومع أنّ الافتراض بأنها غير سعيدة ، قد جاء في صيغة مازحة ، إلا أنّ ذلك قد دفعها لأنْ تتكلّم فجأة ، بصراحة .

ـ أنا لاأشعر بالملل . ولا يمكن أنْ أشعر بالملل : فأنت تعرف ذلك

ولا تصدّق بالطبع ماقلته بهذا الصدد ؛ لست مريضة ، بل . . . حزينة . فهذا مايحدث لي أحياناً . . . كنت أعرف ، بأنني لن أستطيع أن أخفي ذلك عنك ! أجل ، إنني حزينة ، لكنني لاأعرف السبب !

وضعت رأسها على كتفه .

ـ هكذا إذن ! ماالسبب ؟ ـ سأل بصوت خافت وهو يميل نحوها .

ـ لاأعرف . كررت أولغا .

ـ بيد أنه لابدّ أنْ يكون هنالك سبب ، إنْ لم يكن فيّ ، أو من حولك ، فيجب أنْ يكون فيك بالذات . فهذا الحزن لايعدو أن يكون أحياناً بداية المرض . . . فهل صحتك بخير ؟

ـ أجل ، قد يكون الأمر ، ـ قالت بجدّية ـ شيئاً من هذا القبيل ، مع أنني لاأحس بشيء . فأنت ترى كيف آكل وأتنزه وأنام وأعمل . وفجأة أشعر بنوع من الإكتئاب ، ويصبح مزاجي سوداوياً . . . فتبدو الحياة كأنّ شيئاً ينقصها . . . لاتأبه لما أقول : فهذا كله كلام فارغ .

ـ تكلمي ، تكلّمي ! ـ ألحّ باصرار وبحيوية . ـ إذاً ، فالحياة ينقصها شيءٌ ما : ماذا أيضاً ؟

ـ ينتابني نوع من الإحساس بالخوف أحياناً ، ـ تابعت أولغا ، ـ أجل ، فكل ماأرجوه هو أنْ تكون الحياة أغنى وأخصب مما عشت ، إذ لابد أنْ تكون هنالك أمور أخرى كثيرة . . . فهذه الفكرة تعذبني ، لكنني أتساءل وأقول : ماذا يمكن أنْ يكون أيضاً ؟ . . . ماهي السعادة ،

ماهي الحياة . . . — كان صوتها يخفت أكثر فأكثر ، كأنها قد خجلت من هذه الأسئلة ، — هل هي الافراح ، المصائب . . . الطبيعة ، — همست أولغا ، — لكنني أشعر بالرغبة أيضاً بما هو أبعد وأعمق من ذلك ، ماذا أقول ! أبدو وكأنني غير راضية بأي شيء مما هو موجود وقائم . . . ياإلهي ! إني أشعر بالخجل من هذه الحماقات . . . هذا حلم .

أرجوك أنْ تتغاضى عن ذلك ، أرجوك ألاّ تكترث . . . — أضافت بصوت متوسل وهي تلاطفه .

— فهذا الحزن سيزول سريعاً ، وسأصبح من جديد مرحة مسرورة كما أنا الآن !

التصقت به بحياء وبمحبة وقد خجلت من نفسها حقاً ، كأنها تطلب المعذرة بسبب ماارتكبته من « حماقات » .

استنطقها زوجها طويلاً ، وردّتْ على أسئلته طويلاً ، كما يردّ المريض على أسئلة الطبيب ، إذ أفصحت عن أعراض حزنها ، وعن الاسئلة الغامضة ، التي تتردّد في ذهنها ، وعن الإضطراب الذي ينتابها ، كما أوضحتْ ، كيف كانت هواجسها تختفي بعد ذلك وتزول — ، أي انها أخبرته عن كل شيء كانت تستطيع أنْ تتذكره وتلاحظه .

أخذ شتولتس يسير من جديد في الممر صامتاً ، منكّساً رأسه ، متأملاً بعمق وبقلق وبذهول اعتراف زوجته المبهم .

نظرت أولغا الى عينيه ، لكنها لم تر شيئاً ، وعندما وصلا في المرة الثالثة الى نهاية الممر ، أمسكت به وأخرجته من الممر ، وصوّبتْ وجهه نحو ضوء القمر ، ثم نظرت الى عينيه متسائلة .

— مابك ؟ — سألت بحياء . — إنك تسخر من حماقتي . أليس كذلك ؟ فحزني هذا سخيف جداً — أليس هذا صحيحاً ؟

ظلّ شتولتس صامتاً .

— لماذا تصمت ؟ — سألت بفارغ الصبر .

— لقد صمتت طويلاً ، مع أنك كنت تدركين بالطبع ، بأني قد لاحظت منذ زمنٍ بعيد كل الأعراض ، التي كنت تشعرين بها ، عليك الآن إذاً ، أن تتركيني أصمت وأفكر . فلقد طرحت عليّ مسألة ليست سهلة .

— لكني سأتعذّب ، لأنك ستفكّر بحلّ هذه المسألة لوحدك . كان ينبغي ألاّ أقول لك شيئاً ! — أضافت أولغا . — من الأفضل أنْ تقول شيئاً ما . . .

— ماذا أقول لك ؟ — قال متأملاً . — ربما كان اضطراب الأعصاب مازال يؤثر عليك ، فقد يكون من الجائز ، أنه هو الذي يتكلم : في مثل هذه الحالة ، الطبيب هو الذي يقرر ويوضح حالتك ، وليس أنا . يجب استدعاء الطبيب غداً . . . فاذا مااتضح بأنه ليس اضطراباً . . . —

بدأ شتولتس ، ثم استغرق في التفكير .

— « فاذا مااتضح بأنه ليس اضطراباً » ، فماذا سيكون ؟ قلْ ! أكمل ! — ألحّت أولغا بفارغ الصبر .

تابع شتولتس السير وهو مايزال مستغرقاً في التفكير

— تكلم ! — قالت أولغا وهي تهزّ يده .

ـ ربما كان هذا من فرط الخيال : فأنت حيوية جداً . . . ولربما كان ذلك ناجماً أيضاً ، لأنك نضجت وبلغت مرحلة . . . ـ أكمل بصوت خافت جداً ، كأنه يتحدث الى نفسه .

ـ أندريي ، تكلم بصوتٍ عال من فضلك ! فأنا لاأستطيع أنْ أتحمل عندما تغمغم ! ـ قالت شاكية ، ـ مادمت قد أفضيت لك بكل شيء فلا يجوز أنْ تغمغم بالكلام !

حتى انني أصبحت أشعر بالخوف معك في هذا الظلام . . .

ـ لاأعرف ماذا أقول . . . « تقولين أنّ الحزن ينتابك ، وأنّ بعض التساؤلات تقلقك » :

ماذا يُفْهَمُ من ذلك ؟ . . .

ـ لكنك غمغمت : « إذا . . . ربما . . . نضجت . . . بلغت » : ماهي الفكرة ، التي كانت تدور في ذهنك ؟ ـ سألت أولغا .

ـ كنت أفكر . . . ـ قال بهدوء وبتأمل ، وهو لايثق بفكرته ، كأنه يخجل أيضاً مما يقول ، ـ بأنه توجد لحظات . . . ماأريد قوله ، هو أنه إذا لم يكن هذا علامة من علامات الاضطراب ، واذا كنت صحيحة الجسم تماماً ، فلربما يكون تفسير ذلك ، هو أنك نضجت وبلغت مرحلةً يتوقف فيها تطوّر الحياة . . .

ـ يبدو ، أنك تريد أنْ تقول بأنني هرمت ، أليس كذلك ؟ ـ قاطعته بحيوية . ـ حذار ! ـ حتى أنها هدّدته بإشارة من يدها . ـ فأنا لاأزال شابة ، قوية . . . ـ أضافت أولغا وقد انتصبت قامتها .

بدأ شتولتس بالضحك .

– لاتخافي ، – قال شتولتس ، – يبدو أنك لاتفترضين مطلقاً : بأنك ستهرمين يوماً ! كلا ، فأنا لم أقصد ذلك . . ففي سن الشيخوخة تضعف القوى وتخور وتصبح عاجزة عن مواجهة الحياة . أما حزنك ، وتعبك ، فهما كما أعتقد ، دلالة على القوة . . . فتحرّيات واستقصاءات الذهن الوقاد المضطرم ، تصطدم أحياناً بحدود الحياة اليومية المألوفة الرتيبة ولا تعثر على الأجوبة بالطبع ، فيظهر الحزن ، يظهر التبرّم المؤقت من الحياة وعدم الإرتياح . . . إنه حزن النفس المتسائلة عن أسرار الحياة . . . فحالتك هي من هذا النوع على ماأعتقد . . .

تنفست الصعداء ، فقد سرّها أنّ مخاوفها قد انتهت ، وانها لم تسقط في عيني زوجها ، بل على العكس . . .

– ها أنا ذا سعيدة ، فذهني ليس خاملاً ، وأنا لاأحلم ، حياتي متنوعة – ماالذي ينقصني ؟ لماذا هذه التساؤلات ؟ – قالت أولغا . – إنه المرض والإرهاق !

لعلّ الإرهاق سمة ملازمة للذهن الضعيف الواهي ، الذي لم يتهيأ بما يكفي لمواجهة قضايا الحياة . ربما أخرجَ هذا الحزن وهذه التساؤلات الكثيرين من عقولهم ، لعلّها تمثل في نظر الآخرين مظاهر شائنة ، ونوعاً من هذيان العقل . . .

– إنها تريد أن تعيش في غمرة السعادة . . . لكن السعادة هنا : قد شابها فجأة نوع من الحزن . . .

ــ آ ! هذا جزاء نار بروميثيوس ! ففضلاً عن الصبر ، يجب على الإنسان أن يحبّ هذا الحزن ويحترم هذه التساؤلات : إنها فيض الحياة ورونقها ، وهي تظهر غالباً في ذروة السعادة ، عندما لاتكون هناك رغبات فظة خشنة ، إنها لاتظهر في مجرى الحياة الإعتيادية ، حيث الناس مشغولون بمصائبهم وبحاجاتهم ، اذ ليس لديهم الوقت للتفكير بذلك ؛ فالناس العاديون البسطاء لايعرفون هذا النوع من التساؤلات والحيرة . . .

ــ لكنه يصعب التغلب على هذا الحزن وهذه التساؤلات : فهي تسبّب الملل وعدم المبالاة تجاه كل شيء . . . ؛ تقريباً . . . ــ أضافت أولغا بتردّد .

ــ لكن ، ليس لمدة طويلة . فهي تجدّد الحياة بعد ذلك ؛ ــ قال شتولتس . ــ إنها تقود الى الهاوية ، التي لايستوضح المرء منها شيئاً مطلقاً ، لكنها ترغم المرء على أنْ ينظر الى الحياة من جديد ، بكثير من الحب ... إنها تصقل القوى وتزيدها خبرة وحنكة ، من خلال عملية الصراع مع النفس ، وكأنها لاتريد لهذه القوى أنْ تغرق في النوم مستقبلاً . . .

ــ كم هو صعبٌ ومضنٍ العذاب ، الذي تسبّبه هذه التساؤلات والتخيلات ! ــ قالت أولغا شاكية . ــ يكون المرء صافي الذهن ؛ مرتاحاً ، وإذا بغمامةٍ من القلق والشك تخيّم عليه فجأة ! ألا توجد وسائل للحيلولة دون ذلك ؟

ــ لكن هذا امر مهم في الحياة ! فالعيش يصبح مقرفاً بدون هذه التساؤلات !

ــ ماالعمل ؟ هل نستسلم ونكتئب ؟

ــ علينا أن نتسلّح بالعزيمة ونتابع طريقنا بصبر وباصرار ــ قال شتولتس .

فأنا وأنت لسنا عمالقة ، ــ تابع وهو يضمّها ، ــ ولن نسير مع ألغاوستيين والمانفريديين لخوض صراع جسور مع الأفكار المتمرّدة المضطربة . ولن نقبل تحديهم ، وإنما سنحني رؤوسنا وسنجتاز اللحظة الصعبة باستكانة ، وبعد ذلك ستبتسم لنا الحياة والسعادة من جديد . . .

ــ وإذا لم تتركنا هذه التساؤلات أبداً : ألن يؤرقنا الحزن عندئذ أكثر فأكثر ؟ ... ــ سألت أولغا ــ

ــ نستقبل الحزن عندئذ كعنصر جديد طارىء من عناصر الحياة ... لكن هذا لايحدث ، ولا يمكن أن يحدث بالنسبة لنا ! هذا لاينطبق على حزنك ؛ إنه مرض البشرية بوجه عام . لم تصبك منه إلا قطرة واحدة فقط . . . سيكون ذلك كله مرعباً عندما يفقد الإنسان الصلة بالحياة . . . عندما يفقد الدعامة ، التي يرتكز عليها . أما بالنسبة لنا . . . فكل ما أرجوه من الله ، هو أن يكون حزنك هذا ناجماً عن الأسباب ، التي ذكرت : وليس علامة من علامات المرض . . . فمرضك ، سيكون بالنسبة لي مصيبة حقيقية تنهك قواي وتقضّ مضاجعي . . . عندئذ تستطيع نظرات الارتياب والتساؤلات أنْ تحرمنا السعادة و . . .

لم يكمل كلامه ، أما أولغا فقد ارتمت في أحضانه كالمجنونة ، وتجمّدت لحظة في غيبوبة من النشوة ، وهي تطوّق رقبته بيديها .

- لن يستطيع الحزن ، ولا الضباب ، والمرض ، ولا . . . حتى الموت أنْ يحرمنا من سعادتنا ! ـ همست بحماس ، وقد أصبحت من جديد سعيدة ، هادئة ، مسرورة . بدا لها ، أنها ماأحبته يوماً بشغف ، كما أحبته في هذه اللحظة .

ـ لاتدّعي القدر يحرمنا من سعادتنا تلك ، لاتدعيه يحسدنا ، ـ ختم شتولتس كلامه ، مبدياً الكثير من الحذر ، ـ لاتغضبيه ، ولاتنسي أن تشكريه ؛ فهو يغضب عندما يجحد الناس بعطاياه . حتى الآن ، كنت تتعرّفين على الحياة فقط ، لكنك ستضطرين لأنْ تخوضي غمارها . . . وعندما ستثور وتضطرم ، سيحين العمل والمصيبة . . . وعندئذ لن يكون لدينا متسع للإنشغال بهذه التساؤلات . . . حافظي على قواك ! ـ أضاف شتولتس بهدوء وبصوت خافت ، كأنه يسرّ لنفسه رداً على انفعالها العاطفي . كانت نغمة حزينة تتخلّل صوته ، كأنه قد رأى في الأفق البعيد « المصيبة والعمل » .

صمتت أولغا ، وقد أذهلتها فجأة نغمة الحزن ، التي كانت تتخلل صوته . كانت تثق به بلا حدود ، كانت تثق بصوته أيضاً . انعدّتْ بتأمله ، فركّزت تفكيرها وراحت تفكر بعمق .

كانت تسير في ممر الحديقة غريزياً وببطء ، وهي مستندة عليه ، غارقة في الصمت . كانت تنظر بخوف أيضاً الى أفق الحياة البعيد ، حيث هناك لحظة « المعاناة » و « العمل والمصائب » .

تراءى لها حلم آخر ، فلم تعد ترى الليل الرائع الجميل ، ولا المنطقة

الوادعة الشفافة ، التي لبست حلة العيد ، ولا الوفرة التي تحيط بهما . . .

كلا ، فقد كانت ترى هناك الحرمان والمعاناة المغمورين بالدموع ، والتضحيات التي لا مفرّ منها ، والتخلي عن النزوات ، كانت ترى الآهات والدموع النابعة من مشاعر خفية مكبوتة جديدة ؛ رأت المرض وزحمة الأعمال وخسارة الزوج . . .

ارتعشت وخارت عزيمتها ، لكنها كانت تنظر بجرأة وفضول الى هذا الطراز الجديد من الحياة ، وتتفحّص بخوف ماتملكه من قوى وإمكانات تساعدها على المجابهة . . . لكن الحب لم يخنها في هذا الحلم ، فقد بقي الحارس الأمين الوحيد على حياتها الجديدة ، بيد أنها كانت تحس من الأعماق ، بأنها لم تعد كما كانت سابقاً !

فالحرارة اختفت من أنفاسها ، وغابت أشعة الليل المضيئة البراقة من ناظريها ، وبدا لها أن أحلام الطفولة عن الحب المتأجج المضطرم قد غارت في لجة الحياة الرهيبة المقبلة تلك . فلا وجود للقبلات والضحك هناك ، ولا للأحاديث العاطفية العذبة وسط الأزهار وفي عيد الطبيعة والحياة ... فكل شيء قد « ذبل وانقضى » .

فذلك الحب المتألق الدائم ، كان يرقد على وجهيهما وقت الكربة ، ويلمع بصمت وببطء في نظرتهما المتبادلة ، المليئة بالألم والمعاناة ، ويُسْمع من خلال مواجهتهما واحتمالهما مشاق الحياة بصبر ، كما كان يتبدّى عبر الدموع المكبوتة والبكاء المخنوق . . .

ففي حزن أولغا وتساؤلاتها ، بدأت تستقر بهدوء أحلام أخرى محددة ، واضحة ومخيفة ، على الرغم من أنها بعيدة . . .

كانت أولغا تجد في كلمات زوجها المُطمْئِنةَ الحازمة ، وفي ثقتها غير المحدودة به ، ارتياحاً نفسياً كبيراً يساعدها على التخلص من حزنها الغامض المحيّر ، غير المألوف بالنسبة لأناس كثيرين ، كما كانت تسير إلى الأمام بحيوية متخطية التنبؤات المستقبلية المخيفة .

أقبل الصبح المضيء بعد « الضباب »، الصبح الزاخر بمشاغل الأم وربّة البيت ، فجنينة الزهور كانت تجذب أولغا ، وكذلك الحقل وحجرة زوجها . لكن أولغا كانت تستعد لمواجهة الحياة ، وتنتظر أحداثها المرتقبة بتفكير نشط وبعزيمة عالية . . .

كانت تسمو أكثر فأكثر . . . أما أندريي فقد تأكد بأنّ مثله الأعلى السابق عن الزوجة والمرأة ، لايمكن بلوغه ، لكنه كان سعيداً بالإنعكاس الشاحب لمثله ذاك في شخصية أولغا : حتى أنه لم يكن يتوقع أن يظفر بذلك أبداً !

في تلك الاثناء ، كانت هناك مسألة هامة تشغل اهتمامه ، هي أن يصون كرامة الرجل عالياً في عيني أولغا الأبية المعتدّة بنفسها ، ليس من باب الغيرة المبتذلة ، بل من أجل ألا يكفهر صفاء الحياة ورونقها ، الأمر الذي كان يمكن أن يحدث ، إذا اهتزت ثقتها به .

كثيرات هنّ النساء اللواتي لايفكّرن بذلك : فيقبلن مزايا الزوج وسيئاته بمجرد أنْ يتزوّجن ، ويرضين بلا تردّد بواقعهنّ الجديد ويخضعن باستكانة لمشيئة أزواجهن ، ويسلّمن بما تفرضه عليهنّ الحياة الزوجية من واجبات ، فلا يعارضن ولا يتذمّرن ، بل يتذرّعن بالقول : « إنّ القدر قد جعل المرأة مخلوقاً ضعيفاً » . . . الخ .

وحتى إذا ماتفوّق الزوج على جموع الناس بعقله ، وهي مزية رائعة جذابة في الرجل ، فان أمثال أولئك النساء يتباهين بميزة الزوج هذه كما يتباهين بعقد ثمين من اللؤلؤ ، شريطة أن يكون ذهن الزوج الوقاد هذا غافلاً عن حيلهن وتصرفاتهن .

وإذا ماتجاسر على النظر والإمعان في مهزلتهن التافهة الأنثوية المخادعة والمعيبة أحياناً ، فانهن يتضايقن وينزعجن عندئذ من هذا الذهن .

لم تعرف أولغا مثل هذا المنطق من الخضوع الأعمى للقدر ، ولم تكن تفهم أهواء النساء تلك ونزواتهن . فما إنْ تسلّم بجدارة الشخص ، الذي اختارته وتعترف بحقوقه عليها ، حتى تثق به وتحبه ، لكن ماإنْ تفقد ثقتها به ، حتى تتوقف عن حبه فوراً ، كما حدث لها مع أبلوموف .

لكنّ خطواتها لازالت غير ثابتة ، وإرادتها متردّدة ، فهي مازالت تتأمل الحياة وتتبصر فيها ، وتستخلص منها كل ماهو ضروري لوعيها وإدراكها ، فمرحلة الخلق والإبداع لم تبتدىء بعد ، ومسالك الحياة مازالت مجهولة بالنسبة لها .

لكنها لاتثق الآن بأندريي بعمى ، بل بوعي ، فقد تجسّد فيه مثلها الأعلى عن كمال الرجل . لكنّ شتولتس كان يجد صعوبة أكبر في المحافظة على المكانة الرفيعة ، التي كان يحتلها ، ليس في ذهنها وقلبها فحسب ، بل وفي مخيلتها أيضاً ، وذلك كلما ازدادت ثقتها فيه . كانت تثق فيه بطريقة ، لم تكن تعترف فيها بوجود أي وسيط أو مرجع بينهما إلا الله .

لذا ، فإنها ما كانت لتحتمل أبداً أي تخفيض للفضائل ، التي تتمسك بها ، فأيّ خلل في هذا المجال ، كان يمكن أنْ يثير في ذهنها نفوراً وتناقضاً لامثيل لهما . فمبنى السعادة المتهدم يمكن أنْ يدفنها تحت الأنقاض ، وإذا ما سلمت قواها ، فانها قد تبحث عما تؤمن به أيضاً . . .

مثل هذا النوع من النساء لايخطىء مرتين . فبعد انهيار ثقة كهذه ، وحب كهذا ، يصبح انبعاثهما وتجدّدهما ضرباً من المستحيل .

كان شتولتس سعيداً بحياته المائجة المترعة تلك ، حيث الربيع فيها مزهر دائماً ، كان يحرص عليها ، ويهتم بها ويصونها بكثير من الرعاية والنشاط والغيرة . وعندما كان يتذكر ، بأنّ أولغا كانت على وشك الهلاك ، وأنْ كيانيهما المتّحدين في كيانٍ واحد ، كانا معرّضين للإفتراق ، وأنْ عدم معرفة طرق الحياة ومسالكها كان من الممكن أنْ يسبّب خطأً قاتلاً ، وأنّ أبلوموف . . . فانّ شتولتس كان يرتعد خوفاً من الأعماق .

كان يرتعش . كيف كان يمكن أن تعيش أولغا حياة ، كالّتي حدّثها عنها أبلوموف ! كيف كان يمكن أن تتحوّل الى مجرّد مربية أطفال وربّة بيت !

كيف يمكن عندئذ أنْ تتحوّل تلك التساؤلات والشكوك ومضامين الحياة كلها ، الى مجرّد اهتمامات منزلية بسيطة تافهة ، كانتظار الأعياد والضيوف والإجتماعات الأسروية ، ومناسبات الولادة ، والتعميد ، كيف يمكن أنْ يتحوّل ذلك كله الى خمول وعدم مبالاة .

الزواج عندئذ سيصبح شكلاً ، لا مضموناً أو وسيلة أو غاية ، فهل يمكن قبول أنْ يصبح الزواج مجرد إطار لاستقبال الضيوف وزيارتهم ، هل يمكن الموافقة على أنْ يتحوّل الزواج الى إطار لحفلات الغداء والعشاء والثرثرة الفارغة ؟ . . .

كيف كان يمكن أنْ تتحمّل أولغا ذلك كله ؟ ستقاوم في البداية بحثاً عن أسرار الحياة وألغازها ، وتبكي وتتعذب ، ثم تعتاد بعد ذلك ، وتترهّل وتأكل وتنام وتصبح بدينة ، بلهاء . . .

كلا ، قد يحدث لها شيء آخر : ستبكي وتتعذب وتذبل وتموت في أحضان زوجها العاجز ، المحب للخير . . . مسكينة أولغا !

لكن ، ماذا كان يمكن أن يحدث لو أنّ النار لم تنطفىء ، لو أنّ الحياة لم تفقد بريقها ، لو أنّ القوى لم تذبل ، بل ظلت تنشد الحرية والإنطلاق ؛ ماذا كان يمكن أنْ يحدث لو أنّ أولغا رفرفت بجناحيها ، كما ترفرف أنثى العقاب القوية حادة البصر ، وامتلكت القوة الكافية وانطلقت الى صخرة عالية ، لتجد عليها عقاباً أكثر قوة وحدّة نظر منها؟... مسكين إيليا !

ـــ مسكين إيليا ! ـــ قال أندريي ذات مرة بصوت مسموع ، وهو يتذكر الماضي . لدى سماع أولغا هذا الاسم ، أسبلت يديها فجأة ، بعد أنْ تركت التطريز ، ثم رمت رأسها الى الخلف واستغرقت في التفكير . فهتاف التعجب ، الذي صدر عن شتولتس أثار ذكرياتها .

ـــ ماذا حدث له ؟ ـــ سألت بعد ذلك . ـــ ألا نستطيع أنْ نقف على أخباره ؟

هزّ أندريي كتفيه .

ـ تخيّلي ، ـ قال شتولتس ، ـ لو اننا نعيش في زمن لم يُعرَفْ فيه استخدام البريد بعد ، تخيّلي ، لو اننا نعيش في زمن يعتبر الناس فيه بعضهم بعضاً بحكم المفقودين عندما يرتحلون ، فيختفون فعلاً دون أنْ يقفوا على أخبار بعضهم .

ـ ليتك تكتب من جديد الى أحد أصدقائه : فلربما نعرف على الأقل . . .

ـ لن نعرف شيئاً زيادة على مانعرفه الآن : حي يرزق ، يعيش في نفس الشقة ـ فهذا أمر أعرفه بدون مساعدة من أحد . أما كيف يعيش ، كيف يقضي حياته ، هل مات معنوياً ، أم أنّ بصيص الحياة لم ينطفىء بعد ـ فتلك أمور لن يستطيع الآخرون معرفتها . . .

ـ آه ، لاتتكلم هكذا ياأندريي : فأنا أرتعد وأتألم عندما أسمع ذلك ! كم أريد أن أعرف ، إنْ كان . . .

كانت على وشك أن تبكي .

ـ سنكون في بطرسبورغ في الربيع ، ـ وسنعرف بأنفسنا .

ـ لايكفي أنْ نعرف ، بل يجب أن نفعل كل ما في وسعنا . . .

ـ وهل تعتقدين بأني لم أفعل ؟ كم بذلت من الجهود من أجله ، فقد نظمت أملاكه ورتبت أموره ، على أمل أنْ يتحرّك ، لكن لاحياة لمن تنادي ! عندما كنت ألتقي به ، كان يبدي استعداده لفعل كل شيء ، لكن ما إنْ أبتعد عنه ، حتى ينام من جديد ، إنه كالسكران تماماً !

ـ ولماذا تتركه وتبتعد عنه ؟ ـ اعترضت أولغا بلهفة . ـ يجب التصرف معه بحزم ، يجب أنْ تضعه في العربة وتأخذه . فنحن سننتقل الآن لنسكن في أملاكنا ، وسيصبح عندئذ على مقربة منا . . . يجب أنْ تأخذه معنا .

ـ ليست المهمة سهلة ـ قال أندريي وهو يتمشى في أرض الغرفة ،ـ فلا أجد حلاً لها !

ـ لماذا تبدي تبرّمك ! ـ قالت أولغا . ـ هذه مفاجأة ! إنها المرة الأولى ، التي تتذمرّ فيها من هذه المهمة .

ـ أنا لاأتذمر ، ـ أجاب أندريي ، ـ بل أحاكم الأمر .

ـ ومتى كنت تحاكم أمراً كهذا ؟ ألم تعترف بنفسك بأنّ الأمر مقلق مزعج ؟

نظرت إليه مستطلعة . هزّ رأسه بالنفي .

ـ كلا فالأمر ، ليس مزعجاً ، بل عديم الجدوى : هكذا أفكر أحياناً .

ـ لاتتكلم ، لاتتكلم ! ـ أوقفته أولغا عن الحديث . ـ سأمضي اليوم كله حزينة ، كما حدث لي في الاسبوع الفائت . إذا كانت مودتك له قد انتهت ، فيجب عليك من باب الحب للإنسان أنْ تنجز هذه المهمة ، وإذا كنت قد تعبت من ذلك ، فسأذهب لوحدي ، ولن أخرج بدونه : فسيستجيب لتوسلاتي ، وسأبكي بحرارة ، إذا مارأيته ، بأنه فقد الاحساس بالحياة ، فلربما تفيد الدموع . . .

— فتبعث الحياة فيه ، أليس هذا ماتفكرين به ؟— قاطعها أندريي .

— إذا لم تبعث النشاط فيه ، فانها ستجبره على الأقل ، على أن ينظر الى ماحوله ، ويغيّر حياته بصورة أفضل . لن يبقى في الأوحال ، بل سيكون قريباً ممن هم في منزلته ، سيكون قريباً منا . فعندما ظهرت في حياته — استفاق فجأة وخجل . . .

— اما تزالين تحبينه كالسابق ؟ — سأل أندريي مازحاً .

— كلا ! — قالت أولغا بجدّية وبتأمل وهي تستذكر الماضي . — إني لاأحبه كالسابق ، لكن يوجد شيء ما أحبه فيه ، وقد بقيت ، على ما يبدو وفيةً له ، ولن أخونه ، فلن أفعل الآن كما . . .

— كما يفعل مَنْ ؟ أفصحي الكن،حذار أن تلدغيني ! كما أفعل أنا الآن ؟ — أليس هذا ماكنت تريدين قوله ؟ إنك تخطئين ، فأنا الذي جعلتك تحبينه ، تلك هي الحقيقة ! فلولاي ، لما كنت قد لاحظت وجوده. أنا الذي جعلتك تدركين ، بأنه يملك ذهناً لايقلّ عن أذهان الآخرين ، لكنه مدفون تحت الأنقاض ، نائم بخمول . أتريدين أن أقول لك ، لماذا هو غال عليك ، ولماذا لاتزالين تحبينه ؟

هزّت برأسها ، مبديةً علامة الموافقة .

— لأنه يوجد فيه ماهو أثمن من ذهنه : قلبه المخلص الأمين ! ذلك هو كنزه الفطري الثمين ، فقلبه ظلّ سليماً مُعافىً طيلة حياته. لقد سقط تحت تأثير الصدمات ، ففترت همته ، وغاب نشاطه ، وأصبح خاملاً. وفي نهاية المطاف ، أصبح يائساً خائر العزيمة ، ففقدَ القدرة على الحياة،

لكنه لم يفقد الإخلاص والوفاء . فقد ظلّ قلبه نظيفاً ، نقياً لاتشوبه شائبة . لم يعرف قلبه الخداع والغدر ، ولم يحِدْ عن طريق الإخلاص والوفاء ؛ لم تستطع أوساخ العالم أن تنال منه ، ولا الشرور أو السموم . فأبلوموف لايمكن أنْ يسلك أبداً طريق الخداع ، فروحه دائماً نظيفة ، نقية ، طاهرة . . . إنها صافية ، شفافة ، فأمثاله قليلون ، لابل نادرون ؛ إنهم كاللآلىء وسط الحشود ! تلك هي الأسباب ، التي جعلتك تظلين وفيّة له ، والتي تجعلني أيضاً لاأشعر بالإنزعاج عندما أبذل الجهود من أجله . لقد عرفت أناساً كثيرين يتحلون بصفات نبيلة سامية ، لكنني ماعرفت يوماً قلباً أنظف وأوضح وأبسط من قلبه ، أحببت أناساً كثيرين ، لكنني ماأحببت أحداً بعمق وبرسوخ كما أحببت أبلوموف .

ماإنْ يعرف المرء صفاته هذه ، حتى يصبح العدول عن حبه أمراً مستحيلاً .

ظلت أولغا صامتة ، مطرقة رأسها وهي تنظر الى مطرزاتها . أما أندريي فقد استغرق بعد ذلك في التفكير .

ـ هل ذكرت عنه كل شيء ؟ ماذا يوجد فيه أيضاً ؟ ـ أضاف شتولتس بعد ذلك بسرور بعد أنْ صحا من تأمله . ـ لقد نسيت أنْ أتحدّث عن « رقته المتناهية وعن . . . » .

بدأت أولغا تضحك ، ثم توقفت عن الخياطة والتطريز فجأة ، وهرعت الى أندريي ، ثم طوّقت عنقه بذراعيها ، وتفحصت بعينيها المشعّتين وجهه بضع لحظات واستغرقت بعد ذلك في تفكير عميق ، بعد

أن وضعت رأسها على كتف زوجها . انبعث في مخيلتها وجه أبلوموف الوديع الحالم ، ونظرته الرقيقة المسكينة ، وابتسامته الحجولة الذليلة ، التي كانت تغطي وجهه في آخر لقاء بينهما قبيل الفراق ، رداً على لومها وعتابها . . . فشعرت بالألم والإشفاق عليه ، لدرجة أنها . . .

— لن تتخلى عنه ، ولن تتركه ، أليس كذلك ؟ — قالت أولغا وهي لاتزال تطوّق عنق زوجها بذراعيها .

— أبداً ! إلاّ إذا انشقت هاوية عميقة بيننا ، وانتصب جدار سميك يحول دون لقائنا . . .

طبعت أولغا على وجه زوجها قبلة .

— ألن تأخذني إليه عندما سنكون في بطرسبورغ ؟

صمت شتولتس والتردد باد عليه .

— أجل ؟ أجل ؟ — ألحّت اولغا باصرار على أنْ يجيبها بالموافقة .

— اسمعي ياأولغا ، — قال شتولتس ، وهو يحاول أن يفكّ طوق ذراعيها من حول عنقه ، — يجب أوّلاً أنْ . . .

— كلا ، قل : نعم ، اعطني وعداً ، فلن أكفّ عن الإلحاح ، الى أنْ أحصل على وعدٍ منك بالموافقة !

— على الأرجح ، — أجاب شتولتس ، لكن،ليس في المرة الأولى ، بل في المرة الثانية : فانا أعرف ماسيحدث لك ، إذا كان أبلوموف . . .

— لاتقل ، لاتقل ! . . . — قاطعت أولغا . — أجل ، ستأخذني

معك : سنستطيع أنْ نحقّق كل شيء معاً . أما إذا كنت بمفردك ، فلن تستطيع أن تحقق شيئاً !

– كما تريدين،لكنك ستحزنين، ولربما سيستمرّحزنكطويلاً ؛– قال شتولتس وقد بدا عليه بأنه لم يكن راضياً تماماً ، بسبب انتزاع أولغا الموافقة منه .

– تذكّرْ ، – ختمت أولغا الكلام ، وهي تجلس مكانها ، – بانك لن تصرف النظر عن محاولاتك وجهودك تجاه أبلوموف ، إلا عندما « تنشق الهاوية وينتصب جدار عال بينك وبينه » .

فأنا لن أنسى هذه الكلمات .

– ٩ –

كان الهدوء والصمت يخيّمان على ناحية فيبورغ ، وعلى شوارعها السقيمة وأرصفتها الخشبية ، وعلى حدائقها الخاوية وقنواتها المكسوّة بنبات القرّاص ، حيث إحدى العنزات ، التي تجرّ برقبتها حبلا مقطوعاً تقضم العشب من تحت السياج ، أو تنام ببلاهة ، وحيث تتعالى وسط النهار وقع أقدام أحد الموظفين الكتبة– وهو يسير على الرصيف الخشبي أو تتحرك إحدى الستائر المصنوعة من الشاش ، فتطلّ من النافذة إحدى الموظفات ، أو يلوح ويختفي فجأة وجه نضر لإحدى الفتيات ، التي تقفز من فوق سياجٍ مافي إحدى الحدائق ، فيلوح بعدها مباشرة وجه فتاة أخرى ويختفي فجأة أيضاً ، ثم يظهر بعد ذلك من جديد ، وجه الفتاة

الأولى ويتناوب مع وجه الفتاة الأخرى ، ثم يُسمَع بعد ذلك ضحك وهرج الفتاتين ، اللتين تتهاديان في أرجوحتين .

الصمت يلفّ منزل بشيتنسينا . يدخل المرء حوش المنزل فيُفاجأ بالجلبة : الدجاجات والديوك تسرع فوراً لتختبىء في إحدى الزوايا ، الكلب يبدأ بالنباح ، بينما تتوقف أكولينا عن حلب البقرة ، ويتوقف البوّاب عن تقطيع الحطب ، ويتطلّع الإثنان بفضول الى الزائر .

— من تريد ؟ — يسأل البواب ، ثم يشير الى عتبة المنزل بمجرد أنْ يسمع إسم إيليا إيليتش ، أو اسم صاحبة الشقة ويتابع بعد ذلك تقطيع الحطب من جديد ، بينما يسير الزائر على الدرب المفروشة بالرمل قاصداً المدخل ، ثم يصعد درجات السلم ، المفروشة بقطعٍ من سجادة قديمة ، لكن نظيفة ، ويقرع قبضة ناقوس نُظّف بعناية ، فتفتح الباب أنيسيا ، أو الأطفال ، وأحياناً صاحبة الشقة نفسها أو زاخار — ، الذي يفتح آخر الجميع .

يحتوي منزل بشيتنسينا على وفرة من المؤونة والأدوات المنزلية ، لم تكن متوفرة فيه سابقاً ، حتى عندما كانت أغافيا ماتفييفنا تعيش فيه وحيدة مع أخيها .

المطبخ والدولاب والنملية مليئة بالآنية المتنوعة من صحون وفناجين وطناجر وكؤوس صغيرة وكبيرة ، نحاسية وزجاجية ، وحتى فخارية .

وفي الخزانات ، توجد الآن فضّيات السفرة العائدة لأبلوموف ولأغافيا ماتفييفنا .

توجد أيضاً صفوف كاملة من أباريق الشاي الكبيرة والصغيرة ، الموشاة برسوم جميلة زاهية ، وصفوف عديدة من فناجين الشاي المصنوعة من الخزف الصيني اللماع الرائع . وهناك أيضاً علب زجاجية كبيرة مليئة بالقهوة ، والقرفة ومسحوق الفانيليا ، والشاي ، والزبدة والخل .

هنالك رفوف بكاملها ، وضعت عليها أشياء أخرى متنوعة ، من رزم وعلب . فيها أدوية وغسول للعيون ، ومراهم وأعشاب ومساحيق وبخور ، هناك أيضاً صابون وعقاقير لتنظيف المزركشات وإزالة البقع ، وغيرها ، وغيرها ، ـ باختصار يمكن للمرء أن يعثر على كل شيء تهتم به ربة بيت حقيقية .

عندما تفتح أغافيا ماتفييفنا فجأة باب الدولاب ، المليء بهذه الأشياء فانها لاتستطيع أنْ تتحمل الرائحة القوية لهذه المخدّرات ، حتى أنها تحوّل وجهها جانباً كي تتفادى تأثيرها في البداية .

وفي السقف تُعلق أفخاذ الخنزير ، والسمكات الكبيرة ، كي لاتطالها الفئران ، كما تُعلّق أيضاً أكياس مليئة بالفطر المجفّف واللوز .

وعلى الأرض ، توجد براميل صغيرة مليئة بالزيت وأوعية أخرى مغطاة مليئة بالقشدة الرائبة ، وسلال مليئة بالبيض ، بالإضافة الى أشياء أخرى كثيرة .

فحتى ريشة هو ميروس تعجز عن تعداد وذكر ما هو موجود بالتفصيل ، في أركان وزوايا هذا المطبخ وعلى رفوفه العديدة .

كان المطبخ بالنسبة لأغافيا ماتفييفنا ومساعدتها أنيسيا ، يمثّل حصناً منيعاً تفاخران به . فأشعة الشمس ، والهواء النقي ، وعين صاحبة البيت الساهرة ، وأنامل أنيسيا النشيطة ، كانت تطال كل زاوية من زوايا المطبخ والبيت ، فتجعل الأشياء مرتبة ، نظيفة رائعة . لكن حجرة زاخار كانت شبيهة بالعش .

كانت غرفة زاخار بدون نوافذ ، فقد جعلها الظلام الدامس أشبه بالجحر . وعندما كانت صاحبة الشقة تتطرق في حديثها لإدخال بعض التحسينات الى غرفة زاخار ، وإجراء مايلزم من التنظيفات فيها ، كان زاخار يتصدّى باصرار ، لمقاومة ذلك ، معلناً أنه ليس من حقها التدخل في أموره وشؤونه الخاصة ، وموضحاً ، بأنه ليس من اختصاص النساء أنْ يحدّدن له أين يُوضَع الحذاء والدهان والفرشاة ، وليس من شأنهن أيضاً توجيه أية ملاحظة له ، تتعلق بتكويم ثيابه في الزاوية ، أو بالنوم على سرير يكسوه الغبار . أما فيما يتعلق بالمكنسة والألواح الخشبية ، والآجرّتين وقطعتي الحطب والأشياء الأخرى ، التي يحتفظ بها في غرفته فانه لم يكن يستطيع الاستغناء عنها ، لكنه لم يكن يوضح سبب ذلك ؛ كان يؤكد بأنّ الغبار والعنكبوت لايزعجانه مطلقاً ، وأنّ الملاحظات المتعلقة بهذا الصدّد لامعنى لها ، وأنه لايريد أنْ تتدخل أغافيا ماتفييفنا وأنيسيا في شؤونه ، مادام لايتدخل هو ، بشؤون المطبخ .

ذات مرة أدرك زاخار أنيسيا هناك ، فنظر إليها نظرة استخفاف ، وهدّدها جديّاً بحركةٍ من مرفقه باتجاه صدرها ، كي تكفّ عن ذلك ،

فخافت ولم تعد تتدخل في ترتيب حجرته . وعندما نُقِلَت القضية الى المرجع الأعلى ، الى إيليا إيلييتش لينظر فيها ، ذهب السيد النبيل ليرى الوضع بنفسه ، ويتدبر الأمر كما ينبغي ، لكنه ما إنْ أطلّ برأسه دقيقة فقط من باب حجرة زاخار الى الداخل ، وشاهد كل شيء ، حتى بصق دون أنْ يتفوّه بكلمة .

ـ ماذا أخذتما ؟ توجه زاخار بالحديث الى أغافيا ماتفييفنا وأنيسيا اللتين كانتا بصحبة إيليا إيلييتش ، وكله أمل بأنّ تدّخله في الموضوع سيساهم باحداث تغيّرٍ في الآراء . ثم ضحك بعد ذلك على طريقته الخاصة ، ضحكة قوية ، أخذ فوداه يتحركان من جرّائها في كل الإتجاهات .

أما الغرف الأخرى فكانت نظيفة ، يتخللها الهواء النقي ويغمرها الضياء . الستائر القديمة البالية اختفت ، واستُبْدِلت بأخرى جديدة جميلة . . .

ـ كان ذلك كله من عمل وإنجاز أغافيا ماتفييفنا .

كانت الوسائد بيضاء كالثلج ، مكدّسة فوق بعضها ، لدرجة أنها كادتْ أنْ تبلغَ السقف ، أما اللحف فكانت من النوع الفاخر .

كانت حجرة صاحبة الشقة تبقى أسابيع كاملة مليئة بالطاولات ، التي تُنْشَر عليها هذه اللحف ، كما كان ينْشَر عليها أيضاً رداء أبلوموف .

كانت أغافيا ماتفييفنا تفصّلها وتبطّنها بالقطن وتخيطها بيديها ؛ كانت تنحني عندما تقوم بذلك ، وتتابع بعينيها عملها المضني هذا ، حتى انها كانت تستخدم فمها عندما تريد أنْ تقطع بأسنانها خيطاً هنا وآخر هناك . كانت تعمل بدأب وبجدّ ، وتبذل جهداً منقطع النظير من أجل أنْ يتكلّل عملها بالنجاح . كانت هنالك فكرة محببة تستولي عليها وتبعث فيها السرور ، هي أنّ هذه اللحف ستدثّر إيليا إيليتش .

كان أبلوموف يستلقي أياماً بكاملها على الأريكة ، وهو يستمتع بالنظر الى مرفقيها العاريين المتحركين الى الأمام والخلف ، وهما يتبعان الإبرة والخيط . فقد نام أكثر من مرة على الصوت المنبعث من قطع أغافيا ماتفييفنا للخيط بأسنانها ، تماماً كما كان يحدث له في أبلوموفكا .

— لقد اشتغلتِ كثيراً ، ستتعبين ! — كان أبلوموف يستوقفها عن العمل .

— الله يحب العمل ! — كانت تجيب ، دون أنْ ترفع بصرها ويديها عمّا تقوم به .

القهوة ، التي تُقدَّم له ، كانت رائعة ، نظيفة ، لذيذة ، تماماً كما كانت تُقدَّم له في البداية منذ بضع سنوات خلتْ ، عندما انتقل الى هذه الشقة . أما الحساء الرائع الشهي ، والمعكرونة الفاخرة والفطائر المحشوة ، ولحم الفروج ، — فقد كان يتمّ تناولها بالتناوب وفق نظام محدّد ، فتُدْخل تنوّعاً محبباً يكسر رتابة الأيام في هذا المنزل الصغير.

كان شعاع الشمس البهيج يغمر النوافذ من الصباح الى المساء ، إذ

كان يغمرها في النصف الأول من النهار من إحدى الجهات ، بينما كان يغمرها في النصف الثاني من جهة أخرى ، دون أن يعيق شعاع الشمس هذا أي شيء .

كانت عصافير الكناري تغرّد بمرح ، وكان الزنبق ، الذي يجلبه الأولاد أحياناً من حديقة الكونت ، ينفث عبقاً رائعاً يملأ الحجرة الصغيرة ، فيمتزج مع رائحة السيجار الكوبي الأصلي المصنّع في هافانا ، ومع رائحة القرفة ، التي كانت تدقها صاحبة الشقة ، وهي تحرك مرفقيها بحيوية لامثيل لها .

كان يبدو على إيليا إيلييتش وكأنه يعيش في إطار الحياة الذهبي الذي تتبدل فيه فقط ، كما في الرسم اليباني تماماً ، فصول السنة ومراحل النهار والليل ؛ لم يعرف التبدلات والتغيرات ، لم يعرف المصادفات الكبيرة المفاجئة ، ولا الأحداث المثيرة ، التي يمكن أنْ تشوّش رتابة الحياة تلك ، أو تخلق نوعاً من الإنقباض النفسي بالنسبة له .

منذ أنْ حرّر شتولتس قرية أبلوموفكا من براثن ديون أخ صاحبة الشقة ، فان العلاقة بين أبلوموف من جهة وتارانتييف وأخ صاحبة الشقة من جهة أخرى ، قد انقطعت تماماً ، فزال بانقطاعها كل ما يلحق الأذى والضرر بحياة إيليا إيلييتش . أصبح يحيط به الآن فقط ، أناس طيبون ، بسطاء محبّون ، يسندون كيانه بكل جوارحهم وإمكاناتهم ، ويبذلون كل مافي وسعهم ، كي تكون حياته خالية من أي شيء يمكن أنْ يثير قلقه ، أو يدفعه للتفكير .

كانت أغافيا ماتفييفنا تعيش في غمرة السعادة ، لم تشعر بسعادتها يوماً كما تشعر الآن ، لكنها لم تكن تفصح عن أحاسيسها ومشاعرها تلك حتى أنه لم يخطر في بالها أمر كهذا .

كانت تصلّي وتتوسل الى الله لأنْ يطيل عمر إيليا إيليتش ويجنّبه « الذل والظلم والفاقة » ، بينما كانت تسلّم أمرها وأمر طفليها وبيتها كله لإرادة الله ومشيئته . لكن وجهها كان يعبّر دائماً عن سعادة وارتياح لكن سعادتها تلك لم تكن مقترنةً بالرغبات ، الأمر الذي كان يعتبر نادراً ، لابل مستحيلاً بالنسبة لطبع أية أمرأة أخرى .

استعادت صحتها ، وأصبحت مكتنزة ، كان صدرها وكتفاها يتألقان صحةً وعافية ، وكانت عيناها تشعّان وداعةً واهتماماً بشؤون المنزل فقط . استعادت هدوءها واعتزازها بالنفس ، وهما السمتان المميزتان لها سابقاً ، عندما كانت تدير شؤون المنزل ومن حولها أنيسيا وأكولينا والبوّاب . فقد أصبحت تتهادى كالسابق من الخزانة الى المطبخ ومنه الى المستودع ، وتصدر أوامرها بهدوء وبثقة ، وهي تدرك تماماً ماتفعل .

أما أنيسيا فأصبحت أكثر حيوية من السابق ، لأنّ حجم العمل قد صار أكبر : فهي تتحرك وتعمل دائماً ، بتوجيه من صاحبة الشقة . حتى عيناها أصبحتا أكثر تألقاً ، وأنفها الذي تتكلم بواسطته ، والذي يبرز بشكل مميز ، كان مشغولاً ، منهمكاً ، يتكلم بلا انقطاع ، على الرغم من أنّ لسانها كان صامتاً .

أما ملابس كل من أغافيا ماتفييفنا وأنيسيا فكانت منسجمة ومتوافقة مع المكانة والمسؤوليات التي تضطلع بها كل منهما في تدبير الشؤون المنزلية . فصاحبة الشقة كانت تملك خزانة كبيرة مليئة بفساتين الحرير والمعاطف ، أما قلنسواتها الخفيفة فكانت تشتريها من شارع ليتيني ، وأحذيتها من أشهر المخازن ، وقبعاتها من مورسكوي . أما أنيسيا فكانت ترتدي عندما تطبخ ، وخاصة في أيام الآحاد ، فستاناً من الصوف .

كانت أكولينا هي الوحيدة ، التي تسير وطرف ثوبها موضوع تحت الزنار ، أما البوّاب فلم يكن يستطيع ، حتى في العطلة الصيفية ، أن يفارق فروته القصيرة ، المصنوعة من جلد الخراف .

أما الحديث عن زاخار فنوع من العبث : فقد عمل من بدلته الرمادية سترة ، كما كان يستحيل على المرء تحديد لون بنطاله ، ولا نوع القماش الذي صُنِعَت منه ربطة عنقه . ينظف الأحذية ، وينام بعد ذلك ويجلس عند البوابة ، وهو ينظر ببلاهة الى المارة القلائل ، ثم يجلس أخيراً في أحد دكاكين الخرداوات ، ويفعل كل ماكان يقوم به سابقاً في أبلوموفكا أولاً ، ومن ثم في شارع غوروخوف .

وأبلوموف نفسه ؟ كان أبلوموف انعكاساً حقيقياً وتجسيداً طبيعياً

للهدوء والسكون الشاملين . فبعد أن أمعن في التفكير فيما حوله ، وتأمل حياته ونمط معيشته الراهن ، وبعد أن اعتاد وألِف الوسط ، الذي يعيش فيه ، قرر أخيراً ، بأنه لم يبق هنالك شيء يبحث عنه ، ولا مكان يذهب إليه ، لأنّ نموذج حياته الأمثل قد تحقّق ، وإن لم يكن بنفس الصورة الشاعرية الزاهية ، التي رسمها خياله يوماً ، واستمدّها من المجرى الخامل للحياة ، التي كان يعيشها وسط الفلاحين والنبلاء .

كان ينظر الى حياته الراهنة ، كاستمرار لتلك الحياة الأبلوموفية ، لكنْ مع بعض الإختلاف في الصورة المكانية والزمانية . فقد تيسّر له هنا بسهولة ، كما في أبلوموفكا ، أنْ ينعزل وينقطع عن الحياة ، ويؤمّن لنفسه الهدوء والسكون .

كان يحس في أعماقه بنشوة النصر ، لأنه استطاع أنْ يتخلص من مطالب الحياة وأعبائها اللجوجة المؤرقة ، ويفلت من تأثير ذلك الأفق ، الذي تلمع فيه بشدّة بروق الأفراح والمسرات ، وتحدث فيه على نطاق واسع المصائب المحزنة المفاجئة ، حيث الآمال الكاذبة المخادعة وأشباح السعادة الرائعة ، حيث ينوء الإنسان تحت أعباء التفكير المضني ، ويموت بتأثير العواطف المتأججة ، التي تنهزم أمام العقل . كان يحس في أعماقه بنشوة النصر ، لأنه استطاع أنْ يتخلص من معمعان الحياة ، التي يحارب المرء فيها بلا انقطاع ، فيخرج من ساحة المعركة محطماً ، مهزوماً .

ربما أنه لم يعرف الصراع ، ولم يشعر بلذة المجابهة والتحدي ، فقد رفض أبلوموف ذهنياً كل ما يعكّر سكونه وهدوءه ، فلم يكن يشعر

بالطمأنينة إلا في بقعة نائية ، لاحركة فيها ولا صراع ولا حياة .

لكن ، إذا ماأضطرمت مخيلته أيضاً ، وإذا مااستيقظت ذكرياته المنسية وأحلامه غير المتحققة ، وإذا ماأحس بوخز الضمير ، لأنه عاش حياته على هذا النحو ، وليس بشكل آخر ، — فانه يقلق وينام نوماً سيئاً ثم يستيقظ ويقفز من الفراش،ويذرف أحياناً دموعاً باردة تعبيراً عن اليأس وفقدان الأمل بتحقيق أحلامه التي انطفأت الى الأبد ، ويبكي كما يبكي الناس بمرارة على متوفى عزيز عليهم ، كتعبير عن عدم ارتياحهم ورضاهم على ماقدّموه له في حياته .

بعد ذلك ، يتطلّع الى ماحوله ، ويذوق طعم الخيرات المؤقته ويهدأ ثم ينظر بتأمل الى قرص الشمس وهو يغرق عند المغيب ، ويقرر أخيراً ، بأن حياته لم تتكوّن هكذا ببساطة وسذاجة فحسب ، بل انها خُلِقتْ وتحدّدتْ أيضاً بمنتهى السذاجة وقلة الحكمة ، للتعبير بمنتهى الإتقان عن إمكانية وجود الجانب السكوني من الحياة البشرية .

ربما كان من نصيب الآخرين ، كما كان يعتقد ، أنْ يعبّروا عن الجوانب القلقة المضطربة من الحياة ، ويحرّكوا قوى الإبداع والتدمير فيها فلكلٍ غايته !

تلكم هي الفلسفة ، التي تكونت عند أفلاطون الأبلوموفي ، التي كانت تُهدهده وتهدّىء من روعه وسط التساؤلات الملحة والمطالب الصارمة للواجب الإنساني وللرسالة الانسانية ! فهو لم يولد ولم يترعرع كمصارع محترف على الحلبة ، بل كمشاهدٍ مستكينٍ لما يجري عليها ؛

فلن تستطيع خلجات السعادة ولا لطمات الحياة أنْ تحرّك أو تثير روحه الخاملة الهيّابة — وبالتالي ، فانه كان يعيش على هامش الحياة ، لايفكر بإدخال أي تغيير الى حياته ، أو إبداء أي أسف عليها .

سنوات القلق والندم صارت نادرة . أصبح أبلوموف يؤطرّ حياته تدريجياً بهدوء وباستكانة في تابوت كيانه ، الذي صنعه بيديه ، كما يحفر قبره بيديه عجوز طاعن في السن ، ملّ الحياة .

لم يعد يحلم بإعادة تنظيم أملاكه ، ولا بالسفر الى القرية ليعيش هناك. كان وكيل الأعمال ، الذي عيّنه شتولتس ، يرسل الى إيليا إيلييتش بانتظام دخلاً محترماً ، وكان الفلاحون يجلبون لهالدواجن،والحبوب، فأصبحت البحبوحة والوفرة تغمران البيت وتزيدانه بهجة .

حتى إنّ إيليا إيلييتش اقتنى زوجاً من الأحصنة ، لكنه اختارهما بسبب حذره الشديد المميز ، بمواصفاتٍ محدّدة ، بحيث لايتحرك كان عن العتبة إلا بعد السوط الثالث ، إذ يبدأ أحدهما بعد السوط الثاني بالتمايل ثم يخطو جانباً خطوة واحدة ، ويفعل الحصان الثاني بعد ذلكالشيءعذاته، ثم ينطلقان بعد ذلك معاً بمجرّد أنْ يُشَدّ اللجام ، وهما يهزّانرأسيهما. كانا يُستخْدَمان لنقلِ فانيا الى المدرسة ، الكائنة في الجهة الأخرى من نهر النيفا ، كما كانت تستخدمهماصاحبة الشقة عندما تقوم بالتسوّق .

في عيد الصوم الكبير ، كان جميع أفراد الأسرة وكذلك إيليا إيلييتش شخصياً ، يذهبون في نزهة حتى أنهم كانوا يحجزون أحياناً مقصورة ، ويذهبون جميعاً الى المسرح .

في الصيف ، كانوا يذهبون جميعاً الى الضاحية ، بمناسبة من المناسبات . هكذا كانت الحياة تجري برتابة ، دون أنْ تُحْدِثَ أية تغيرات مضرّة ، قاتلة ، حتى أنه يمكن القول ، بأنّ ضربات الحياة ولطماتها لم تكن تطال الأماكن الصغيرة الهادئة كلياً . لكن الرعد ، لسوء الحظ ، الذي يهزّ الجبال والفضاء الفسيح المترامي ،كان يصل تأثيره وصداه ليطال جحر الفأر ، ومع أن الصوت والصدى يكونان في داخل الجحر ضعيفين خافتين ، لكنهما محسوسين .

كان إيليا إيلييتش يأكل كثيراً ، وبشهية ممتازة كما كان في أبلوموفكا ، وكان يتحرك ويعمل بخمول وكسل ، كما كان يفعل في أبلوموفكا أيضاً . وعلى الرغم من تقدم السنين ، فقد كان يشرب النبيذ والفودكا بتغافل ، كما كان ينام بعد الغداء بتغافل أكثر .

تغيّر ذلك كله فجأة .

ذات مرة ، أراد أبلوموف بعد نومه النهاري ، أنْ ينهض من على الأريكة ، لكنه لم يستطع ، أراد أنْ يتكلم — لكنّ لسانه لم يطاوعه . أخذ يلوّح بيده بذعر ، كي يهرعوا لنجدته .

لو كان أبلوموف يعيش مع زاخار فقط ، لظلّ حتى الصباح يلوّح بيده ، ولمات في نهاية المطاف قبل أن يهرع زاخار لنجدته ، لكن عين صاحبة الشقة ، كانت تسهر عليه ، كعين العناية الإلهية : فقلبها كان دليلها دائماً عندما يحدث لإيليا أي مكروه ، وقد كان دليلها أيضاً هذه المرة .

انطلقت أنيسيا فوراً باتجاه العربة لاستدعاء الطبيب ، أما أغافيا

فوضعت الجليد على رأسه وأخرجت من الخزانة بلمح البصر كل الغسولات والكحول النقي ــ وكل مادة تها خبرتها عليه من أشياء يمكن أنْ تفيد في حالة كهذه . حتى انّ زاخار شارك أيضاً في هذا الظرف بالإعتناء بسيده ، فقد كان يتململ بالقرب من إيليا إيليتش ويهتم به مع الطبيب وصاحبة الشقة وأنيسيا .

أعيد إيليا إيليتش الى وعيه ، وفُصِد دمه ، ثم أعلن الطبيب بأنّ هذا كان من أعراض السكتة القلبية ، وانه يجب أنْ يغيّر نمط حياته .

مُنع أبلوموف عن تناول الفودكا والنبيذ والبيرة ، إلا في حالات ومناسبات استثنائية نادرة ، كما مُنع أيضاً عن الدسم واللحوم والشحوم والتوابل ، وتقرر بأنْ يستعيض عن ذلك كله بحركة يومية مستمرة وبنوم معتدل في الليل فقط .

لولا أغافيا ماتفييفنا وعينها الساهرة لما كان تنفيذ ذلك ممكناً ، فقد استطاعت من خلال التحايل تارةً ، وبالملاطفة تارة أخرى أنْ تبعد أبلوموف عن تناول الأطعمة المغرية ، الضارة له وعن المشروبات الكحولية ، وعن النوم في فترة مابعد الغداء ، وعن الفطائر الدسمة .

فما إن ينعس أو يشرف على النوم ، حتى يُقْلب كرسيّ هنا في الغرفة ، أو يُرْمى صحن أو آنية هناك في الغرفة المجاورة ، أو يبدأ الأطفال بالصراخ والضجة ــ كل هذا من أجل أنْ يمنعوه من النوم نهاراً . وإذا لم تُجدِ هذه الأساليب ، فانّ صوتها الوديع كان يناديه ويسأله عن أمرٍ ما ، كي تلهيه عن النوم .

كان إيليا إيلييتش يتمشى في الحديقة صباحاً ومساءً ساعتين من الزمن . كانت أغافيا ماتفييفنا ترافقه عادةً ، وإنْ لم تستطع فماشا أو فانيا ، أو أحد معارفه القدامى المتفانين ، الموافق على كل شيء ، والمذعن لكل أمر ، ألكسييف .

هاهو إيليا إيلييتش يسير ببطء في الحديقة ، مستنداً على كتف فانيا ، الذي أصبح شاباً تقريباً . كان يرتدي زي المدرسة الرسمي ، ويكبح خطواته النشطة ، ليساير مشية إيليا إيلييتش. لم يكن أبلوموف يستطيع أن يسير بحرية وبسهولة بعد ، بسبب آثار النوبة القلبية ، التي ألمّت به .

ــ هيا الى الغرفة يافانيوشا ! ــ قال أبلوموف .

اتجها نحو الباب . أتت أغافيا ماتفييفنا لملاقاتهما .

ــ الى أين أنتما ذاهبان في هذا الوقت المبكر ؟ ــ سألت ، دون أنْ تمكّنهما من الدخول .

ــ وقت مبكر ! لقد اجتزنا الحديقة عشرين مرة ذهاباً وإياباً ، بالإضافة الى المسافة التي تفصل المنزل عن السياج ، فنكون قد مشينا فرسخين .

ــ كم مرة عبرتما الحديقة ؟ ــ سألت صاحبة الشقة ابنها فانيوشا .

ارتبك فانيا .

ــ لاتكذب ، انظر إليّ ! ــ قالت الأم متوعدة ، وهي تُحدّق في عينيه . ــ لن أدعك تخرج لزيارة أحد في يوم الأحد .

ــ كلا ، ياأمي ، فلقد عبرنا الحديقة اثنتا عشرة مرة .

ـ آه ، ياللك من مخادع ! ـ قال أبلوموف . ـ لقد أحصيتها بنفسي . . .

ـ كلا ، انتظرا ، فشوربة السمك ليست جاهزة بعد ! ـ قالت أغافيا ماتفييفنا ، ثم أغلقت الباب لتحول دون دخولهما .

اضطر آبلوموف لأنْ يجتاز الحديقة ثمان مرات أخرى رغماً عنه ، ثم عاد بعد ذلك الى الغرفة .

كان البخار يتصاعد من شوربة السمك ، الموضوعة على الطاولة الكبيرة المستديرة .

جلس أبلوموف على الأريكة لوحده ، بينما جلست أغافيا ماتفييفنا على كرسي وضع على يمينه ، وأجلست على يسارها ، على كرسي صغير طفلاً في الثالثة من عمره . جلست بالقرب من الطفل ، ماشا ، التي بلغت من العمر الثالثة عشرة ، وجلس بعدها فانيا ، وأخيراً جلس ألكسييف مقابل أبلوموف ، حيث اتفق أنْ يكون هذا اليوم في زيارتهم.

ـ انتظرْ ، سأضع لك أيضاً فرخاً من السمك! ـ قالت أغافيا ماتفييفنا وهي تضع في صحن أبلوموف سمكة .

ـ كم كان رائعاً لو أنك أعددت فطائر محشوة ! ـ قال أبلوموف .

ـ نسيت ، حقاً نسيت ! كنت أريد أن أحضّرها منذ مساء البارحة لكنّ ذاكرتي خانتني !

ـ قالت أغافيا ماتفييفنا بدهاء .

ـ كما نسيت أنْ أحضّر لك الملفوف الى جانب الشرحات يالإيفان

ألكسييتش ، – أضافت وهي توجه الحديث إليه . – لاتؤاخذني .

كانت تتحايل من جديد .

– لايهمّ : فأنا أتناول أي شيء ، – قال ألكسييف .

– لماذا لم تحضّري له حقاً شيئاً من لحم الخنزير أو البفتيك ؟ – سأل أبلوموف . – فهو يحبّ . . .

– لقد ذهبت الى السوق بنفسي ياإيليا إيلييتش ، لكني لم أعثر على لحم بقر جيد ! لكنني بالمقابل أمرت بتحضير شراب من عصير الكرز والنشاء : فأنا أعرف ، بأنك مولع به ، – أضافت أغافيا ماتفييفناوهي تخاطب ألكسييف .

لم يكن سحلب الكرز مضرّاً لإيليا إيلييتش ، لذا كان على ألكسييف الذي لايبدي معارضة لشيء ، أنْ يحبّه ويأكله أيضاً .

بعد الغداء ، لم تكن هنالك قوة في الارض تستطيع أنْ تمنع أبلوموف عن الإستلقاء . كان يستلقي عادة على ظهره هنا على الأريكة ، مدة ساعة من الزمن . ومن أجل أنْ تمنعه من النوم ، كانت ربة المنزل تصبّ القهوة ، وهي تجلس على الأريكة ذاتها وتجلب الأولاد كي يلعبوا هنا أيضاً ، على السجادة ، لترغم إيليا إيلييتش على المشاركة في لعبهم .

– لاتزعج أندريوشا أكثر من ذلك : لأنه سيبكي ! – كان أبلوموف يزجر فانيشكا ، عندما كان الأخير يزعج الطفل .

– ماشينكا ، كوني حذرة ، ولا تدعي رأس أندريوشا يصطدم بالكرسي ! – كان أبلوموف يحذّر بعناية واهتمام ، عندما كان الطفل يتسلّل تحت الكراسي .

كانت ماشا تندفع لتُخرج أخاها من تحت الكراسي .

أصبح الصمت يلفّ كل شيء ، فقد ذهبت أغافيا ماتفييفنا الى المطبخ ، لترى إنْ كانت القهوة قد أصبحت جاهزة ، بينما هدأ الاولاد تماماً . أصبح الشخير يُسمع في الغرفة خافتاً في البداية، ثم بدأ يشتدّ أكثر فأكثر ، وعندما ظهرت أغافيا ماتفييفنا وهي تحمل إبريق القهوة ، الذي يتصاعد منه البخار ، أذهلها هذا المشهد .

أخذت تهزّ برأسها ، وهي توجّه اللوم لألكسييف .

حاولت إيقاظه ، لكنه لم يستجب ! ـ قال ألكسييف مبرّئاً نفسه .

وضعت إبريق القهوة على الطاولة بسرعة ، وخطفت أندريوشا من على الأرض ووضعته بهدوء على الأريكة ، بالقرب من إيليا إيلييتش . أخذ الطفل يدبّ عليه ووصل حتى وجهه ، ثم أمسك بأنفه .

ـ(باضطراب) آ ! ماذا ؟ من هذا ؟ ـ قال إيليا إيليتيش ، الذي صحا فجأة من نومه .

ـ كنتَ نائماً ، فأيقظلك أندريوشا ، ـ قالت ربة البيت بلطف وتودّد .

ـ ومتى نمت ؟ ـ قال أبلوموف وهو يأخذ أندريوشا بأحضانه . ـ أتعتقدين بأني لم أشعر به عندما كان يدبّ على جسدي ؟ آه ، ياللك من صبي لعوب : تمسك بالأنف فوراً ! حسناً ! سأرى منك الكثير ! ـ قال أبلوموف ملاطفاً ومداعباً الطفل . ثم أنزله بعد ذلك الى الأرض، وتنفّس الصعداء .

ـ إيفان ألكسييتش ، حدّثني شيئاً ما ! ـ قال أبلوموف .

ـ لقد تحدّثنا عن كل شيء بالإيليا إيلييتش ، لم يبقَ هنالك شيء نتحدث عنه ، ـ أجاب ألكسييف .

ـ كيف لم يبق شيء ؟ فأنت تزور الناس : ألا يوجد لديك شيء جديد تحدثني عنه ؟ أعتقد بأنك تقرأ ، أليس كذلك ؟

ـ أحياناً أقرأ ، وأحياناً أخرى يقرأ الآخرون ، ويتحدثون وأنا أصغي .

كنت البارحة ، على سبيل المثال ، في زيارة ألكسيي سبيريدونيتش. استمعت الى ابنه الطالب ، وهو يقرأ بصوت مرتفع . . .

ـ ماذا كان يقرأ ؟

ـ كان يقرأ عن الإنكليز ، الذين يورّدون الأسلحة والبارود الى الغير . ألكسيي سبيريدونيتش قال ، بأنّ الحرب ستنشب .

ـ لمن كانوا يورّدون الأسلحة ؟

ـ الى اسبانيا أو الهند ـ لاأذكر الى أيّ منهما ، لكن السفير لم يكن راضياً .

ـ أي سفير ؟ ـ سأل أبلوموف .

ـ ذلك مانسيته ! ـ قال ألكسييف وهو يرفع أنفه نحو السقف ، محاولاً أنْ يتذكر .

ـ ضد من ستنشب الحرب ؟

ـ ضد الباشا التركي ، على مايبدو ـ

ــ ماذا يوجد لديك أيضاً من أخبار أخرى في السياسة ؟ ــ سأل إيليا إيلييتش ثم صمت .

ــ يقال بأنّ الكرة الأرضية ستتغطّى كلها بالجليد يوماً ما .

ــ وهل هذا سياسة ؟ ــ قال أبلوموف .

ارتبك ألكسييف .

ــ في البداية ، قرأ ديميتري ألكسييتش عن السياسة ،ــقال ألكسييف مدافعاً عن نفسه ، ــ ثم تابع القراءة بعد ذلك ، دون أنْ يذكر متى سينتهي الحديث عنها .

لكني عرفت فيما بعد ، بأنّ ماقرأه بعد ذلك ، كان يدور حول الأدب .

ــ ماذا قرأ عن الأدب ؟ ــ سأل أبلوموف .

ــ قرأ عن كتابٍ مشاهير من أمثال كارامزين ، باتيوشكوف وجوكوفسكي . . .

ــ وبوشكين ؟

ــ لم يقرأ شيئاً عنه . حتى أنني تساءلت ، لماذا لم يتضمن ذلك الكتاب شيئاً عنه .

فبوشكين عبقري .

ران الصمت . أتت أغافيا ماتفييفنا وبدأت تخيط شيئاً ما ، كان في يدها ، لكنها كانت تنظر من حينٍ لآخر الى إيليا إيلييتش ، وألكسييف وترهف السمع لتتأكد إنْ كانالهدوءوالنظاميسودان الحجرات الأخرى،

وإنْ كانت أكولينا تغسل الآنية ، وإنْ كان البوّاب لايزال يعمل في الحديقة ، أم أنه غادرها الى الحانة ، وإنْ كان زاخار يتشاجر مع أنيسيا في المطبخ .

استغرق أبلوموف في تأمل وصمت عميقين . لم يكن تأمله هذا حلماً ولا يقظة : كان يدع الأفكار تهيم بتكاسل على هواها ، دون أنْ يركّزها على شيء ، كان يصغي بهدوء الى دقات قلبه الرتيبة ، بينما كانت عيناه ترفّان بانتظام بين الفينة والأخرى ، كعلامة على شروده الذهني الخامل . لكن وضعه هذا ، كان محيّراً ، غامضاً ، غير محدد ، أشبه مايكون بالهلوسة .

تمرّ على الإنسان أحياناً ، لحظات قصيرة نادرة ، يبدو له فيها ، أنه يعيش مرة أخرى وينفعل ويتأثر بظرف ، سبَقَ أنْ تأثرّ به وعانى منه في وقت ما وفي مكان ما . لكنّ الأمر يلتبث عليه ، فهو لايعرف إنْ كان المشهد ، الذي يبرز في مخيلته الآن ، قد شاهده في الحلم ، أم أنه عاشه فعلاً في الماضي ، ثم نساه . بيد أنه يرى الآن نفس الوجوه ، التي كانت جالسة بالقرب منه سابقاً ، ويسمع نفس الكلمات ، التي سمعها ذات مرة : لكن الخيال عاجز عن استرجاع ذلك المشهد ، والذاكرة غير قادرة على إحياء صورة الماضي ، الأمر الذي يدفع المرء الى التأمل .

هكذا كان وضع أبلوموف الآن . فلوحة الصمت والسكون السابقة التي عاشها في مكان ما تبرز في مخيلته الآن ، ورقاص الساعة الجدارية المألوف يهتزّ الآن برتابة أيضاً ، كما يُسمَع نفس الصوت الناجم عن

قطع الخيط بالأسنان ، تتردّد الكلمات المألوفة ذاتها ، والهمس ذاته : « لا أستطيع أنْ أدخل الخيط في خرم الإبرة ياماشا ، افعلي ذلك بدلاً مني ، فعيناك أكثر حدّة ! » .

كان ينظر بخمول ، وبصورة آلية ، كما لو أنه في غيبوبة ، الى وجه أغافيا ماتفييفنا . فتبرز من أعماق ذكرياته ، صورة مألوفة ، شاهدها من قبل في مكانٍ ما . حاول أنْ يتبيّن أين ومتى سمع ذلك الهمس ، لكنه ...

تذكر أيضاً غرفة الجلوس الكبيرة المظلمة ، المضاءة بشمعةٍ شحمية في منزل والديه ، تذكّر أمه الحادثة ، الجالسة حول طاولة مستديرة مع بعض النساء الأخريات ، وهنّ يخطن بصمت ، تذكر أباه وهو يتمشى في الغرفة بصمت أيضاً . اتحد الحاضر بالماضي واختلطا .

تخيل أنه قد بلغ تلك الارض الموعودة ، التي تجري فيها أنهار من العسل واللبن حيث الناس يسيرون فيها وهم يرفلون بالذهب والفضة . . .

هاهي تتردّد في أسماعه الآن ، أحاديث المنامات وقراءة البخت وقرقعة الصحون وصوت السكاكين ، فيلتصق بمربيته العجوز ويصغي الى صوتها المرتجف ، وهي تشير الى أغافيا ماتفييفنا قائلة : « ميليتريسا كير بتييفنا ! » .

وكما في الماضي ، فانه يرى الآن الغيمة ذاتها تسبح في السماء الزرقاء ، ويحس بالرياح القوية ذاتها ، وهي تهبّ من النوافذ وتعبث بشعره ، وها هو أيضاً ديك من أبلوموفكا يسير ويصيح تحت النافذة .

هاهو الكلب قد بدأ بالنباح : لابد أنّ ضيفاً قد أتى . من يدري ،

ربما يكون أندريي قد جاء مع والده من فيرخليوفا ؟ ستكون فرحة عظيمة في الواقع ، لابد أنْ يكون هو : فالخطوات تقترب أكثر فأكثر . . . هاهو الباب ينفتح . . « أندريي ! » - قال أبلوموف .

ظهر أمامه أندريي حقاً ، لكنه لم يكن صبياً ، بل رجلاً ناضجاً .

صحا أبلوموف من حلمه : كان يقف أمامه في اليقظة ، لافي الحلوسة ، شتولتس الحقيقي ، الواقعي .

خطفت أغافيا ماتفييفنا الطفل بسرعة ، وأخذت من على الطاولة ما كانت تخيطه ، وأخرجت الأولاد واختفت ؛ اختفى كذلك ألكسييف . بقي شتولتس وأبلوموف لوحدهما ، وكلّ منهما ينظر الى الآخر بصمت وبلا حركة . كان شتولتس يطعنه بنظراته .

- لاأكاد أصدّق ، هل أنت أندريي حقاً ؟- سأل أبلوموف بصوت لايكاد يُسْمَع من شدة الاضطراب ، كما يسأل الحبيب حبيبته بعد فراقٍ طويل .

- نعم ! - قال أندريي بصوت خافت . - هل أنت حي ، معافى ؟

- عانقه أبلوموف وضمّه بشدة إليه .

- آه ! - أجاب أبلوموف وهو يصبّ في آهته الطويلة تلك كل ما في نفسه من أحزان وأفراح ، لم يعرف مثلها منذ فراقهما .

جلسا وبدأ كل منهما ينظر الى الآخر ، من جديد ، بإمعان .

- هل أنت معافى ؟ - سأل أندريي .

- أجل ، فأنا الآن بخير والحمد لله .

ـ هل كنت مريضاً ؟

ـ أجل ياأندريي ، أصبت بالذبحة القلبية . . .

ـ ماذا ؟ ياإلهي ! ـ قال أندريي بذعر وبتعاطف . ـ هل مرّتْ بدون مضاعفات ؟

ـ أجل ، لكنيّ لاأتحكّم بساقي اليسرى بسهولة . . .

ـ آه منك ياإيليا إيليتش ! ماذا حدث لك ؟ أراك قد يئست تماماً ! ماذا كنت تفعل طيلة ذلك الوقت ؟ فقد مرّت خمس سنوات دون أنْ نلتقي ؟

تنهّد أبلوموف .

ـ لماذا لم تسافر الى أبلوموفكا ؟ لماذا لم تكتب ؟

ـ ماذا أقول لك ياأندريي ؟ لاتسألني أكثر ، فأنت تعرفني جيداً ! قال أبلوموف بأسى .

ـ لم تغادر هذه الشقة طيلة هذه السنين ؟ ـ قال شتولتس وهو يعاين الغرفة : ـ لم تسافر ؟

ـ أجل ، فمازلت هنا ، ولم أغادر الى أي مكان . . . فأنا لن أغادر هذه الشقة بعد الآن ؟ .

ـ كيف ؟ هل قرارك هذا نهائي ، حاسم ؟

ـ أجل ياأندريي ، إنه نهائي وحاسم .

نظر شتولتس إليه بإمعان ، ثم استغرق في التفكير وبدأ يتمشى في الغرفة .

— وأولغا سيرغييفنا ؟ هل صحتهاجيدة ؟ أين هي ؟ هل تتذكر ...؟

لم يكمل .

— إنها بخير ، فهي تتذكرك ، كما لو انكما قد افترقتما البارحة . سأقول لك الآن ، أين هي .

— والأولاد .

— بخير . . . لكنْ ، قل لي ياإيليا : هل أنت عازم حقاً على البقاء هنا ؟ فقد أتيت الى هنا من أجل أنْ أصطحبك معي لعندنا ، الى القرية ...

— كلا ، كلا ! — قال أبلوموف وهو يخفض صوته وينظر الى الباب ، وقد بدا عليه القلق . — كلا ، أرجوك ألاّ تكرر هذا . . .

— لماذا ؟ ماذا حدث لك ؟ — بدأ شتولتس . — فأنت تعرف ، بأني أطالبك بهذا منذ زمن بعيد ، ولن أكفّ عنك . كانت هنالك أمور مختلفة تشغلني ، أما الآن فقد تحرّرت منها . يجب أنْ تعيش معنا ، بالقرب منّا : ذلك هو قراري وقرار أولغا . أشكر الله ، لأنني وجدتك هكذا ، وليس أسوأ . لم أكن أعتقد أني سأجدك هكذا . . . هيا ، استعد للسفر معي ! . . . فأنا على استعداد لأن أصطحبك بالقوة ! يجب أن تغيّر نمط حياتك . . .

كان أبلوموف يسمع هذا الخطاب بفارغ الصبر .

— لاتصرخ ، اخفضْ صوتك من فضلك ! — توسل أبلوموف. فهناك . . .

— ماذا هناك ؟

ـ سيسمعوننا . . . ستعتقد صاحبة الشقة ، بأني أريد أنْ أسافر حقاً . . .

ـ وماذا لو سمعت ؟ فلتعتقدْ كما تشاء ؟

ـ (مقاطعاً) آه ، كيف يمكن ذلك ! اسمعْ ياأندريي ! ـ أضاف فجأة بلهجة حاسمة ، لاسابق لها ، لاتحاولْ عبثاً أنْ تقنعني : سأبقى هنا.

نظر شتولتس الى صديقه بدهشة . كان أبلوموف ينظر إليه بحزم وبهدوء .

ـ لقد هلكت ياإيليا ! ـ قال شتولتس . ـ فهذا البيت ، وهذه المرأة . . . وحياتك هذه كلها . . . ضربٌ من الجنون : هيا ، سافر معي

أمسك شتولتس أبلوموف بكمه وسحبه باتجاهالباب .

ـ لماذا تريد أنْ تأخذني معك ؟ الى أين ؟ ـ قال أبلوموف معانداً عناد المستميت .

ـ كي أخرجك من هذه الحفرة ، من هذا المستنقع ، الى النور والرحابة ، حيث الحياة الطبيعية السليمة ! ـ أصرّ شتولتس ، بطريقة آمرة تقريباً . ـ أين أنت؟ من أصبحت؟انهَضْ من غيبوبتك ! هل هذه هي الحياة ، التي كنت تمنّي نفسك بها ؟ هل تريد أنْ تنام كالخلد في هذا الجحر ؟ تذكّر ماكنت تمنّي نفسك به . . .

ـ لاتذكّرْني ، لاتثر الماضي ، فلن يعود ! ـ قال أبلوموف ، وهو يتمتع بكامل وعيه وإرادته . ـ ماذا تريد أنْ تخلق مني ؟ فقد انقطعت الصلة الى الأبد ، مع ذاك العالم الذي تشدّني إليه ، فلن تنقذني ،

ولن تستطيع أنْ تعيدني الى الحياة . لقد ترسّخت جذوري في هذه الحفرة وإذا ما حاولت أنْ تقتلعني منها ، فسيكون موتي .

— تبصّرْ جيداً ، أين تسكن ومع من تعيش ؟

— أعرف ، وأدرك . . . آه ياأندريي ، فأنا أشعر بكل شيء ، وأدرك كل شيء : أشعر منذ زمن بعيد بالخجل من حياتي هذه ! لكني لاأستطيع السير على طريقك ، حتى ولو توفرّت لديّ الرغبة . . . ربما كان ذلك ممكناً في لقائنا السابق . اما الآن . . . (أخفض بصره وصمت لحظة) فقد أصبح الوقت متأخراً . . . اذهَبْ ولا تتوقفْ من أجلي . فأنا جدير بصداقتك — الله يعلم ذلك ، لكني لست جديراً بعنائك .

— كلا ، لاتقل ذلك ياإيليا . سآخذك معي من أجل ذلك خصيصاً . فافتراضكَ هذا يدفعني أكثر لأنْ أصطحبك معي . . . اسمَعْ ، — قال شتولتس ، — البس شيئاً ما واذهبْ لنقضي السهرة عندي . سأحدثك الكثير الكثير : هل تعرف مايجري عندنا الآن من نشاطات ومشاريع ؟

نظر أبلوموف إليه مستفهماً .

— لقد نسيت بأنك لاتشاهد الناس : اذهبْ ، سأحدّثك عن كل شيء . . . أتعرف من ينتظرني هنا في العربة ، عند البوّابة . . .

— أولغا ! — نطق أبلوموف فجأة وقد بدا عليه الخوف . حتى أنّ وجهه تغيّر . — لاتأتِ بها الى هنا ، ناشدتك الله ألاّ تفعل ، خذها وسافر . وداعاً ، وداعاً !

كان أبلوموف يدفع شتولتس الى الخارج ، حتى أنه بدا وكأنه يطرده ، لكنّ شتولتس لم يتحرك .

ــ لاأستطيع أنْ أذهب إليها بدونك : فقد أعطيتها عهداً بذلك ، هل تسمع ياإيليا ؟ إنْ لم يكن اليوم ، فغداً ، بامكانك أن تؤجل الأمر ، لكن أرجوك ألا تطردني . . . غداً ، بعد غد ، المهم أنْ نلتقي !

صمت أبلوموف وأخفض رأسه ، لكنه لم يتجاسر على النظر الى شتولتس .

ــ متى سنلتقي ؟ ــ سأل شتولتس . فأولغا ستسألني عن موعد لقائنا .

ــ آه ياأندريي ، ــ قال أبلوموف بصوت رقيق متوسل ، وهو يعانق شتولتس ويضع رأسه على كتفه . ــ اتركني الى الأبد . . . ولا تتذكرني . . .

ــ الى الابد ؟ كيف ؟ ــ سأل شتولتس بدهشة ، وهو يبتعد عن أحضانه وينظر الى وجهه .

ــ أجل ! همس أبلوموف .

ــ ابتعد شتولتس عنه مسافة خطوة .

ــ أنت ، الذي تقول هذا ياإيليا ؟ ــ قال شتولتس معاتباً . ــ تطردني وتتخلى عني من أجل هذه المرأة ! ــ ياإلهي ــ ! كاد أنْ يصرخ كما يصرخ المرء من ألم مفاجىء . ــ وهذا الطفل ، الذي رأيته الآن . . . إيليا ، إيليا ! اهرب من هنا ، لنذهبْ بأقصى مايمكن من السرعة !

كيف سقطت ! وهذه المرأة . . . من تكون بالنسبة لك . . .

ـ زوجتي ! ـ نطق أبلوموف بهدوء .

تجمّد شتولتس .

ـ وهذا الطفل ـ ابني ! أسميته أندريي وفاء وإخلاصاً لذكراك ! ـ أكمل أبلوموف وقد شعر بالإرتياح ، لأنه ألقى عن كاهله عبء هذا السر .

تغيّر الآن وجه شتولتس ، وبدا مذهلاً ، وهو ينظر بشرود الى ما حوله . فقد « انفتحت وانشقت الهاوية » أمامه فجأة ، وانتصب « الجدار العالي » أمام ناظريه ، كأنّ أبلوموف لم يعد موجوداً، كأنه قد غاب من عينيه وانهار . كان يشعر بذلك النوع من الألم المر والحسرة المفجعة ، التي يحس بهما الإنسان عندما يهرع بلهفة ليرى صديقاً حميماً بعد فراق طويل ، فيكتشف بأنه ليس موجوداً منذ زمن بعيد ، وأنه قد مات .

ـ لقد هلك ! ـ قال غريزياً وبصوت هامس . ـ ماذا سأقول لأولغا ؟

سمع أبلوموف الكلمات الأخيرة ، وكان يريد أنْ يقول شيئاً ما ، لكنه لم يستطع . مدّ كلتا يديه الى أندريي ، ثم تعانقا بصمت وبحرارة ، كما يتعانق الناس عادةً قبل المعركة ، وقبل الموت . فهذا العناق خنق كلماتهما ودموعهما ومشاعرهما . . .

– لاتنسَ ابني اندريي ! – كانت كلمات أبلوموف الأخيرة ، التي تفوّه بها بصوت خافت هامد .

خرج أندريي بهدوء وبصمت. كان يسير في فناء المنزل ببطء وبتأمل ثم جلس في العربة ، بينما جلس أبلوموف على الأريكة ، مسنداً مرفقيه الى الطاولة ، ومخفياً وجهه بيديه .

« كلا ، لن أنسى ابنك أندريي » – فكر شتولتس بأسى عندما كان يسير في فناء المنزل . – لقد هلكت ياإيليا : لم تعد هنالك حاجة ولا ضرورة لأنْ أقول لك ، بأنّ أبلوموفكا لم تعد قريةً نائية موحشة ، فقد جاء دورها وغمرتها أشعة الشمس ! لن أقول لك ، بأنها ستصبح بعد أربع سنوات عقدة مواصلات ومحطة للركاب ، وانّ فلاحيك سيذهبون للعمل على بناء سكة الحديد ، وسيُنْقلُ بعد ذلك محصولك من القمح بواسطة القطار الى المرفأ . . . وسيتمّ هناك . . . في أبلوموفكا ، بناء المدارس ، وتعلّم القراءة والكتابة . . .

كلا ، فأنت سترتعد خوفاً من فجر السعادة هذا ، وستتعب عيناك من رؤية هذه المشاهد ، غير المألوفة . لكني سأقود ابنك أندريي الى حيث لم تستطع أنت أنْ تذهب . . . وسأحقّق معه أحلام شبابنا » . – وداعاً يا أبلوموفكا القديمة ! – قال شتولتس وهو يلقي لآخر مرة نظرة على نوافذ المنزل الصغير . – لقد مضى زمانك !

– ماذا هناك ؟ – سألت أولغا وقلبها يخفق بشدة .

– لاشيء ! – أجاب أندريي بجفاء ، وهو يتوقف بين مقاطع الكلمة .

– هل هو حيّ ، معافى ؟

– أجل ، – أجاب أندريي بتثاقل .

– لماذا عدت بمثل هذه السرعة ؟ لماذا لم تنادني ، ولماذا لم تأت به ؟ دعني أذهب لأراه !

– ممنوع !

– ماذا يجري هناك ؟ – سألت أولغا بذعر . – هل « انفتحت الهاوية » ؟ هل ستقول لي ماذا جرى ؟

ظلّ شتولتس صامتاً .

– ماذا يجري هنالك حقاً ؟

– أبلوموفية ! – أجاب أندريي بكآبة ، لكنه لم يرد على تساؤلات واستفسارات أولغا أثناء الطريق ، وظلّ صامتاً حزيناً الى أن وصل البيت.

– ١٠ –

خمس سنوات انقضت . جرت تبدلات كثيرة في ناحية فيبورغ : فالشارع المقفر المؤدي الى منزل بشينيتسينا ، أصبح عامراً بالمنازل والأبنية التي تشمخ من بينها بناية حجرية حكومية عالية ، كانت تحجب أشعة الشمس عن نوافذ المأوى الهادىء للكسل .

البيت ذاته بلي قليلاً ، كان يبدو مهملاً ، غير نظيف ، كرجل لم يحلق ذقنه ولم يغسل وجهه . الدهان تقشّر ، ومزاريب مياه المطر

تكسّرَتْ : فأصبح فناء المنزل مليئاً ببرك المياه والأوساخ ، حيث ألقي عبرها ، كما في السابق ، لوح خشبي ضيق ، كممر للعبور . لم يعد الكلب ينبح بحيوية ، عندما يدخل أحدٌ ما فناء المنزل ، بل بتكاسل وبصوت مبحوح ، مخنوق ، دون أنْ يخرج من بيته .

كم من التغيرات قد حدثت داخل البيت . هناك أمرأة غريبة تتصرف بشؤون المنزل ، كما لم يعد الأطفال السابقون هم الذين يمرحون ويلعبون فيه . يظهر فيه أحياناً من جديد ، تارانتييف المشاغب ذو الوجه الغائر ، الضارب الى الحمرة قليلاً ، بينما لم يعد ألكسييف الوديع يتردّد إليه . أما زاخار وأنيسيا فقد اختفيا منه : إذ أصبحت طاهية بدينة تتصرف بشؤون المطبخ ، وتنفذ الأوامر والطلبات البسيطة لأغافيا ماتفييفنا . بدون رغبة وبفظاظة ، بينما كانت أكولينا تغسل الطسوت والمعالف ، وهي تضع طرف ثوبها تحت زنارها ، اما البوّاب الخامل ، المحب للنوم فلا يزال يرتدي نفس الفروة المصنوعة من جلد الضأن ، يعيش بقية عمره في جحره . وفي ساعات محددة من الصباح الباكر وبعد الظهر ، أصبح يُلمَحُ من جديد ، عبر السياج ، « أخ » أغافيا ماتفييفنا ، متأبطاً رزمةً كبيرة ، ومنتعلاً حذاءً مطاطياً في الشتاء والصيف .

ماذا حدث لأبلوموف ؟ أين هو ؟ أين ؟ — هاهو جسده يرقد بهدوء في المقبرة المجاورة ، تحت إحدى الشجيرات . فأغصان الليلاك ، التي غرستها يدٌ محبّةٌ حانية ، تظلّل قبره كما ينفث نبات الشيح أطايبه وعبقه بهدوء . يبدو أنّ ملاك الصمت والهدوء يصون نومه ويحرس سكونه .

وعلى الرغم من أنّ عين زوجته المحبة الساهرة كانت تسهر عليه وترعاه دائماً باهتمام كبير ، فإنّ آلة الحياة كانت تتعطل وتتوقف تدريجياً وبصمت ، بفعل التأثير المدمر للسكون الدائم وانتفاء الحركة والسبات المستمر والكسل . فقد قضى إيليا إيلييتش ، على مايبدو ، بدون ألم أو عذاب ، كما تتوقف الساعة ، التي نُسِيَتْ ولم تُدوّرْ .

مامن أحد قد رأى لحظات أبلوموف الأخيرة ، أو سمع الأنين الذي سبق الموت . فقد تجدّدت الذبحة القلبية مرة أخرى ، بعد عام واحد ونجا منها أيضاً :

لكنّ إيليا إيلييتش أصبح شاحباً ، ضعيفاً ، يأكل قليلاً ويخرج الى الحديقة قليلاً ، أصبح أكثر صمتاً وتأملاً ، حتى أنه كان يبكي أحياناً . كان يشعر بقرب موته ، وكان يخشى كثيراً ذلك الموت .

غشي عليه بضع مرات ، لكن الأمور كانت تمر بسلام . ذات مرة صباحاً ، كانت أغافيا ماتفييفنا تحمل إليه القهوة كعادتها ، فوجدته راقداً بوداعة على فراش الموت ، لكن رأسه كان متزاحاً عن الوسادة قليلاً ، ويده مضمومة بتشنج نحو قلبه ، الى المكان ، الذي تجمّد فيه ، على مايبدو وتوقّف دمه .

ثلاث سنوات انقضت على ترمّل أغافيا ماتفييفنا : كانت أمور كثيرة قد تغيرت وفقدت مجراها المألوف السابق . فقد عمل أخ صاحبة الشقة بالتعهدات وأفلس ، ثم عاد عن طريق التحايل والتزلف والمداهنة الى عمله الوظيفي السابق ، الى حيث « يُسجّل الفلاحون » ، وهاهو ذا

يذهب من جديد سيراً على الأقدام الى مكان عمله ، ويرتشي بالكوبيكات وبأرباع وأنصاف الروبلات ليملأ صندوقه ، الذي خبّاه منذ زمنٍ بعيد في مكانٍ ما . أما طريقة العيش فقد أصبحت فظة ، بسيطة ساذجة ، كما كانت عليه الحال سابقاً قبل مجيء أبلوموف .

كانت إيرينا بانتيليفنا ، روجة أخ صاحبة الشقة : تلعب الدور الرئيسي في المنزل ، أي أنها كانت تملك الحق بأنْ تستيقظ متأخرة ، وتتناول القهوة وتغير فساتينها ثلاث مرات يومياً ؛ كانت تملك الحق بأنْ تهتم بأمرٍ واحد فقط من بين الأمور المنزلية كلها ، هو أنْ تكون تنانيرها منشّاة على أحسن وجه . باستثناء ذلك ، لم تكن تهتم أو تتدخل بأي شيء آخر ، فأغافيا ماتفييفنا كانت كالسابق ،رقاص الساعة النشيط في البيت : فهي التي تهتم بالمطبخ وتحضّر الأطعمة وتضعها على الطاولة وتسقي كل من في البيت ، الشاي والقهوة ، وتخيط لهم الملابس الداخلية ، وتغسل البياضات ، وتهتم بالأولاد وبأكولينا والبوّاب .

لكن ، لماذا أصبحت الأمور على هذا النحو ؟ إنها أرملة ابلوموف ، إنها السيدة النبيلة ، فهي تستطيع أنْ تعيش وحدها ، بكامل الإستقلالية ، دون أنْ تحتاج لمعونة من أحد . ماالذي أجبرها على أنْ تأخذ على عاتقها مسؤولية بيت غريب ، وأطفال ليسوا أطفالها ، ماالذي أجبرها على أنْ تحمّل نفسها مثل هذه الأعباء والمشاغل ، التي تفرضها المرأة على نفسها عادة ، إما بدافع الحب ، أو من أجل الحصول على لقمة الخبز ؟ وأخيراً ، أين الميراث الذي تركه زوجها ، وأين أندريوشا الصغير ؟ أين يعيش ابنها وابنتها من زوجها السابق ؟

لقد انتظمت أمور ابنها وأبنتها ، أي أنّ فانيوشا قد أنهى تعليمه وبدأ عمله ، أما ماشا فقد تزوجت من أحد الموظفين ، بينما يعيش أندريوشا الصغير الآن في عهدة شتولتس وزوجته ، كفرد من أفراد أسرتهما . فأغافيا ماتفييفنا لم تقرن يوماً مصير طفلها أندريوشا بمصير ولديها الآخرين ولم تساوه بهما ، مع أنّ قلبها كان يضعهما ، رغماً عن إرادتها ، في منزلة مساوية له . لكنها كانت تضع حداً فاصلا عميقاً بين تربية أندريوشا وتنشئته ، ونمط حياته المقبلة ، وبين حياة فانيوشا وماشينكا .

ـ من يكون فانيوشا وماشينكا ؟ إنهما قذران مثلي ، ـ كانت أغافيا ماتفييفنا تقول باستخفاف ، ـ فقد ولدا في جسد لاتجري فيه دماء النبلاء ، أما هذا ، ـ أضافت بلهجة تنمّ عن الإحترام وهي تتحدث عن أندريوشا بلطف وبشيء من الحذر ، وربما بشيء من التهيّب أيضاً ، ـ فإنه نبيل ! بشرته بيضاء ، ناعمة طرية ، أما يداه وساقاه فغايةفي الجمال ، وشعره ناعم كالحرير . إنه يشبه المرحوم تماماً !

لذا ، فإنها وافقت بدون اعتراض ، وحتى بشيء من الفرح ، على اقتراح شتولتس الرامي لأنْ يأخذ أندريوشا في عهدته ، ويتعهّد بتربيته ، معتبرة أنّ مكانه الطبيعي هناك ، وليس في « هذا المستنقع » مع أولاد أخيها القذرين هنا .

ظلت تعيش مع أنيسيا وزاخار في المنزل مدة نصف عام بعد وفاة زوجها ، وهي تعاني الكثير من الحزن والألم بسبب المصيبة ، التي ألمت بها . كانت تتردّد كثيراً الى قبر زوجها وتذرف الدموع الغزيرة

حزناً عليه ، ولم تأكل أو تشرب تقريباً ، كانت تعيش على الشاي فقط ، حتى أنها كانت تقضي الليالي دون أنْ يغمض لها جفن ، فأصبحت منهكة خائرة القوى . لم تكن تشتكي أبداً ، كانت تتحمّل مصيبتها بصمت ، ويبدو أنه كلما ابتعدت عن لحظة الفراق ، كلما استغرقت في تأملها وحزنها أكثر ، فكانت تنطوي على نفسها وتنعزل عن الجميع ، حتى عن أنيسيا.لم يكن هنالك أحد يعلم مبلغ ماتعانيه .

ذات مرة ، قال أحد الباعة في السوق للطاهية ، التي تعمل في منزل أغافيا ماتفييفنا ، والتي تشتري من مخزنه عادة كل مايلزم البيت من مؤونة ، بأنّ صاحبة الشقة تبكي دائماً حزناً على زوجها .

أما أحد الشيوخ فقال بأنها حزينة جداً على زوجها ــ قال ذلك ، وهو يشير إليها أثناء توجهها الى الكنيسة الكائنة بالقرب من المقبرة ، التي كانت تذهب إليها الأرملة كل أسبوع لتبكي وتصلي من أجل راحة زوجها . وفي منزل أخيها غالباً ماكان يتردّد بأنها لاتزال كئيبة .

ذات يوم ، شنّت أسرة أخيها ، وعلى نحو مفاجىء ، هجوماً اشترك فيه أفراد الاسرة جميعاً ، بمن فيهم الأولاد ، وحتى تارانتييف ، بحجّة مواساتها وإبداء التعاطف معها . انهالت التعازي المبتذلة ، والنصائح ، التي تحثها على « الإهتمام بصحتها وبنفسها من أجل أولادها » ــ قيل لها باختصار ، كل ماقالوه لها ، عندما مات زوجها الأول منذ خمس عشرة سنة ، وهو الأمر الذي استقبلته حينئذ بقبول وارتياح ، لكنها تلقّتْهُ الآن لسببٍ ما ، بشيء من الإشمئزاز والقرف .

شعرت بشيء من الإرتياح عندما أخلوا يتحدثون عن أمرٍ آخر ، وعندما أخبروها بأنهم يستطيعون الآن أن يعيشوا معاً من جديد ، وأنّ هذا سيخفّف « من مصيبتها وسط أهلها وأقاربها » ، وأنهم سيكونون مسرورينَ بالعيش معها ، لأنه مامن أحدٍ يستطيع أنْ يحافظ على النظام في البيت كما تستطيع أغافيا ماتفييفنا .

طلبت إمهالها بعض الوقت لتفكر بالأمر ، ثم أمضت بعد ذلك شهرين من الأسى والحزن ، ووافقت أخيراً على العيش معاً .في هذه الآونة ، كان شتولتس قد أخذ أندريوشا ليتكفّل بتربيته ، فبقيت وحيدة.

هاهي ترتدي فستاناً أسود ، وتضع على عنقها شالا صوفياً أسود ، وهي تنتقل من الغرفة الى المطبخ كالظلّ ، فتفتح وتغلق الخزانات كالسابق وتخيط وتكوي ، لكن بهدوء ، وبلا حيوية ، وتتكلم بصوت خافت ، كما لو أنها تفعل ذلك بدون رغبة ؛ لم تعد تنظر كالسابق الى ما حولها باهمال ، وهي تُتنَقِّلُ عينيها من شيء لآخر ، بل أصبحت تنظر الى الأشياء بتركيز وتمعّن ، وهي تخفي في عينيها فكرة خفية . أصبحت هذه الفكرة خفية على مايبلو ، منذ تلك اللحظة ، التي نظرت فيها طويلا وبوعي الى وجه زوجها الميت ، فلم تفارقها منذ ذلك الوقت .

كانت تتحرك في البيت وتعمل بيديها كل ماهو ضروري ، لكنّ تفكيرها لم يكن موجوداً هنا . فوق جثة زوجها ، وفي لحظة فقدانه ، فهمت حياتها ، على مايبدو ، فجأة وصارت تفكّر بمعناها ، ثم أصبح هذا التفكير راقداً كالظل على وجهها والى الأبد . فبعد أنْ فرّجتْ عن

نفسها بالبكاء ، تركزّ تفكيرها كله على إدراك خسارتها : فكل شيء آخر قد مات وانتهى بالنسبة لها ، ماعدا أندريوشا . كانت أمارات الحياة تنبعث فيها ، عندما تراه فقط ، فتصبح ملامح وجهها حيوية ، وتمتلىء عيناها بشعاع من السرور والضياء ، ثم تذرفان بعد ذلك دموع الذكريات.

كانت غريبة عن كل مايحيط بها : فاذا ماغضب أخوها بسبب روبل ضيّعه عبثاً ، أو لم يكسبه ، أو بسبب شريحة من اللحم احترقت قليلا ، أو بسبب شراء سمك غير طازج ، وإذا ماتجهّمت زوجة أخيها بسبب تنانيرها غير المنشّاة كما ينبغي ، أو بسبب شاي خفيف بارد ، وإذا ما أغلظت الطاهية البدينة في القول ، فإنّ أغافيا ماتفييفنا لم تكن تلاحظ شيئاً من ذلك كله ، كأنّ الكلام غير موجه إليها ، ولا يعنيها ، ولم تكن تسمع حتى همسهم اللاذع : « نبيلة إقطاعية ! » .

كانت تجيب على ذلك كله بصمت مستكين وبعزّة نفس أضنتها الفاجعة .

على العكس من ذلك ، ففي أيام الميلاد ، والأمسيات البهيجة لعيد الصوم الكبير ، وفي الأيام المشرقة الصاحية ، عندما يبتهج ويغني ويأكل ويشرب كل من في البيت ، كانت وسط الفرح والمرح الشاملين تذرف فجأة دموعاً حارة سخية ، ثم تنزوي وتتوارى في أحد أركان المنزل .

بعد ذلك ، كانت تركّز تفكيرها من جديد ، حتى انها كانت تلقي أحياناً على أخيها وزوجته نظرة تنمّ عن تشامخ وإشفاق . أدركت ، بأنها خسرت الحياة ، وأنّ الله قد أدخل البهجة الى

حياتها ثم استردّها من جديد ؛ أدركَتْ بأنّ الشمس قد سطعت ، ثم انطفأت الى الأبد . . . الى الأبد ، لكن حياتها بالمقابل ، أصبحت ذات معنى : إنها تعرف الآن لماذا عاشت ، وبأنّ حياتها لم تكن عبثاً .

أحبتْ أبلوموف حباً رائعاً ، عظيماً ، صادقاً : أحبته كعشيق ، وكزوجٍ ، وكسيد نبيل ، لكنها لم تفصح عن ذلك مطلقاً لأحد ، ولم تكن تستطيع أنْ تفعل ذلك . فما من أحد ممّن يحيط بها ، كان يمكن أن يفهم مشاعرها تلك . زد على ذلك ، أين تعثر على اللغة المعبّرة ؟ فمفردات أخيها وتارانتييف وزوجة أخيها ، خالية من مثل تلك الكلمات المعبّرة ، الزاخرة بالمفاهيم السامية والمعاني النبيلة ، فايليا إيلييتش هو الوحيد فقط الذي كان يستطيع فهمها ، لكنها لم تصارحه بذلك أبداً ، لأنها لم تكن قد أدركت ذلك عندئذ ، ولم تكن قد عرفته بعد .

مع السنين ، أصبحت تدرك ماضيها بشكلٍ أكثر عمقاً ووضوحاً ، وصارت أكثر صمتاً وتركيزاً . فأشعة الضياء ، والنور الهادىء ، التي عاشتها وأحسّت بها سبع سنوات مَرَّتْ كلمح البصر ، قد أضاءت حياتها كلها ، فلم تعد تنتظر شيئاً أو تريد الذهاب الى أي مكان .

وعندما عاد شتولتس فقط من القرية في فصل الشتاء ، هرعت الى منزله ، وأخذت تنظر بلهفة الى أندريوشا ، وتداعبه بشيء من التهيّب والحذر ، ثم أرادت بعد ذلك أنْ تقول شيئاً ما لأندري إيفانوفيتش ، وتشكره ، وتفضح له عن كل مايعتمل في أعماقها ويعيش في قلبها ، لأنه كان لابدّ أنْ يفهمها ، لكنها لم تكنْ تعرف أنْ تعبّر عما تشعر به ،

فاكتفت بأنْ ارتمت على أولغا وألصقت شفتيها بيديها وراحت تذرف سيلاً من الدموع الحارة السخية ، مما أرغم أولغا على البكاء أيضاً ، أما أندريي فقد خرج من الغرفة بسرعة ، وهو في غاية الاضطراب .

ما كان يوحّدهم ويجمع بينهم ، هو التعاطف المشترك ، والذكرى الصادقة الواحدة لروح المرحوم النقية الصافية . توسّلوا إليها كي تذهب الى القرية ، لتعيش معهم هناك ، بالقرب من أندريوشا ، — لكنها كانت تصرّ على شيء واحد ؛ « هنا وُلِدْتُ وعشت ، وهنا يجب أنْ أموت » .

كان شتولتس يُرْسِل إليها الدخل المتأتيّ من أبلوموفكا ، لكنّ محاولاته كانت عبثاً ؛ كانت تعيدها إليه وترجوه كي يدّخرها من أجل أندريوشا .

كانت تؤكد باصرار : هذا الدخل له وليس لي . سيحتاجه ، إنه سيد نبيل ، اما أنا فسأعيش هكذا ، كما تعوّدت .

— ١١ —

ذات مرة ، في منتصف النهار تقريباً ، كان سيّدان يسيران على الأرصفة الخشبية في ناحية فيبورغ ، كانت هنالك عربة تسير خلفهما ببطء . أحدهما كان شتولتس ، أما الآخر — فكان صديقه . كان صديقه هذا كاتباً ، بديناً ، علامات الخمول باديةٌ على وجهه ، أما عيناه فكانتا متأملتين ، يكاد أنْ يغلبهما النعاس . أصبحا بمحاذاة الكنيسة ، كانت الصلاة قد انتهت ، فخرجت أعداد كبيرة من الناس وملأت

الشارع ، كان المتسولون الفقراء في مقدمة الجميع . كان حشد المتسوّلين كبيراً ومتنوّعاً .

ــ كم أريد أنْ أعرف من أين جاء هذا الحشد من المتسوّلين ؟ ــ قال الكاتب ، وهو ينظر إليهم .

ــ ألا تعرف من أين ؟ من أصقاع مختلفة ومناطق عديدة . . .

ــ أنا لا أسأل عن هذا ، ــ اعترض الكاتب ، ــ أريد أنْ أعرف : كيف يصبح المرء متسولاً ، وكيف يصل الى مثل هذا الوضع ؟ هل يحدث هذا فجأة ، أم تدريجياً ، وهل هم فقراء حقاً ، أم يتصنّعون الفقر ؟ . . .

ــ لماذا تريد أنْ تعرف ذلك ؟ هل تريد أنْ تكتب « أسرار بطرسبورغ » . (١) .

ــ ربما . . . ــ قال الكاتب وهو يتثاءب بكسل .

ــ الفرصة مواتية : سَلْ أيّ واحد منهم ، وسيروي لك قصته لقاء روبل واحد ، أما أنت فبإمكانك أن تدوّن ماستسمعه ، ثم تعيد صياغته وتبيعه بربح كبير . انظر الى هذا العجوز ، فهو على مايبدو ، نموذج اعتيادي للمتسوّل . أيها العجوز ! تعال الى هنا !

التفت العجوز ، فرفع قبعته واقترب منهما .

ــ رحماكما ! ــ قال العجوز بصوت أجش . ــ ساعدا محارباً

---

(١) يلمح شتولتس هنا إلى المحاولات العديدة الرامية لتقليد الرواية الفرنسية « أسرار باريس » .

عجوزاً فقيراً مشوّهاً ، خاض ثلاثين حرباً . . .

ــ زاخار ! ــقال شتولتس بدهشة ــ هذا أنت ؟

صمت زاخار فجأة ، ثم وضع يده فوق عينيه ليحميهما من الشمس وأخذ ينظر الى شتولتس بامعان .

ــ اعذرني ، لم أتعرف على سيادتكم . . . لقد عميت تماماً !

ــ تنسى صديق سيدك ، شتولتس ، ــ قال شتولتس معاتباً .

ــ آه ، آه ، أندريي إيفانيتش ! ياإلهي ، لقد قهرني العمى وغلبني ! كيف حالك باأبتاه ! أخذ يتململ أمامه ، وحاول أنْ يمسك يد شتولتس لكنه لم يستطع ، فما كان منه إلاّ أنْ قبّل طرف ثوبه .

ــ لقد مَنَّ الله عليّ بأنْ أعيش لحظة سعيدة كهذه . . . ــ بدأ يصرخ بصوت يشوبه البكاء تارة ، والضحك تارة أخرى . كان وجهه يبدو ، وكأنه محروق من جبينه الى ذقنه . أما أنفه فكان مغطى بلون أزرق . رأسه أصلع تماماً ، بينما لايزال فوداه كبيرين كالسابق ، لكنهما أصبحا متشابكين ، مشوّشين ، مدعوكين كاللبّاد ، كأنّ قبضة من الثلج قد وضعت في كلٍّ منهما .

كان يرتدي معطفاً عتيقاً مُنسّلا تماماً ، وينتعل حذاء بالياً بلون جورب ، وكان يمسك بيديه قبعة من الفرو ، بالية تماماً .

ــ آه ، ياإلهي ! لقد مَنَّ الله عليّ اليوم بهذه الفرحة الكبيرة . . .

ــ لماذا أنت في هذا الوضع ؟ لماذا ؟ ألا تخجل ؟ ــ سأل شتولتس بصرامة .

ـ آه ياأندريي إيفانيتش ! ماذا أفعل ؟ ـ بدأ زاخار وهو يتنهد بصعوبة . ـ من أين أعيش ؟ عندما كانت أنيسيا على قيد الحياة ، لم أكن أتسكع ، كنت أكتفي بقطعة الخبز ، لكن بعد أنْ ماتت بالكوليرا ـ وتلك هي إرادة الله ـ لم يقبل « أخ » سيدتي أن يبقيني في البيت واعتبرني طفيلياً . كان ميخاأندرييتش تارانتييف يعذّبني دائماً ، فما إن أمرّ بجانبه حتى يركلني بساقه من الخلف : أصبحت عيشتي لاتطاق ! كم تحمّلت من الإهانات واللوم ! صدّقني ياسيدي ، انني لم أكن أحصل على قطعة خبز أسدُّ بها رمقي فليمنح الله سيدتي الصحة والعافية ! ـ أضاف زاخار وهو يرسم علامة الصليب ، ـ فلولاها لكنت قد متّ منذ زمن بعيد من البرد والصقيع . كانت تعطيني الملابس ، التي تقيني برد الشتاء ، والخبز بوفرة ، والفحم للتدفئة . لكنها أصبحت تتعرّض للّوم بسببي ، لذلك قرّرت أنْ أغادر المنزل ، ورحت أتسكع في بلاد الله الواسعة ! وها أنا ذا أعيش حياتي التعسة هذه ، منذ سنتين . . .

ـ لماذا لم تبحث عن عمل ؟ ـ سأل شتولتس .

ـ وهل يمكن الحصول على عمل في هذه الأيام ياأندريي إيفانيتش ؟ ذهبت الى مكانين ، ولم أستطع الحصول على عمل . لم يعد الناس الآن ، كما كانوا سابقاً ، أصبحوا أسوأ . يشترطون على الخادم أنْ يكون ملماً بالقراءة والكتابة ، السادة في هذه الأيام لايحتاجون الى الكثير من الخدم ، ولا يريدون أنْ تكون غرفة المدخل مكتظة بالناس . فهم يكتفون غالباً

بخادم واحد ، ونادراً ما يستخدمون اثنين . السادة في أيامنا هذه يخلعون أحذيتهم بأنفسهم ! ياللفضيحة والعار ، لقد ضاعت النبالة !

تأوّه زاخار .

ـــ عملت عند أحد التجار الألمان . تحدّدَ بأنْ أجلس في غرفة المدخل ، وسارت الأمور على أحسن مايرام ، لكنه أرسلني بعد ذلك للعمل في المقصف : فهل هذا عملي ؟ ذات مرة ، كنت أحمل آنية وأسير على أرض ملساء ناعمة ، فانزلقت ساقي فجأة ، وسقطت الصينية والآنية كلها على الأرض : فطردوني ! بعد ذلك ، اتفق أنْ أعجبتْ كونتيسة عجوز بمنظري.« هيئته وقورة » ، ـــ قالت الكونتيسة عندما رأتني ، ثم أخذتني لأشتغل عندها بوّاباً . كانت الوظيفة جيدة وعريقة : فهي تتطلب مني فقط أنْ أجلس على الكرسي بمهابة ووقار ، وأضع ساقاً فوق الأخرى ، ولا أجيب فوراً عندما يأتي أحدٌ ما ، فأزمجر في البداية ، وأتفحصه بعد ذلك ، فأدعه يمر ، وإما أطرده ، أما الضيوف المحترمون ، فأستقبلهم بحفاوة ، وأتحدث إليهم باطراء ! لكن السيدة كانت من النوع ، الذي يصعب إرضاءه ! ذات مرة ، ألقت نظرة على غرفتي الصغيرة ، فشاهدتْ بقّة ، فاحتدمت غيظاً وأخذت تصرخ ، كما لو أنني أنا الذي خلقت البق ! متى كان العيش ممكناً بدون بق ! وفي مرّة أخرى ، كانت تمرّ بالقرب مني ، فتراءى لها أنّ رائحة الخمر تفوح منيّ . . . وكانت محقّة بذلك ! فرفضتني .

ـــ إني أشتم رائحة الخمر تفوح منك الآن ! ـــ قال شتولتس .

ــ من الهمّ ياأندري إيفانيتش ، من الهمّ ، ــ قال زاخار بصوت مبحوح وبمرارة ، ــ جرّبت أنْ أعمل حوذياً أيضاً . اشتغلت بالأجرة عند أحد أصحاب الخيول ، فخانتني ساقاي ، ولم أصمد : فقد أصبحت عجوزاً ، فاقد الهمة والعزيمة ! كان الحصان جامحاً ، غضوباً ، فقد كاد أنْ يحطّمني ذات مرة ، وفي مرةٍ أخرى داس عجوزاً ، فأخذوني الى القسم . . .

ــ كفاك تسكعاً وسكراً ، تعال لعندي ، فسأخصّص لك غرفة ، وسآخذك معي الى القرية ــ هل تسمعني ؟

ــ أسمعك ياأبتاه أندري إيفانيتش . . .

تنهد زاخار .

ــ لاأرغب بالذهاب من هنا ، بعيداً عن قبر سيدي ! فليتغمّد الله بواسع رحمته معيلنا إيليا إيلييتش ، ــ بدأ زاخار يولول . كم كان سيداً عظيماً ! عاش ليُدْخِل المسرّات الى قلوب الناس ، ليته عاش مائة سنة . . . ــ

قال زاخار وهو ينشج . ــ قمت اليوم بزيارة قبره ، ما إنّ أصل الى هذه الناحية ، حتى أذهب الى قبره فوراً ، فأجلس وأجلس ، وأذرف الدموع بغزارة . . . يتراءى لي أحياناً ، أنه يصرخ لي قائلاً : « زاخار ! زاخار ! » ، فأشعر بقشعريرة تسري في جسدي ! كم كان محبّاً للخير ! كم كان يحبك أيضاً ! فليرحمه الله ، وليحطْهُ بعنايته وبركاته !

ــ تعالَ الى البيت ، لترى أندريوشا : سآمر لك بالمأكل والملبس ،

وستعيش عندنا على راحتك ! — قال شتولتس ، ثمّ أعطاه نقوداً .

— سأذهب لعندكم ، وهل أستطيع أنْ أتمالك نفسي عن الذهاب إليكم لرؤية أندريي إيليتيش ؟

يالهي ! هل هناك سرور أعظم من هذا ! سأذهب ياأبتاه ، سأذهب فليمنحك الله الصحة وطول العمر . . . — غمغم زاخار وهو يتابع العربة ، التي كانت تبتعد .

— هل سمعت قصة هذا المتسوّل ؟ — قال شتولتس لصديقه .

— من يكون إيليا إيلييتش ، الذي تحدّث عنه ؟ — سأل الكاتب .

— إنه أبلوموف : لقد حدّثتك عنه مرات عديدة.

— أجل ، إني أذكر الإسم : إنه رفيقك وصديقك . ماذا جرى له

— هلك وضيّع نفسه .

تنهّد شتولتس واستغرق في التفكير .

— لكنه لم يكن أقلّ ذكاء من الآخرين ، ولا أكثر غباءً منهم ، أما روحه فكانت نقيةً ، شفّافةً كالزجاج ؛ كان كريماً ، شريفاً ، رقيقاً ، ومع ذلك — فقد هلك وضاع !

— لماذا ؟ ماهو السبب ؟

— السبب . . . هو الأبلوموفية ! — قال شتولتس .

— سأحكي لك الآن : لكن أعطني فرصة لأستجمع أفكاري . دَوِّنْ ماسأقوله لك ، فلربّما سيفيد أحداً ما .

ثم قصّ له كل ماكُتِب هنا .

١٨٥٧ — ١٨٥٨



عــن الكاتب والرواية

إيفان ألكساندروفيتش غونتشاروف (١٨١٢ – ١٨٩١) أحد أكبر ممثلي الواقعية النقدية في القرن التاسع عشر . أسهم إسهاماً كبيراً في تطوير الرواية الواقعية الروسية ، وخاصة الرواية الإجتماعية – البسيكولوجية . منطلقاته الأيديولوجية والجمالية جعلته واحداً من الكتاب الروس المناضلين ضد النظام الإقطاعي – العبودي ، حيث جاءت مؤلفاته تنتقد بصرامة ذلك النظام الرجعي ، الذي فات أوانه .

ولد غونتشاروف في عام ١٨١٢ في سيمبيرسك وأمضى طفولته في أسرة غنية نصف إقطاعية ، نصف بورجوازية . أسهم مربيه تريغوبوف ذو النزعة التقدمية ، القريب من الديسمبريين في بلورة أفكاره منذ سني الطفولة . خلال سنوات ١٨٢٠ – ١٨٣١ درس غونتشاروف في المدرسة التجارية في موسكو ، وفي عام ١٨٣١ التحق بكلية الآداب في جامعة موسكو وتخرج منها في عام ١٨٣٤ . وعلى الرغم من المستوى المتدني للتعليم في ذلك الزمن ومن المناخ الرجعي السائد في أوساط الأساتذة آنذاك ، فإن الجامعة كانت تعيش غناءاً فكرياً هاماً . فالطلبة التقدميون كانوا منتظمين في حلقات يقودها غيرتسن ، بيلينسكي وستانكيفيتش ، فكانوا يقرأون الكتب الممنوعة ويخوضون نقاشات سياسية وفلسفية حامية الوطيس . بيد أن غونتشاروف الذي كان يسيطر عليه الإهتمام الأكاديمي الصرف لم ينخرط بشكل مباشر في هذه الحلقات التقدمية . لكن منطلقاته الجمالية كانت إلى جانب الفن التقدمي ، فقد تأثر بشكل واضح بمؤلفات بوشكين .

بعد تخرجه من الجامعة عمل في ديوان محافظ سيمبيرسك قرابة عام ، ثم انتقل إلى

بطرسبورغ في عام ١٨٣٥ حيث عمل هناك في قسم التجارة الخارجية التابع لوزارة المالية .

في عام ١٨٤٦ تعرف غونتشاروف على بيلينسكي ، الناقد الروسي العظيم ، الذي لعب دوراً كبيراً في تكوين وبلورة أفكار ومنطلقات غونتشاروف الإجتماعية والجمالية ، فأصبح مقتنعاً بعمق بضرورة القضاء على النظام الإقطاعي – العبودي ، متمسكاً بتقاليد الفن التقدمي ومقاييسه ، فسار على طريق الواقعية النقدية حتى النهاية . ومع اشتداد ساعد الحركة الثورية وتزايد دورها ، بدأ غونتشاروف يقترب أكثر فأكثر من الكتاب الروس ، الذين تجمعهم وتوحدهم المنطلقات الليبرالية ، لكنه لم يعتنق النظرة المادية ولا الأفكار الإشتراكية ، التي كان ينادي بها الإشتراكيون الديمقراطيون الثوريون الروس ولم يدرك أهمية النضال الثوري في الصراع ضد النظام الإقطاعي – العبودي .

بيد أن غونتشاروف ظل حتى آخر سني حياته وفياً لبيلينسكي ، يكن له أعمق الإحترام والتقدير ، معتبراً إياه مناضلاً جسوراً ضد الظلام والجهل والإستبداد ومعلماً تربى على يديه وأخذ منه كل مايتعلق بقضايا علم الجمال والأدب .

من أشهر مؤلفاته : « أبلوموف » ، « قصة عادية » و « الهاوية » .

* * *

ابلوموف

قضية الإنسان « الكامل » ، « السليم » و « المنسجم » تحتل مكاناً مركزياً في رائعة غونتشاروف « أبلوموف » . فلا بد لكل من يقرأها للمرة الأولى ، أو يعيد قراءتها ، حتى في الربع الأخير من هذا القرن ، أن يجد في حوار أبلوموف وشتولتس — الشخصيتين الرئيسيتين في الرواية — توكيداً على الدور الابداعي الخلاق للإنسان وعلى ضرورة ربط القول بالعمل والتقيد بمقاييس أخلاقية صارمة لدى ممارسة شتى أشكال النشاط الإنساني . سيجد القارىء حتماً إدانة محققة صائبة لمظاهر الكسل والخمول وقلة الحركة وانعدام النشاط ، أي للسمات التي تفقد الإنسان جوهره الإبداعي .

ظهرت رواية « أبلوموف » في مرحلة زمنية كانت روسيا تعيش فيها فترة مخاض وتحضير لتغييرات إجتماعية ، أهمها إلغاء نظام القنانة ، في مرحلة برزت فيها بشكل حاد مشكلة الماضي التاريخي والتطور المستقبلي « لروسيا المستيقظة من غفوتها » . وفي معرض تحديده لدور الأدب في تلك المرحلة ، أشار دوبرولوبوف إلى أن الأدب أصبح أداة هامة من أدوات التطور الإجتماعي الشامل ، فليس مطلوباً منه أن يكون وسيلة لغوية تعبيرية عن المجتمع فحسب ، بل أذناً صاغية وعيناً ساهرة أيضاً ، إذ من الضروري أن يعكس ظواهر الحياة بكل غناها وتنوعها ويقدمها في إطار شمولي مترابط . تأسيساً على ذلك ، جاءت رائعة غونتشاروف « أبلوموف » لتمثل من وجهة نظر دوبرولوبوف إدانة صارمة للنظام الإقطاعي — العبودي ، الذي كان يسمح « النبيل » أن يملك أنفساً عدة .

كتب بيساريف معلقاً على رواية غونتشاروف « أبلوموف » يقول : « سيظل مصطلح الأبلوموفية حياً خالداً في الأدب الروسي ، فاستخدام هذا المصطلح سيتجاوز حدود الأصقاع

الروسية مترامية الأطراف ليصبح مصطلحاً عاماً شاملا ، واسع الإستخدام » . لقد استطاع غونتشاروف أن يكشف بجلاء ودقة المغنى الإجتماعي والجذور التاريخية العميقة لظاهرة الأبلوموفية ويوضح خطرها وتأثيرها السلبي على مجمل عملية التطور الإجتماعي في روسيا .

نشرت رواية « أبلوموف » في العدد الأول من مجلة « المعاصر » الصادر في عام ١٨٥٩ ، في مرحلة أصبح فيها نمط الحياة الإقطاعي بعلاقاته الإنتاجية وأسلوب تفكيره ونظراته الحياتية عاجزاً عن مواكبة التطورات الجارية في روسيا آنذاك ، فجاءت الرواية تعكس بصدق حقيقي آفاق تلك المرحلة وتدين بشدة نمط الحياة الأبلوموفي الخامل الكسول .

أما الأسلوب الرئيسي ، الذي اعتمده غونتشاروف في روايته « أبلوموف » فهو المقارنة ، حيث يتم في أغلب الأحيان تقديم شخوص الرواية في تعارض تام . ذلك هو حال أبلوموف وشتولتس ، أبلوموف وأولغا ، أولغا وأغافيا ماتفييفنا . كذلك الظروف والأوضاع البيئية المحيطة يجري تصويرها في تعارض أيضاً : طفولة أبلوموف وشتولتس ، تطور قصة حب كل منهما ، حياة أبلوموف في ناحية فيبورغ وحياة شتولتس في القرم . كما أن معارضة « الحركة » و « الهدوء » و « الحب » و « الحلم » تملك مغزى هاماً متعدد المضامين على صعيد الأسلوب الروائي الكاتب .

إن مايستدعي الإنتباه حقاً هو وصف الكاتب لأدق تفاصيل الحياة اليومية في أبلوموفكا وتوظيفها من أجل توضيح وإبراز الظروف البيئية المحيطة ، التي أنتجت ظاهرة الأبلوموفية . فالحياة الأبلوموفية لا تغرس في الإنسان حب العمل والنشاط والمبادرة ، بل التأمل والخمول والكسل وانعدام الحركة . لذا فإن الكاتب يدين بصرامة ، لكن بشكل غير مباشر ، نمط الحياة الأبلوموفي ، يدين سمته الأساسية الأولى ألا وهي الخمول وانعدام الحركة . لكن الحياة التي يصورها غونتشاروف لا يستخدمها وسيلة للتفلسف المجرد ، فهو لا يريد أن يستخلص منها أية استنتاجات مباشرة كما يفعل بعض الكتاب ، بل يترك هذا الأمر للقارىء نفسه . مايفعله الكاتب هو أنه يقدم لنا لوحة حية رائعة مماثلة للواقع ، بينما يترك مسألة الإستنتاجات لجماهير القراء أنفسهم . فهو غير ميال لأن ينشد فوراً أغنية

عاطفية لدى مشاهدته وردة أو طائراً غريداً ، على الرغم أنه سيكون مأخوذاً برؤيتهما ، لكنه سيتوقف طويلاً وهو يمعن ويمعن . بيد أننا لن نتبين بوضوح الإنطباع الذي تكون في أعماق نفسه ، لكنه لا يلبث أن يبدأ برسم شيء ما ، فتتضح اللوحة تدريجياً وتصبح جلية ، رائعة ، أخاذة ، وفجأة يمثل أمامنا الوردة والطائر الغريد ببهائهما وروعتهما . بهذه الروعة تتجلى موهبة غونتشاروف الخلاقة ، التي بز فيها كل معاصريه من الكتاب الروس . إنه يستطيع في كل لحظة أن يستحضر أية ظاهرة حياتية ، فيستوقفها ويمسك بها ويغالبها حتى تصبح طوع بنانه . فهو لا ينفعل بجانب واحد فقط من جوانب الظاهرة أو الحدث ، بل يقلب الموضوع من كافة جوانبه ، فيتريث حتى تمر وتنقضي لحظات الظاهرة جميعاً ، وعندها فقط ينكب على معالجتها وتصويرها . ينجم عن ذلك طبعاً اعتماد أسلوب هادىء ، غير منفعل من جانب الكاتب ، لدى معالجته ظاهرة محددة ، ووضوح كبير في معالجة وتوصيف أدق التفاصيل واهتمام متساو بجوانب الموضوع كلها . كثيرون طبعاً لا يعجبهم أسلوب التعامل الهادىء ، غير المنفعل مع الواقع ، خاصة عندما يأتي من جانب شاعر أو كاتب ، فتراهم يبدون شتى الإنتقادات والأحكام القاسية بحق الكاتب ويتهمونه بالتجرد عن العاطفة . إننا نفهم وندرك الخلفية العفوية ، التي ينطلق منها هؤلاء في إطلاق أحكامهم وانتقاداتهم وربما تحدونا الرغبة بأن نشاركهم الرأي القائل بأن الكاتب مدعو لإثارة المشاعر وتأجيجها لدى القراء . لكننا يجب أن نعترف بأن رغبتنا هذه ، هي في جانب منها رغبة أبلوموفية ، ناجمة عن الميل في أن نملك بشكل دائم مرشدين وموجهين حتى في العواطف . فليس من العدل والإنصاف أن ننعت الكاتب بفقدان العاطفة وقلة التأثر لمجرد أن الأحاسيس لا تتفجر عنده على شكل هيجانات عاطفية ، بل تدفن بصمت في أعماق روحه . لعل العكس هو الأقرب إلى الحقيقة . فكلما تفجرت الأحاسيس بشكل أسرع ، كلما بدت أكثر سطحية وأقل عمقاً وصميمية . يمكن أن نسوق العديد من الأمثلة لتدعيم وجهة النظر هذه . فما أكثر الناس البارعين ، الموهوبين ، الذين يملكون المقدرة على إبداء عواطفهم والتعبير عنها بهيجانات انفعالية لا تلبث أن تزول سريعاً . فالإنسان الذي يعرف كيف يرعى العواطف ويصونها في أعماق نفسه بكثير من الأناة والصبر

ثم يكشف عنها في الوقت المناسب ، بعد أن تكون قد نضجت وتعمقت ، هو الإنسان الحقيقي الذي يملك حساً مرهفاً وعاطفة دفينة جياشة .

كيف تجلت موهبة غونتشاروف في روايته « أبلوموف » ! يمكننا أن نتلمس الإجابة على هذا السؤال من خلال تحليل مضمون الرواية .

يتضح لنا من خلال قراءة الرواية أن غونتشاروف لم يتناول إطاراً واسعاً من الأحداث لتصوراته وتخيلاته . فالحديث عن استلقاء الكسول الطيب أبلوموف في سريره ، وكيف أن الصداقة والحب لم يستطيعا بعث النشاط والمبادرة فيه لا تمثل بحد ذاتها قصة هامة . لكن الأمر الذي يسترعي الإنتباه حقاً هو أن الرواية تعتبر انعكاساً ومرآة صادقة للحياة الروسية في ذلك الزمن ، من هنا تأتي أهميتها القصوى . لقد جاءت بكلمة جديدة اختزلت الواقع الروسي برمته وحددت الوضع الإجتماعي بصورة دقيقة صائبة ألا وهي الأبلوموفية . فهذه الكلمة تعتبر مفتاحاً لفهم ظواهر الحياة الروسية كلها في القرن التاسع عشر ، ونتاجاً رائعاً تفتقت عنه موهبة كاتب عملاق .

ماهي السمات الأساسية لشخصية أبلوموف ؟

إنها تتبدى في الخمول والكسل وانعدام المبادرة وغياب الإهتمام بكل ما يحدث في هذا العالم من أحداث وتطورات . سبب ذلك يعود في جانب منه إلى وضعه الإجتماعي ، بينما يعود الجانب الآخر إلى نمط تطوره الذهني والروحي . فهو من حيث وضعه الإجتماعي «نبيل» يملك خادماً اسمه زاخار ، كما يملك ثلاثمائة زاخار آخر على حد تعبير دوبرولوبوف . فوضعه الاجتماعي جعله في منأى عن العمل كلياً ، فلم يذق مرارة الجوع والحرمان يوماً ولم يعرف المعاناة ، فكل مايريده ويطلبه موجود في متناول اليد . الخدم كثر من حوله ، فما إن تبدر منه حركة من إصبع حتى يهرع الجميع لتنفيذ مايرغب . هكذا نشأ وهكذا تربى . لم يعتمد على نفسه يوماً للقيام بعمل أو لتنفيذ مهمة ، فالكل في خدمته منذ أن أبصر النور .

هكذا يتضح بجلاء أن وضعاً كهذا لا بد أن ينعكس بالضرورة على التكوين الذهني والروحي لأبلوموف . فقواه الروحية الداخلية لا بد أن تذبل حتماً من جراء وضع كهذا ،

فينغرس التواكل والخمول والكسل في نفسه . لم يمارس عملا في يوم من الأيام ، إذا استثنينا طبعاً خدمته الوظيفية القصيرة التي لا تندرج ضمن إطار العمل حتى بمفهومه الضيق ، وبالتالي فانه لا يستطيع أن يتخذ موقفاً جدياً فاعلا من أية قضية أو مسألة مهما كانت بسيطة أو صغيرة . رغباته وأحلامه حبيسة صيغة تعبيرية محددة : « لو كان الأمر هكذا لتحسنت الأمور » ، لكن ماإن يتطلب الأمر منه مجرد حركة أو نشاط حتى تراه قد تخلى فوراً عن هذه الرغبات . واضح أن أبلوموف يملك شخصية حالمة ، فهو يفكر بكثير من الأمور ، إنه إنسان طيب ، رقيق ومحب ، لكن قواه عاجزة عن تحقيق مايحلم ويفكر به . سبب ذلك أنه رضع حليب التواكل والخمول والكسل وعدم المبالاة في البيئة الإقطاعية ، التي نشأ وترعرع فيها . إنه يعيش حالة من العبودية الروحية الناجمة عن عجزه الكامل في مواجهة أية قضية تعترضه . فالعجز والكسل مشروطان بوضعه الإجتماعي ، كما أن وضعه الإجتماعي يشترط بدوره الخمول وانعدام المبادرة والحركة واحتقار العمل والنشاط . فأبلوموف رهن إرادة الآخرين ، إنه عبد ذليل لمبادرة وإرادة الغير . إنه يعيش حالة من التبعية المقيتة حتى على صعيد علاقته بخادمه زاخار . فزاخار يستطيع على الأقل أن يمارس عملا ما ، لكن أبلوموف لا يقدر على فعل أي شيء .

حتى قصة حبه لأولغا لم تستطع أن تخلق فيه أي تبدل يخفف من خموله وكسله . فعندما بلغت قصة حبه مرحلة تطلبت منه القيام ببعض الأعمال البسيطة ، كالذهاب إلى القرية لتنظيم أملاكه وتدبير بعض شؤونه الخاصة ، فاننا نراه يتخلى عن هذا الحب ، مفضلا عليه حياة الخمول والكسل . فأي محرك وباعث على النشاط والتضحية أكبر من الحب !

لكن أبلوموف يدرك سبب سقوطه وعجزه ، الأمر الذي يزيد من مأساوية وضعه النفسي والمعنوي . ففي معرض رده على سؤال أولغا : « ماالذي قتل كل شيء فيك » ! يجيب : الأبلوموفية .

أما سريرة أبلوموف الصافية الطيبة فتقدم لنا مقطوعة الجذور عن تربة النشاط الإنساني والممارسة الإجتماعية ، وبالتالي فهي لا تملك معنى إيجابياً ، لأنها غير موضوعة في إطار إجتماعي واقعي .

بعد كل ماتقدم يمكننا أن نعتبر شخصية أبلوموف تعميماً لظاهرة أفرزتها ظروف اجتماعية محددة ، نعني الأبلوموفية . لكن مصطلح « الأبلوموفية » يمكن فهمه في إطار معاصر أيضاً ، مع التشديد طبعاً على اختلاف الظروف والعصر . فالطفيليون والمتقاعسون والخاملون والمقصرون واللامنتمون هم بمعنى من المعاني نماذج أبلوموفية معاصرة . لذا فان النضال ضد هذه الظاهرة بمفهومها المعاصر ، وضد الظروف التي تفرزها ، يظل موضوعاً راهناً على الرغم من اختلاف الشروط والعصر .

لننتقل الآن للتحدث عن شخصية أخرى .

تحتل شخصية شتولتس أهمية فائقة تساعدنا على فهم المعاني والمضامين ، التي أراد غونتشاروف أن يقولها في روايته « أبلوموف » . فهي تساعدنا كثيراً على أن نفهم بصورة أعمق الشخصية الرئيسية في الرواية ، نعني أبلوموف . فشخصية شتولتس تجسد البورجوازي ، الذي تتحول الفكرة عنده إلى معنى وعمل . تراه دائم الحركة ، كثير الأسفار ، يمارس نشاطات عديدة متنوعة ، لديه تصورات واضحة تتعلق بأمور حياتية متنوعة . لكن هذه الشخصية لم ترق إلى مستوى البطل الإيجابي الشمولي . لعل سبب ذلك يعود إلى أن غونتشاروف لم يجد في صفوف الطبقة البورجوازية الروسية بطلا إيجابياً حقيقياً .

اعترف غونتشاروف بأن شخصية شتولتس بدت شاحبة ، عارية ، غير متألقة . ماسبب ذلك ياترى؟

نتلمس الجواب على هذا السؤال من خلال الطابع المزدوج لموقف غونتشاروف نفسه من شتولتس . فعلى النقيض من أبلوموف يصورهلنا الكاتب بأنه ذكي ، عملي ، ذو خبرة ، كثير الحركة والنشاط ، لكن غونتشاروف لايرفعه إلى مستوى البطل الإيجابي الحقيقي ، الذي يضحي من أجل تحقيق مثل ساميه ، فنشاطه كله مكرس لخدمة مصالحه الشخصية الخاصة .

وفي معرض تقويمه لشتولتس ، كتب تشيخوف يقول بأن هذه الشخصية لم تبعث فيه الثقة والإرتياح ، فهو ماكر يعرف جيداً كيف يتصرف لمصلحته الخاصة فقط .

لعل أولغا هي الشخصية الوحيدة ، التي تملك سمات البطل الإيجابي الحقيقي . فهي بسيطة ، واضحة في سلوكها ومنطقها ، محبة ، وفية ، منسجمة مع نفسها ، شديدة التمسك بالمثل العليا ، ذات إرادة قوية ، إنها باختصار نموذج المرأة الرائعة . فهي تجسد الجديد الإيجابي في الحياة الروسية أكثر مما يمثله شتولتس . بداية حبها لأبلوموف كانت تنطلق من الثقة بتغييره باتجاه إيجابي ، وظلت مثابرة في حبها إلى أن تأكدت من انتفاء أية إمكانية لتحقيق ذلك ، عندئذ تركته . تركته لأنه عاجز عن مواجهة الحياة ورفدها بما هو إيجابي ، وستترك شتولتس الذي تزوجته ، إذا ماتأكد لها أنه قد أصبح عاجزاً أيضاً عن تحقيق ذلك . فأولغا تمثل النفي الحقيقي لظاهرة الأبلوموفية . إنها باختصار نموذج المرأة الرائعة .

المترجم



صدر عن وزارة الثقافة من سلسلة روايات
عالمية حتى الآن الروايات التالية :

١ — المبارزة	الكسندر كوبرين	ترجمة : يوسف حلاق
٢ — مولك	الكسندر كوبرين	ترجمة : يوسف حلاق
٣ — ابن لص	روخاس سبولبيدا	ترجمة : رفعت عطفة
٤ — الغاب	ابتون سينكلير	ترجمة : عبدالكريم ناصيف
٥ — حبة قمح	جيمس انغوجي	ترجمة : عبدالكريم محفوض
٦ — بيدرو بارامو	خوان رولفو	ترجمة : صالح علماني
٧ — أنت جريح	ايردال أوز	ترجمة : فاضل جتكر
٨ — لا تقتل عصفوراً ساخراً	هاربر لي	ترجمة : توفيق الأسدي
٩ — نقود لماريا	فالنتين رسبوتين	ترجمة : يوسف حلاق
١٠ — عنف	فستوس ايابي	ترجمة : هاني الراهب
١١ — اطفال منتصف الليل	سلمان رشدي	ترجمة : عبدالكريم ناصيف

٤٠٠٠ ط١ / ٥ / ١٩٨٥




Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الرواية العالمية

هذه هي الرواية الثانية عشرة من سلسلة روايات عالمية التي لاقت رواجا كبيرا حيث وصلت نسخها الى اقطار الوطن العربي . ولا عجب ، فالرواية تلعب في القرن العشرين الدور الذي كانت تلعبه الملحمة في العصور القديمة ، نقصد انها خير تعبير فني سواء أنها فكري ـ عن طبيعة المرحلة .

وسلسلتنا كشكل ، مع تكامله ، لوحة عن هذه المرحلة تتسم بالاحاطة والعمق .

من الروايات التي هي قيد الطبع

١٣ ـ المعلم ومرغريت بولغاكوف
ترجمة : يوسف حلاق

سعر النسخة
١٧٥ ل.س

مطابع وزارة الثقافة والارشاد القومي
دمشق ١٩٨٤